

المعرفة

مجلة ثقافية شهرية



❖ دراسات في الاقتصاد - محور

❖ الغزو الثقافي الأمريكي
❖ الصهيونية للأمة العربية
محور {

❖ المواقع الثقافية المصري
❖ في زمن التطبيع
ملف {

❖ شعر - قصة - تقارير - مناقشات

المعرفة

مجلة ثقافية شهرية
تصدرها وزارة الثقافة والإرشاد القومي
في الجمهورية العربية السورية

هيئته الإشراف

انطون مقدسي
د. عدنان درويش
د. حسام الخطيب
د. الياس نجمة
سهيح عيسى

رئيس التحرير:

محمد عمران

المعرفة

مجلة ثقافية شهرية

الاشتراك السنوي

- في الجمهورية العربية السورية : ٣٠ ليرة سورية
- خارج الجمهورية العربية السورية : مايعادل ٣٠ ليرة سورية
مضافا اليها اجر البريد (العادي أو الجوي) حسب رغبة المشترك
- الاشتراك السنوي : يرسل حوالة بريدية أو شيكا أو يدفع
نقدا الى محاسب مجلة المعرفة جادة الروضة - دمشق .
- يتلقى المشترك كل سنة كتابا هدية من وزارة الثقافة

تنوية

- ترتيب مواد العدد يخضع لاعتبارات فنية ،
ولاعلاقة له بقيمة المادة أو الكاتب
- المواد التي تصل الى المجلة لاتعاد الى اصحابها
سواء انشرت او لم تنشر

المراسلات

- باسم رئاسة التحرير
جادة الروضة - دمشق
الجمهورية العربية السورية

في هذا العدد

٤	رئيس التحرير	كلمات <input type="checkbox"/>
● دراسات في الاقتصاد - محور ●		
٧	د. احمد فارس مصطفى	<input type="checkbox"/> نحو تكتل اقتصادي سليم
٢٦	د. تيسير رداوي	<input type="checkbox"/> التعليم والتنمية الاقتصادية
٤٢	د. محمد مروان السمان	<input type="checkbox"/> التصنيع في البلدان المتخلفة
٧٨	الدكتورة أمل كابوس	<input type="checkbox"/> أهمية المعطيات الإحصائية في التخطيط
١٢٠	علي العيد	<input type="checkbox"/> هجرة الكفاءات العربية
● ملف المعرفة ●		
١٤٢	د. احمد أبو مطر	<input type="checkbox"/> الواقع الثقافي المصري في زمن التطبيع
● الغزو الثقافي الامبريالي الصهيوني للأمة العربية - محور ●		
١٨٠	الياس مرقص	<input type="checkbox"/> الغزو الثقافي في الوطن العربي
١٩٥	د. هاني الراهبا	<input type="checkbox"/> الثقافة الصهيونية . ماهي !!
٢١٥	د. صالح أبو اصبح	<input type="checkbox"/> وسائل الاعلام الغربية والانسلاخ الثقافي
٢٣٦	د. علي فهمي خشيم	<input type="checkbox"/> الجذور التاريخية للغزو الفكري
● أدب ●		
٢٦٨	شعر : محمد عمران	<input type="checkbox"/> الازرق والاحمر
٢٧٤	قصة : سلوى الخير	<input type="checkbox"/> عزف على اوتار الزمن الغافل
● آفاق المعرفة ●		
٢٨٦	اديب اللجمي	<input type="checkbox"/> اطار لنظرة شاملة
		<input type="checkbox"/> تحقيقا لوحدة ثقافية عربية مبدعة
٢٠٨	حافظ الجمالي	<input type="checkbox"/> من اللقاء الى الحوار الثقافي
		<input type="checkbox"/> العربي - الاوروبي - الافريقي
٢١٩	عيسى فتوح	<input type="checkbox"/> الثقافة والثقافة المضادة
		<input type="checkbox"/> مدخل الى عالم فؤاد الشايب
٢٤٦	عبد الرحمن حمادي	<input type="checkbox"/> معراج نذير العظمة
٢٤٩		<input type="checkbox"/> مشروع حولية الثقافة الفلسطينية

كلمات

□ ١ □

« الأزمنة الرديئة تنتج ثقافة رديئة . » كتب ، في الآونة الأخيرة ، أحد المثقفين العرب . لا دفاعاً عن تردّي الثقافة العربية كتب ، بل اعترافاً بائساً بهذا التردّي . . اعترافاً ، ومحاولة تسويغ في آن : « الأزمنة المجيدة ، بالمقابل ، تنتج ثقافة مجيدة . » وأضاف : « في هذا الزمن العربي الرديء لا تنتظروا ثقافة ذات قيمة . » .

لماذا ؟

لأن التخلف ، كما الحضارة ، لا يتجزأ . وفي وطن متخلف ، من الصعب انتظار ثقافة متقدمة . هذا هو الدور الثاني لانحطاط العرب . عودوا الى ما اعطى الانحطاط الأول : ثقافة من فسيفساء ، من تبرّج مضحك تحته يسترخي جسد عجوز مترهل ، ولا دم فيه . لا يتجزأ التخلف . والعرب في انحطاطهم الثاني ، لن يدعوا ثقافة ذات امتياز . حياتنا في بؤس ، وكذلك ثقافتنا .

□ ٢ □

نعترف بالبؤسين معاً : بؤس الحياة ، وبؤس الثقافة . ولا نردّ الثاني إلى الأول . نرده إلى بؤس الثقافة ذاتها . فقد يحدث أن يكون الزمن رديئاً ، وتكون الثقافة ذات مجد .

عريباً ، كان زمن المتنبي شديد الرداءة . ملء الأرض
كان الانهيار . ما كان ، على امتداد الوطن الكبير ، سوى
سيف الدولة من على الانقراض يقف ، وفي يده السيف ، وفي
صدره ، كما خلف ظهره ، الروم . . . هذا الزمن ، بالذات ،
انتج اعظم الشعر ، إلى جانبه اعظم الثقافة ايضاً . زمن
(رسالة القفران) ما كان افضل ، اما المهري فعظيم .

□ ٣ □

يحدث ، إذا ، ان يكون الزمن رديئاً ، وتكون الثقافة
عظيمة . كان الزمن الروسي اردأ ما يكون ، وقت كان
دستوفسكي ، تولستوي ، ويوشكين ، يبنون ثقافة روسيا
الشامخة . كانت ثقافتهم هدماً للزمن القيصري الأسود ،
مثلما هي إرهاب " بزمن ما بعد الانقراض . افضل شعر
الشريف الرضي هو صرخته آن كانت بغداد تتهاى للسقوط .
اعظم شعر فرنسا كان وقت الاحتلال .

المجنّ مشحذة الثقافة ، لا الاسترخاء . الإبداع ابن
شرعي" للآزمات ، ذلك انه ابن شرعي للتوتر . لا يكون إبداع
ما لم يكن توتر على مستوى الأزمة ، ما لم تكن المحنة خالقة
التوتر ، ما لم يوضع المبدع في اختيار المصير . الثقافة عدوة
الاسترخاء . حتى الاسترخاء الحضاري لا ينتج ثقافة مبدعة .
للإبداع ، في الفن خاصة ، حالة القوس المشدود . إنما الذي
لا ينقطع . وإنما الذي لا يسترخي .

□ ٤ □

لا حالة موت هو ، الزمن العربي الرديء هذا ، بل حالة
مخاض صعب ، حالة محنة حقة . الولادة ، لا محالة ، آتية .
اما الأم فقد تموت . ما يهم ؟ يعنيها من يولد . يعنيها من
الثقافة ما يبشر بالولادة ، لا ما يحمل نعي الأم . يعنيها ، على
رداءة حياتنا ، ان تنجّه إلى هذا الآتي .

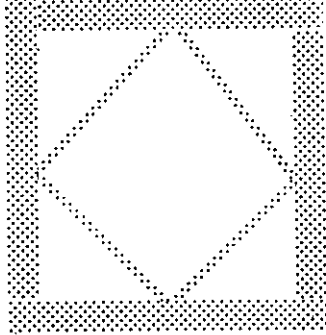
□ ٥ □

ثقافتنا ، للأسف ، لا تفعل هذا .

لذلك هي بائسة .

رئيس التحرير

دراسات في الاقتصاد محور



نحو تكتل اقتصادي سليم
في الدول النامية بشكل عام
وفي الدول العربية بشكل خاص

د. أحمد فارس مصطفى

التعليم والتنمية الاقتصادية
التصنيع في البلدان المتخلفة

د. تيسير داوي

د. محمد مروان السمان

أهمية المعطيات الإحصائية
في التخطيط لمساهمة المرأة
في التنمية الاقتصادية

الدكتورة أمل كابوس

هجرة الكفاءات العربية

أسباب - نتائج
مقترحات للحل

علي العيد

نحو تكتل اقتصادي سليم في الدول النامية بشكل عام وفي الدول العربيّة بشكل خاص

د. أحمد فارس مصطفى

أولاً : ضرورة التكتل الاقتصادي للدول النامية

إن دراسة تاريخ الوقائع الاقتصادية يعطي انطبعا
عاما بان العلاقات الاقتصادية الدولية كانت شبه
موجهة دائما بمبادئ الحماية التجارية باشكالها
المتعددة . وقد احتل موضوع التكتلات الاقتصادية
(مهما كان محتوى واهداف هذه التكتلات) ، أهمية
كبيرة في سياسات الدول المختلفة ، وبخاصة بعد

الحرب العالمية الثانية . ذلك لان هذه التكتلات اصبحت تمثل ضرورة موضوعية تحتمها التطورات العالمية في المجالات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وغيرها . وقد تجسدت هذه التكتلات في صور ودرجات متفاوتة من التكامل الاقتصادي . ففي اوروبا الرأسمالية نجد الاتحاد الجمركي ومن بعده الاتحاد الاقتصادي بين بلدان البنلوكس (بلجيكا - هولندا - لوكسمبورج) ، وجماعة الفحم والصلب الاوروبية ، والجماعة الاقتصادية الاوروبية (المشهورة باسم السوق الاوروبية المشتركة) ، ومنظمة التجارة الحرة . وفي اوروبا الشرقية ظهر مجلس التعاون الاقتصادي المتبادل (المعروف باسم الكوميكون) ، الذي يضم معظم البلدان الاوروبية الاشتراكية . أما الدول النامية ، فانها ظلت بعيدة عن التكتل الاقتصادي حتى بداية السبعينات ، ولاسباب سياسية واقتصادية عديدة .

في الواقع ، ان الدول المتقدمة صناعيا وتقنيا ، قد لجأت الى تطوير انواع متعددة الاشكال ومختلفة الصور من التكامل الاقتصادي الاقليمي (على مستوى عدة دول) ، وذلك اما لاسباب اقتصادية تنصب او تنحصر في اجراء ازالة او تخفيف قيود الحماية التجارية التي تفرضها كثير من الدول على التجارة الخارجية ، او لاسباب سياسية ، والتي يعتبر من أهمها وبرزها المنافسة بين النظامين الاجتماعيين العالميين ، النظام الاشتراكي والنظام الرأسمالي ، وضرورة تدعيم مواقع النمو الاقتصادي والتطور العلمي - التقني في كل مكان من هذين النظامين المذكورين .

لقد كان للتطورات السياسية العالمية ، ولا سيما على اثر ظهور المعسكر الاشتراكي كقوة عالمية وتعاظم دوره وتأثيره في المجالات الاقتصادية والسياسية ، وتحقيق الاستقلال والتحرر الوطني لمعظم الاقطار التي كانت تابعة للنظام الرأسمالي ، وتعاظم دور المعسكر المعادي للاستعمار ، دورا كبيرا في ربط القوة السياسية والعسكرية بالقوة الاقتصادية ، مما اسبغ على التكتلات الاقتصادية طابعا سياسيا .

مما سبق يمكن أن نستنتج أنه لكل تكامل وتكتل بين عدة دول أسباب ودوافع سياسية واقتصادية واجتماعية . . الخ . لكن إذا تركنا جانبا كل الدوافع والاسباب الاخرى للتكتل ما عدا الاسباب الاقتصادية ، لوجدنا أنه يمكننا أن نلخص الاسباب الاقتصادية للتكتل في الفقرات التالية :

١ - الاستفادة من اتساع حجم السوق الناجم عن ازالة الحواجز بأنواعها (جمركية - ادارية - . . .) بين الدول الاعضاء ، مما يتيح انشاء وحدات انتاجية قادرة على تحقيق وفورات الانتاج على نطاق واسع .

٢ - تنشيط المنافسة بين المشروعات الانتاجية المتماثلة في البلدان الاعضاء في التكتل الاقتصادي ، مما ينتج عنه تحسين الكفاءة الانتاجية لها ، وتخفيف حركة احتكار السوق الداخلية من قبل اعداد قليلة من الشركات الانتاجية الكبيرة في كل من البلدان الاعضاء المتكتلة على حدة . وهذه الظاهرة لها اهميتها ، بخاصة ، في الدول النامية ، اذ ان السوق الداخلية لكل منها ضعيفة اذا اخذ كل منها على حدة .

٣ - هنالك دول عديدة يركز اقتصادها الوطني وهيكلي تجاريتها الخارجية على سلعة واحدة او عدد محدود من السلع ، كالنفط والقطن والكاكاو و . . الخ . فيشكل تنافس هذه الدول في استغلال مواردها وفي تصريف انتاجها عائقا يحول دون حصولها على اسعار مجزية لسلعها في السوق الدولية ، خصوصا اذا كانت الدول المستوردة تؤالف ، بشكل علني او ضمنى ، جهة واحدة . وفي هذه الحال ، فان تكاتف وتكتل الدول المنتجة سيعود عليها حتما بشروط تجارية افضل في السوق الدولية .

٤ - ان التجارة الدولية للبلدان الحديثة العهد بالاستقلال السياسي تخضع لمخاطر عدم ثبات الاسعار في الاسواق الخارجية بسبب عدم تمتعها بالمعاملة التفضيلية ، وبسبب ميل معظم الدول الى حماية

اسواقها المحلية . ولذلك هذه الدول مجبرة على اتخاذ اجراءات تهدف الى توحيد اسواقها وتأمين اقلية جديدة لتبادل سلعها وتعميق هذه المبادلات بشكل يمكنها من مواجهة اجراءات الدول الاخرى التي تلجأ الى حماية اسواقها .

٥ - لعل الهدف الاساسي للتكتل الاقتصادي الدولي ، هو رغبة الدول ، وبخاصة النامية منها ، في توفير الظروف الملائمة لاستغلال خبراتها والاستفادة المتبادلة من مزاياها الانتاجية ، ودفع عجلة التصنيع فيها والارتقاء بها من الصناعات البسيطة الى الصناعات التصنيعية (الصناعات التحريضية) ، التي تجسد الثورة العلمية التقنية الهائلة التي يشهدها عصرنا الحالي .

٦ - ان التكتل الاقتصادي بين مجموعة من الدول يعطيها ثقلا على كافة الاصعدة والمجالات في علاقاتها الدولية ، ويؤمن لها قدرة اكبر على المساومة التجارية وفرض الشروط التي تراها ملائمة ومناسبة للمعطيات الاقتصادية المتوفرة فيها بشكل جماعي .

قد تضافرت هذه العوامل والدوافع والاسباب ، وظهرت الحاجة الى التكتلات الاقتصادية في مختلف مناطق العالم المتطورة منها والمتخلفة ، الرأسمالية منها والاشتراكية . الا ان هدف هذه التكتلات لم يكن واحدا . فالتكتلات الرأسمالية تحاول محاصرة الاقتصاديات المتخلفة واقتسام الاسواق التقليدية على اسس جديدة . في حين ان التكتلات الاقتصادية للدول الاشتراكية تحاول تحقيق مزايا مشتركة لاعضائها ومجابهة خطر التكتلات الرأسمالية ومحاولة مساعدة الدول النامية على الانطلاق نحو التقدم وكسر طرق التخلف الذي يحيط بها ويعرقل نموها ، وبحول دون رفع مستوى معيشة سكانها .

ازاء هذه المعطيات الجديدة في العلاقات الاقتصادية الدولية ، فان البلدان النامية ومن بينها البلاد العربية ، تجد نفسها في اشد الحاجة الى

التعاون والتكتل، والمواجهة المشتركة لحل مشكلاتها الأساسية البالغة انصعوبة في ميدان التنمية الاقتصادية . وخاصة أن أغلب هذه الدول تعاني من ضعف مواردها المادية والمالية . كما تعاني من ضيق أسواقها الداخلية ، مما يعيق إقامة الصناعات الأساسية (التصنيعية أو التحريضية) واللازمة لدفع عجلة التنمية والتطور إلى الأمام . بالإضافة إلى أن منتجات هذه البلدان النامية (أن وجدت) ، تتعرض للمنافسة الخارجية ولا تستطيع أن تصمد أمام منتجات البلاد المتقدمة في الأسواق الخارجية .

إن الدول العربية (كبقية الدول النامية) ، تحاول ومنذ وقت طويل الإسراع في نموها الاقتصادي . ورفع مستوى المعيشة لسكانها ، لكن الحدود السياسية والاقتصادية (والتي ظهرت بعد الاستقلال وانتهاء الاستعمار) ، أعاقت ولا تزال تعيق الجهود المبذولة في مجال تنمية هذه الدول وتحقيق أهدافها الاجتماعية والاقتصادية على حد سواء .

إن ضيق الأسواق الوطنية للدول العربية (إذا أخذت على انفراد) ، بالإضافة إلى التوزيع غير العادل للمصادر الطبيعية (من ثروات طبيعية أو طاقة سكانية) يشكلان أهم عائق أمام خطط التنمية الاقتصادية العربية ، كما أنهما يعيقان أية جهود من أجل إقامة الصناعات اللازمة للتطور والتقدم وتبديل هيكل الإنتاج في هذه الدول .

وفي الوضع السياسي الحالي للدول العربية ، الذي لا يسمح بدعم العلاقات الاقتصادية عن طريق إقامة اتحادات سياسية ، يظهر التعاون والعمل الاقتصادي المشترك بين الدول العربية كحل بديل وضروري من أجل أن تحتل هذه البلاد المركز اللائق بها في موكب الحضارة الإنسانية ، وأن تحقق خطط تنميتها الاقتصادية وبالتالي رفع مستوى المعيشة للسكان .

وكما نعرف ، يتألف وطننا العربي في وقتنا الحاضر من عدد ليس بالقليل من الدول المستقلة ، ذات السيادة ، حيث الحدود السياسية

تشكل حدودا اقتصادية ، مما يؤدي الى تشكل اسواق ضيقة نفوت فرصة الاستفادة من مزايا السوق الواسعة (المؤلفة من مجموع الاسواق العربية المنفصلة والمبشرة) .

هد ويظهر البنيان الاقتصادي لهذه الدول العربية تشابها واضحا ، رغم تنوع النشاطات الاقتصادية واختلافها نتيجة التنمية التي لحقت بقطاعات معينة دون أخرى وفي بعض البلدان العربية دون جاراتها .

لكن بشكل عام ، ان النشاط الاقتصادي في معظم الدول العربية يعتمد على قطاعي الزراعة والصناعة الاستخراجية (صناعة النفط بشكل خاص) ، اصف الى ذلك اعتماد هذه الدول على التجارة الخارجية في تكوين الدخل القومي ، مما يشير الى مدى تبعيتها الى الاقتصاد العالمي .

واخيرا فان ضيق الاسواق الداخلية لمختلف الدول العربية تكوّن المشكلة الرئيسية في وجه التصنيع والتنمية الاقتصادية لدى كل هذه الدول تقريبا .

لكل ما سبق ، لم يكن غريبا القول أن التكتل والتكامل الاقتصادي العربي هو ضرورة ملحة وحيوية للدول العربية .

ولا بد في هذا المجال من ان نشير الى مسألة هامة تمثل أحد التناقضات الأساسية البارزة في التكتلات الاقتصادية لبلدان العالم الثالث (ومن ضمنها بلدان العالم العربي) ، فعلى الرغم مما تمثله التكتلات الاقتصادية للدول الرأسمالية من مخاطر اقتصادية وسياسية جسيمة بالنسبة للدول النامية ، الا ان هذه الاخيرة قد اعتمدت ، بشكل صريح او ضمنى على الاسلوب الرأسمالي في التكتلات الاقتصادية والمبني على اساس حرية التجارة . ولا شك أن هذا التناقض يمثل أحد أهم الأسباب التي جعلت تكتلات الدول النامية عاجزة عن تحقيق طموحات شعوب البلدان النامية ، وهي تعكس من ناحية أخرى عجز الأنظمة

انسياسية والاجتماعية للبلدان المتحررة حديثا بشكل عام ، من تحقيق الاستقلال الاقتصادي الكامل وفك الارتباط بشكل نهائي عن النظام الرأسمالي العالمي .

في الحقيقة ان عدم التمييز بين التكتل والتكامل الاقتصادي للبلاد المتقدمة ، والتكتل والتكامل الاقتصادي للبلاد المتخلفة ، انما ينشأ عن عدم اعطاء حالة التخلف الاقتصادي التي تعاني منها كل الدول النامية (ومنها الدول العربية) ، الاهمية اللازمة من اجل ايجاد الحل الناجع لهذه الظاهرة التي تعرقل كل نمو وكل محاولة لرفع مستوى المعيشة للسكان المعنيين بالامر .

ان التكتل الاقتصادي المطلوب في الدول النامية ، هو التكتل الذي يؤدي الى بناء الهياكل الانتاجية فيها ، والذي يؤدي الى تصنيعها ، وبالتالي هو التكتل القادر على القضاء على حالة التخلف التي تعاني منها الدول النامية . ولذلك فان اتباع الدول النامية لنفس الطريق الذي اتبعته الدول الرأسمالية في تحقيق تكاملها وتكتلها الاقتصادي ، لن يؤدي الى تقدم ونمو اقتصاديات هذه الدول .

وبناء على الاسباب السابقة ، على الدول النامية ، ومنها الدول العربية ، ان تبني تكتلها الاقتصادي على أسس تؤدي الى تحقيق التنمية الاقتصادية المرغوبة ورفع مستوى المعيشة لسكانها . وعلى الدول النامية ان لاتنسى أيضا ان وضعها الاقتصادي والاجتماعي والسياسي يختلف كل الاختلاف عن حال الدول الرأسمالية . بالاضافة الى ان الغاية المرجوة من التكتل الاقتصادي في الدول النامية (القضاء على حالة التخلف) ، تختلف عنها في الدول المتقدمة (حرية التجارة) .

ان التكامل والتكتل الاقتصادي هو الطريق العلمي (والعملي) الحديث لخروج الدول المتخلفة ذات الهياكل الانتاجية الضعيفة من دائرة التخلف والتبعية الاقتصادية للدول المتقدمة ذات الهياكل الإنتاجية

المتطورة ، لكن يجب أن يقام هذا التكتل الاقتصادي المنشود على أسس تختلف عن تلك التي كانت أساسا للتكتل الاقتصادي بين الدول المتقدمة .

ان التكتل الاقتصادي المطلوب والملائم لحالة الدول المتخلفة هو ذلك التكتل القادر على تحقيق التنمية الاقتصادية الفعلية ، وهو ذلك التكتل الذي يعني ببناء الهياكل الانتاجية وتكامل هذه الهياكل في مختلف الدول المعنية بالامر .

ان التكتل الاقتصادي السليم هو التكامل بالتنمية ، وتنمية بالتكامل . حيث أن التكامل سيسمح للتنمية بالقيام ، كما أن التنمية المحدثة ستسمح للتكامل الاقتصادي (وبالتالي للتكتل) ، بالتحقق . وعن طريق هذا التكامل والتكتل بهذه المواصفات ستستطيع الدول المتخلفة كسر طوق التخلف ومن ثم تحقيق تنميتها الاقتصادية المطلوبة وتحقيق رفاه شعوبها ورفع مستوى معيشة مواطنيها .

ثانيا - نظرية التكامل الاقتصادي والدول النامية (١) :

لم يعد بالإمكان النظر الى مفهوم التنمية الاقتصادية بمعزل عن مفهوم التكامل الاقتصادي . ويظهر تلازم المفهومين من خلال التحديد لما يعنيه مفهوم التنمية في وقتنا الحاضر .

(١) ينطوي التكتل الاقتصادي على مبدأ التكامل الاقتصادي كضرورة ومنهجا لأعلى مستويات التعاون ، حيث يهدف الى بلوغ افضل الفوائد التي تدفع الدول الاعضاء نحو ابعاد درجات التكامل فيه ، ويعني هذا بلوغ الوحدة الكاملة . مما سبق يمكن ان نستنتج التلازم بين التكتل الاقتصادي والتكامل الاقتصادي في مظاهر التعاون القائم بين الدول . ولذلك من هذا الواقع ، يمكن القول ان دراسة التكامل الاقتصادي واسسه توضح الطريق الذي ترسمه دول منطقة ما من اجل تحقيق تكتلها الاقتصادي المطلوب .

مفهوم التنمية بجانبه الاقتصادي ليس سوى الراد التاريخي الصحيح على وضع اقتصادي معين في مجموعة معينة من البلدان في عالمنا الراهن هي ما اصطلح على تسميته ببلدان العالم الثالث أو البلدان النامية . وجميع هذه البلدان كانت اما مستعمرة او شبه مستعمرة . وبعد نضال طويل ضد الاستعمار حصلت هذه البلدان على استقلالها السياسي . لكن هذا الاستقلال لم يضعها تلقائيا في مستوى الدول التي كانت تعاني من سيطرتها . وانما اصبحت مستقلة وفي الوقت نفسه متخلقة بالقياس للدول الصناعية المتقدمة . وهذا الوضع عائد الى ماورثته الدول النامية من المرحلة السابقة للاستقلال من بنى اقتصادية تتسم بصفتين أساسيتين هما :

١ - **تبعية البنى الاقتصادية للمراكز الاستعمارية السابقة .** أي خضوع اقتصاديات بلدان العالم الثالث في نموها وتطورها لمقتضيات نمو اقتصاديات المراكز وتطورها . وتنحصر وظيفتها بلعب دور المنتج للمواد الأولية اللازمة للبلدان الرأسمالية المتقدمة ، ودور السوق لتصريف السلع المنتجة في هذه البلدان ، ولتوظيف الرساميل الفائضة عندها .

٢ - **تفكك البنى الاقتصادية للدول النامية .** فوظيفة الاقتصاد المتخلف كمنتج للمواد الأولية اللازمة للمراكز الرأسمالية المتقدمة ، وكسوق لتصريف بضائعها ، وتوظيف رساميلها ، تجعل من القطاعات المرتبطة بهذه الوظيفة قطاعات منعزلة داخل البنية الاقتصادية العامة للبلد ، ولا روابط تذكر تشدها الى بقية القطاعات التي تستمد منها الاكثريّة الساحقة من السكان معيشتها . فالزراعة والصناعات الحرفية تبقيان على تخلفهما ، بل تزداد أوضاعهما سوءا نتيجة لمزاحمة البضائع الاجنبية لها .

تلك هي اذن ركيزتا التخلف الاساسيتان : تبعية الاقتصاد وتفككه ، وما تبقى من ظواهر ، كانهخفاض الدخل ، وتفشي الامية والامراض وغير ذلك مما يؤخذ من مؤشرات للتخلف ، ما هي في الواقع سوى نتائج لحالتي التبعية والتفكك .

وعليه فان معالجة حالة التخلف في الدول النامية لا يمكن أن تنجح الا على ارضية معالجة المشكلتين الاساسيتين المذكورتين (التبعية والتفكك) ، وايجاد الحلول الصحيحة لهما . وان السير في طريق التنمية الفعلية لا يعني في التحليل الاخير سوى ذلك . وركزنا عملية التنمية الاساسيتان لا يمكن بذلك أن تكونا سوى استقلال الاقتصاد في الدول النامية وتكامله وتكمله مع اقتصاديات دول المنطقة المحيطة به .

لكن السؤال الذي يطرح في هذا المجال ، يتعلق بمعرفة الطريق الصحيح الذي على الدول النامية أن تتبعه من أجل الوصول الى التكامل الاقتصادي المطلوب وبالتالي تحقيق التنمية والتقدم .

في الحقيقة ، لقد أخطأت كل الدول النامية في اختيار طريقة التكامل الاقتصادي على النمط الرأسمالي ، تلك الطريقة القائمة على حرية التجارة وازالة الحواجز الجمركية . ودليل خطأ هذا الاختيار ظاهر في الفشل الذريع الذي واجهته كل التكتلات الاقتصادية في الدول النامية ومنها الدول العربية .

هذا ، وان سبب اختيار الدول النامية لاقامة تكاملها وتكتملها الاقتصادي نفس الخطوات التي اتبعتها الدول المتقدمة (وخاصة الدول الرأسمالية) ، يعود لعدم وجود نظرية تكامل وتكتمل اقتصادي خاصة بالدول النامية .

في الواقع ان معظم الدراسات التي تناولت التكامل الاقتصادي بالبحث والتحليل اعتمدت على تفسير التكامل الاقتصادي في البلاد المتقدمة والمتطورة ، دون التعرض لتكامل الدول النامية . ولذلك يرى كثير من الاقتصاديين أن الوقت قد حان لكي تعطى الاهمية اللازمة لتجارب الدول النامية في التكامل الاقتصادي من أجل وضع الاسس النظرية التي تساعد تلك الدول على ايجاد الطريق الصحيح لنجاح تكاملها الصحيح .

وبالفعل قام بعض الاقتصاديين ببحث التكامل الاقتصادي من واقع تجارب الدول النامية ، لكن أغلبهم اعتمد من جديد في تحليله على نظرية حرية التجارة والاتحاد الجمركي كأساس لإقامة التكامل الاقتصادي ، رغم انه ثبت من كل تجارب الدول النامية ، عدم صلاحية هذا الطريق لإقامة التكامل الاقتصادي الصحيح والسليم .

ان الاسس الهامة من اجل بناء السياسة الصحيحة لتكامل الدول النامية تكمن في الاخذ بعين الاعتبار الاشياء التالية :

١ - الحالة الخاصة لوضع الدول النامية :

وذلك من الناحية الاقتصادية والسياسية والاجتماعية . ذلك لانه لا يزال أمام هذه الدول طريق طويل قبل الوصول الى المستوى الصناعي والانتاجي للدول المتقدمة . ولذلك الدول النامية لا تستطيع ان تقلد الطرق التي اتبعتها تلك الدول المتقدمة لبناء تكاملها ، وانما عليها وضع طرق واساليب جديدة لتحقيق ذلك التكامل ، آخذة بعين الاعتبار الازمات الخاصة والسائدة فيها كدول نامية .

٢ - أهمية هدف التكامل الاقتصادي في الدول النامية :

ان الطابع الخاص لنظرية التكامل الاقتصادي للدول النامية ناشىء عن الهدف الاساسي الذي تريد هذه الدول تحقيقه من وراء هذا التكامل . وهذا الهدف هو تحقيق التنمية الاقتصادية عن طريق التصنيع . ولذلك فكل طريق آخر لتحقيق تكامل هذه الدول لا يحقق لها هدفها الاساسي بالتصنيع وبناء الهياكل الانتاجية ، يعتبر طريقا غير مقبول وغير سليم .

٣ - أهمية دور الدولة وقطاعها العام في الحياة الاقتصادية :

يقع على عاتق الدولة وقطاعها العام في الدول النامية واجب أداء الدور الاساسي لتحقيق التكامل الاقتصادي المرغوب عن طريق التخطيط واتخاذ الاجراءات الكفيلة بايجاد حل ناجع للمشكلات التي تعاكس التنمية

الصناعية ، وفي هذا الحال ، ومن وجهة نظر اقتصادية ، قدمت مجموعة الدول الاشتراكية للبلاد النامية المثال الذي يجب اتباعه من أجل وضع وتنفيذ الخطط التي تؤدي الى تحقيق التصنيع والخروج من حالة التخلف .

— من كل ما سبق يمكننا القول بأن التكامل الاقتصادي للدول النامية يؤسس على مبادئ وأهداف مختلفة عن تلك التي تتبع في تحقيق التكامل الاقتصادي في الدول المتقدمة ، وخاصة الرأسمالية منها . وبناء على ذلك ، فإن النظرية التي ستبحث في التكامل الاقتصادي للدول النامية ستكون نظرية حركية (ديناميكية) ، لأنها تبنى بشكل أساسي على الفكرة القائلة بأن الدول النامية لن تستطيع تحقيق تكاملها الاقتصادي الفعلي (السليم) ، ما لم تجر تعديلا مسبقا لبنائها الانتاجي ، وباعتبار آخر أن التكامل المطلوب في الدول النامية هو تكامل بالتنمية وهو تنمية بالتكامل .

وبلذلك فإن التكامل السليم والصحيح في الدول النامية هو الذي يؤدي الى تطوير الهياكل الانتاجية وتنميتها وجعلها قادرة على تزويد قطاع التجارة الخارجية بالسلع والمنتجات التي تحتاجها الدول الاعضاء والتي تكون مادة للتبادل فيما بينها . وفي هذا المجال يأتي الانتاج المشترك (او التخصص والتعاون الانتاجي) ، ليفرض نفسه كأساس وحيد لانجاح التكامل الاقتصادي المنشود بين مجموعة من الدول النامية . ذلك لانه عن طريق الانتاج المشترك ستستطيع الدول النامية تحقيق تنميتها الاقتصادية واعادة بناء هيكلها الانتاجية لتصبح متطورة ومتقدمة ومنافسة بمنتجاتها لما تقدمه الدول المسيطرة والمحتكرة للتجارة الدولية .

أما بالنسبة لمفهوم الانتاج المشترك ، فإن هذه الصيغة لبناء التكامل تتضمن أن تضع الدول النامية الراغبة في المساهمة بالتكامل الاقتصادي السليم ، كل امكانياتها المالية والبشرية والطبيعية من أجل انشاء مشاريع مشتركة في قطاعي الزراعة والصناعة ، ويعود أمر ادارتها اليها وحدها كما يعود اليها توزيع الانتاج والايرادات بين الدول الاعضاء وبحسب نسب الاشتراك .

ان الانتاج المشترك يعتبر نوعا من التكامل المحدود والذي يشكل في المستقبل اساسا للتكامل الاقتصادي الشامل والصحيح .

ويمكن تعريف الانتاج المشترك الدولي وبمعناه الواسع بأنه « اشتراك مراكز القرارات الخاصة (الافراد) أو العامة (الحكومات) ، والعائدة لعدة دول في العملية الانتاجية » . وهذا يعني اقامة المشاريع المشتركة، والاختيار المشترك ، وتأمين الوسائل الكفيلة بتحقيق التصنيع والتسويق للمنتجات الصناعية . ومن هذا يمكن ان نستنتج ان التكامل الاقتصادي على اساس الانتاج المشترك يخطط لنتائج ابعد بكثير من تحقيق توازن السوق او حرية التجارة لانه يخطط لاتحاد حقيقي بين مراكز القرارات العائدة للدول الاعضاء . ومن هذه الزاوية يمكننا القول ، بان صيغة الانتاج المشترك كوسيلة جديدة لاقامة التكامل الاقتصادي في الدول النامية ، تسمح بتحقيق اتحاد قائم على التضامن الفعلي والحقيقي والذي سيؤدي مستقبلا الى تحقيق الاتحاد الكامل . وفي هذه الصيغة الجديدة للتكامل الاقتصادي في الدول النامية ، لا تلعب آلية السوق (العرض والطلب) اي دور اساسي ، بل على العكس من ذلك ، فان السلطات العامة (الحكومات) ستتدخل من اجل انجاح التكامل الاقتصادي القائم على الانتاج المشترك ، ولاسيما بسبب ضعف الادخار الفردي في الدول النامية من جهة ، ولضرورة التخطيط الاقتصادي للتنمية ، حيث يلعب التمويل الحكومي دورا اساسيا من جهة ثانية .

والخلاصة التي يمكن ان نقولها حول تكامل الدول النامية (ومنها الدول العربية) ، ان الطريق الصحيح والسليم لهذا التكامل قد اتضحت الآن معالمه واسسه ووسائله ، ويتم ذلك عن طريق برامج الانتاج المشترك ، وبخاصة ان الطرق الاخرى للتكامل ، والمبنية على حرية التجارة ، قد ثبت فشلها في كل تجارب التكامل الاقتصادي التي تمت في الدول النامية .

ولذلك اذا استمرت حكومات الدول النامية (ومنها الدول العربية) على اتباع الطريق التقليدي ، أي الطريق الرأسمالي المبني على حرية التجارة ، في بناء تكاملها الاقتصادي ، فان هذا يعني شيئا واحدا ، هو ان الحكومات في تلك الدول النامية لا تريد لشعوبها الخروج من حلقة التخلف وحلقة التبعية والتجزئة والضعف .

ثالثا - التكامل الاقتصادي العربي ، بين النظرية والتطبيق :

بدأ التعاون بين البلدان العربية باكرا وبشكل ثنائي . أما التعاون الاقتصادي المتعدد الاطراف ، فانه لم يتخذ شكلا واضحا الا منذ عام ١٩٥٢ ، عندما عقدت « اتفاقية تسهيل التبادل التجاري وتنظيم تجارة الترانزيت » بين الدول العربية الاعضاء في الجامعة العربية .

وفي حزيران / ١٩٦٢ / تم عقد اتفاقية الوحدة الاقتصادية العربية ، بعد خمس سنوات من المفاوضات والمباحثات المطولة ، ولم تنضم الى هذه المعاهدة في حينه سوى خمس دول عربية فقط (هي : سورية - الاردن - مصر - الكويت - المغرب) ، ثم انضمت الى المعاهدة ثلاثة دول عربية أخرى (العراق - اليمن الشمالي - السودان) . وجاء في الاتفاقية ان الحكومات العربية ستسعى لاقامة وحدة كاملة فيما بينها ، وتحقق لها أفضل الشروط لازدهار اقتصادها وتنمية ثرواتها وتأمين مستوى معيشة أفضل لشعوبها . وان يتم تحقيق هذه الوحدة الكاملة بصورة تدريجية وعلى مراحل .

هذا ، ومن استعراض أهداف ووسائل اتفاقية الوحدة الاقتصادية العربية ، نجد أنها اعتمدت على مبدأ « الاتحاد الجمركي وحرية التجارة »

كأساس لإقامة الوحدة والتكامل الاقتصادي العربي . أي أنها اختارت الأسلوب الرأسمالي القائم على حرية التجارة في إقامة التكتل والتكامل . وبالتالي وقعت في نفس الخطأ الذي ارتكبه الدول النامية الأخرى ، والذي أدى إلى أن يكون مصر كل تكاملها وتكتلها الاقتصادي الفشل الذريع .

وجاء انشاء السوق العربية المشتركة ، كخطوة أولى نحو تحقيق الوحدة الاقتصادية العربية ، بقرار من مجلس الوحدة الاقتصادية العربية في آب / ١٩٦٤ . وعند انشائها ، لم يصدق على القرار سوى اربعة دول عربية هي : سورية ومصر والاردن والعراق ، وبقيت الدول العربية الأخرى خارج السوق العربية .

وفي الواقع العملي ، ومنذ دخول قرار انشاء السوق العربية المشتركة في بداية ١٩٦٥ ، نفذت الدول العربية الأعضاء في السوق القرارات الخاصة بتحرير التجارة فيما بينها من جميع الرسوم الجمركية والرسوم والضرائب الأخرى والقيود الكمية والإدارية بغية ايجاد منطقة تجارة حرة تضم الدول الأعضاء .

ورغم تحرير التبادل التجاري بين الدول الأعضاء في السوق العربية المشتركة فإن أرقام التجارة بينها بقيت ضئيلة ولا تشكل إلا نسبة بسيطة من إجمالي تجارتها الخارجية (٦.٥٪ من إجمالي الصادرات والواردات تقريباً) ، بينما تصل نسبة التجارة العربية مع الدول الصناعية الغربية إلى ما يقرب من ٧٧٪ من التجارة الخارجية العربية .

وتعود نسبة التبادل التجاري الضعيفة بين الدول العربية بشكل عام وبين الدول الأعضاء في السوق العربية المشتركة بشكل خاص ، إلى أن جميع الدول العربية تدخل في عداد الدول المصدرة للخامات والمواد الأولية ، والمستوردة للسلع والمنتجات الصناعية . وبالتالي ، فإن درجة ارتباط الأسواق العربية (بوضعها الحالي) بالأسواق الخارجية هي

أقوى بكثير من درجة الارتباط الداخلي بين الأسواق العربية بعضها البعض ، وحتى وإن كانت تضمها السوق المشتركة .

ان ظهور دلائل اندماج منخفضة في مجال التجارة بشكل عام (٦٥٪) بين دول السوق العربية المشتركة يعكس عدم الترابط بين القطاعات الاقتصادية ، وغياب تنسيق السياسات اللازم لتنويع الانتاج لتحقيق قدر أكبر من الترابط . كما يعكس اعتماد هذه الدول العربية في تأمين احتياجاتها على الدول خارج الاقليم ، وبنسبة كبيرة . وهذا الوضع يكرس تبعية هذه الدول للعالم الخارجي .

ان دراسة حالة السوق العربية المشتركة وفقا للمعطيات الاقتصادية لكل من بلدانها الاربعة ، تكشف عن مجموعة من الحقائق ، نوجزها فيما يلي : (وهي تنطبق أيضا على علاقة الدول العربية الأخرى ببعضها) :

١ - تخلف الهياكل الانتاجية لكل الدول الاعضاء ، وتختلف القطاعات المكونة لهذه القطاعات ، وصالة حجم الصناعات الحديثة .

٢ - اعتماد الدول الاعضاء على التجارة من خارج الاقليم (صادرات و واردات) ، وهو ما يعكس ضعف الترابط الهيكلي بين اقتصاديات هذه الدول .

٣ - هناك امكانيات هائلة للاندماج الاقتصادي العربي لم تستغل حتى الآن . وان هناك العديد من المصالح المشتركة بين بلدان السوق لم يتم النظر اليها من خلال الجهود المشتركة .

٤ - تباين الاقتصاديات القطرية العربية من حيث هياكلها الانتاجية ومن حيث مراحل ومستويات النمو التي وصلتها ومن حيث الموارد والثروات الطبيعية والبشرية والمالية .

٥ - المصالح الضالعة داخل الاقطار العربية ، ففي كل قطر عربي هناك مصالح لبعض الفئات ، في القطاعات التجارية ، والصناعية والخدمات ، تخشى على مواقفها وعلى اوضاعها من عمليات التكامل الاقتصادي العربي ، وما يمكن ان يرتبط بها من سياسات . وفي كل الدول والمجتمعات على اختلاف انواعها ، تضغط هذه المصالح لتمنع حدوث التكامل الاقتصادي الذي يضر بمصالحها .

٦ - عدم توافر الإرادة السياسية لاتمام التكامل الاقتصادي العربي . ذلك لان تلك الإرادة لا تصدر عن فراغ ، وانما تتأثر فيما تتخذه من قرارات تتعلق بالتكامل الاقتصادي ، بما تتصوره محققا لمصلحة القطر الذي تنتمي اليه ، وبالمصالح الذاتية للفئات المختلفة ، وهي فئات تنجح ، غالبا ، في اقناع المسؤولين عن القرار السياسي بان المصلحة العامة للقطر هي التي تحركها وليس الخوف على اوضاعها ومواقفها . ومن هنا تتولد لدى اصحاب القرار السياسي القناعة بان التكامل الاقتصادي العربي ليس في مصلحة اقطارهم . وهذا هو المقصود مما يذكر دائما من ان ضعف الإرادة السياسية هو العامل الاساسي في ازمة التكامل الاقتصادي العربي .

٧ - تقلب الاوضاع والعلاقات السياسية بين الدول العربية ، وتعرضها للأزمات والهزات من وقت لآخر ، وبما يصل احيانا الى حد قطع هذه العلاقات . واذا كانت طبيعة الاسباب التي تكمن وراء ذلك ، فان الدول العربية لم تنجح حتى الآن : في جعل التعاون الاقتصادي بمنأى عن التأثير بالازمات والهزات السياسية التي تقوم بينها . فغالبا ما يترتب على نشوب الازمات السياسية بين دولة عربية وأخرى ، توقف وتجميد مشروعات التكامل الاقتصادي . وهذا من شأنه ان يضعف عملية التكامل ويمنع التقدم في تطبيق الاتفاقات التي تكون قد أبرمت . ويستطيع المتابع للاحصاءات التي تبين تطور العلاقات الاقتصادية بين الدول العربية ، ان يتبين تعرضها لتقلبات قوية ومفاجئة بين الارتفاع والانخفاض . وهي تقلبات لا يمكن فهمها الا في ضوء الازمات السياسية المتكررة .

٨ - أخيراً ، يمكننا القول ان من أهم اسباب فشل السوق العربية المشتركة في تحقيق اهدافها ، هو اعتمادها على نفس المبادئ التي اعتمدت عليها تجارب التكامل الاقتصادي في الدول الرأسمالية المتقدمة القائمة على مبادئ حرية التجارة والتبادل . وشاهدنا في فقرات سابقة ان هذا الاسلوب لاقامة التكامل لا يمكن ان يكون مفيداً للدول النامية ، ومنها الدول العربية ، لانه لا يستطيع ان يؤدي الى التطوير التلقائي للجهاز الانتاجي بما ينشئ وينمي الفروع الانتاجية والمشروعات التي يمكن ان تكون ركيزة لتوسيع المبادلات العربية في المستقبل ولتحقيق خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية في تلك الدول ، ورفع مستوى المعيشة للسكان المعنيين .

مما سبق وقلناه عن التكامل الاقتصادي العربي : يمكننا ان نخلص الى نتيجة هامة ، وهي ان ذلك التكامل يجب ان لا يكون استنساخاً وتقليداً اعمى للتكتلات القائمة في الدول الرأسمالية والمبنية على مبدأ حرية التجارة والاتحادات الجمركية . لان تلك الصيغة ثبت فشلها في تحقيق آمال الدول النامية ، ومنها الدول العربية في تنفيذ خطط التنمية وبناء الهياكل الانتاجية فيها . لذلك على الدول العربية كبقية الدول النامية ، ان تسلك طريق « الانتاج المشترك » ، من اجل اقامة تكاملها الاقتصادي الذي سيحقق لها خطط تنميتها ، ويدعم ترابطها السياسي عن طريق زيادة ترابطها الاقتصادي الناتج عن اتباع هذا الطريق الجديد للتعاون والتكامل الاقتصادي .

ان الدول العربية تستطيع ان تضع مشاريعاً كثيرة ضمن خطة الانتاج المشترك لكن نجاح هذه المشاريع يعتمد ، في رأينا ، على شريط وحيد الا وهو **مساهمة الدول العربية المصدرة للنفط في تمويل هذه الخطة .**

في الحقيقة ان الدول العربية الاقل غنى ليست قادرة - في الوقت الحاضر على الاقل - على تمويل حصتها في مشاريع الانتاج المشترك

واللازمة من أجل تحقيق التكامل الاقتصادي العربي ، ذلك لأن مساهمة الدول العربية المصدرة للنفط والمالكة للينارات من الدولارات ، يؤمن رؤوس الاموال اللازمة من أجل تمويل مشاريع الانتاج المشترك ومشاريع التنمية الاقتصادية في البلاد العربية .

في الواقع توجد امكانيات حقيقية لمساهمة العائدات النفطية في تمويل المشاريع اللازمة لقطاعي الزراعة والصناعة بشكل خاص . ففي قطاع الزراعة تحتاج الدول العربية الى الاموال النفطية من أجل تنفيذ مشاريع الري ومشاريع سكنة الزراعة . حيث انه عن طريق هذه المشاريع ترتفع عائدية الارض وتستطيع بذلك الدول العربية ان تؤمن حاجاتها الغذائية دون أن تكون تحت رحمة الدول الكبرى المصدرة للمواد الغذائية . اما في مجال الصناعة ، فان العائدات النفطية بإمكانها المساهمة في تنفيذ المشاريع الصناعية اللازمة كأساس للتصنيع والتنمية الاقتصادية لهذه الدول العربية . ففي هذا المجال يمكن اقامة الصناعات البتروكيميائية ، وما تتضمنه من صناعات الاسمدة والمضادات للأفات الزراعية والحشرات والصناعات الفولاذية وما تتضمنه من منتجات لازمة للعمليات البناء ونقل البترول والاقامة للصناعات الثقيلة التي تعتبر الشرط الاول للتقدم الصناعي بشكل عام .

في المقابل ، من خلال مساهمتهم في خطط التكامل الاقتصادي عن طريق الانتاج المشترك ، فإن الدول العربية المصدرة للنفط يمكنها أن تأمل تحقيق المشاريع اللازمة من أجل تغيير بنية اقتصادياتهم لمواجهة مشكلات فترة ما بعد نفاذ البترول .

وهكذا نرى ، إن العمل الاقتصادي العربي المشترك لا تزال امامه فرص كثيرة ليؤكد على ان الامة العربية قادرة على التطور والتقدم وتحقيق امنيات الشعب العربي واهدافه ، كما انها قادرة ، بالاعتماد على قدراتها وثرواتها الذاتية ان تأخذ مكانها الطبيعي بين القوى الرئيسية الفعالة في العالم .

التعليم والتنمية الاقتصادية

د. تيسير داوي

عرف على مر التاريخ أن الانسان صانع الثروة وهدفها ، اي صانع عملية التنمية وهدفها . وهنا يعني ان صنع ذلك الانسان دفع لعملية التنمية ، ولذا كان التساؤل عن كيفية صنع ذلك الانسان وعن الأدوات - او التكنولوجيا والاستثمارات المادية اذا اردنا - التي تساعده في انجاز تلك العملية في الواقع المتخلف العنيد وباقل التكاليف . ولذا كان التساؤل عن دور التعليم ودور التكنولوجيا ودور الاستثمارات المادية واولوية تلك الأدوار .

- ١ -

منذ بداية وهي الانسان بلداً الاهتمام في معرفته وتعليمه ، راحت السلطات العامة تعتبره احدى مهامها الاساسية . حتى أن تدخل الدولة في مجال التعليم يمكن ملاحظته في اعماق التاريخ ودون انقطاع وفي كتابات وآراء سقراط وأفلاطون شواهد حية . السبارتاكيون تدخلوا في التعليم وخططوا له من أجل ملائمة مع أهدافهم العسكرية والاجتماعية والاقتصادية التي كانت محددة بشكل دقيق وواضح . أفلاطون نفسه اقترح خطة للتعليم ، الصين أيام امبراطورية « هان » القديمة وكذلك البيرو خططوا للتعليم .

أمثلة أكثر حداثة تبين كيف أن الدولة تدخلت في مجال التعليم أثناء الانتفاضات الفكرية والاجتماعية ومن أجل خلق تحولات في المجتمع ومساعدته على تحقيق أهداف جديدة ، كما هو الحال في الخطة التي اقترحها « جون كنوكس » من أجل نظام تعليم وطني للمدارس والمعاهد في القرن السادس عشر .

أكثر من ذلك أن رياح الحرية التي هبت على أوروبا في نهاية القرن الثامن عشر كانت قد بدأت مع خطة وضعت للجامعة الروسية وقدمت بواسطة الفيلسوف « ديدرو » أو تلك التي وضعت للجامعات الأوروبية الأخرى وقدمت بواسطة الفيلسوف « جان جاك روسو » .

عندنا : الحضارتان الأموية والعباسية شاهد حي على تدخل الدولة في التعليم قبل تدخلها في الحياة الاقتصادية ، وخير دليل على هذا التدخل وعلى الاهتمام الكبير ، هو خلقها ورعايتها لمجموعات التعليم « والبحث العلمي » .

هذا التدخل عبر كافة الحضارات وعلى مر التاريخ ، كان نتيجة منطقية لاعتبار التعليم منذ القدم ، تدليلاً أو تصريحاً ، كسلع اجتماعية

عامية ، أي اعتبار الانفاق على التعليم استثمارا واستهلاكاً وطنياً في نفس الوقت .

- ٢ -

أما عن اقتصاديات التعليم بالمفهوم الذي نعرفه اليوم ورغم أنه كان أقل وضوحاً ودقة ، فيمكن تلمسه عند آدم سميث . في كل الأحوال يجب الإشارة إلى أن لقب « اقتصادي التعليم » لم يوجد إلا حديثاً مع ظهور بعض الاقتصاديين المتخصصين في ذلك منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وأهمهم الأمريكيان « دونيسون » الذي بحث كثيراً في أسباب التنمية الاقتصادية ودور التعليم فيها ، « وشولتز » الذي بحث في الاستثمارات الإنسانية ودورها المحرض والنحاسم ، تلك الأبحاث جذبت في وقت وجيز عدداً كبيراً من الاقتصاديين الذين سريعا ما تخصصوا في هذا المجال .

ونستطيع القول أن هذا الاختصاص في الاقتصاد ، إذا صح استعمال كلمة اختصاص ، أخذ ابتداءه منذ عام ١٩٦٠ رغم أن تعبير « تخطيط التعليم » نجده في أول محاولة حديثة للتخطيط أي ضمن الخطة الخمسية السوفيتية الأولى (١٩٢٨ - ١٩٣٢) ، وكذلك ضمن خطط الديمقراطية الشعبية وفي الخطة الخمسية الثانية الفرنسية (١٩٥٣ - ١٩٥٧) .

ولابد من التنويه إلى أن تلك الخطط التي كتب لها النجاح ، كانت محددة الأهداف ، دقيقة الأداة ، واضحة الطريق . الاتحاد السوفيتي ، على سبيل المثال ، كان تخطيطه يهدف بشكل رئيسي بعد ثورة أكتوبر : للحاق بالدول الغربية . بينما أصبح الهدف بعد الحرب العالمية الثانية وفي كلا النظامين الاشتراكي والراسمالي هو تحقيق أكبر نسبة من النمو . وعلى نفس المنوال من وضوح الهدف وتغيره مع الحاجة والظرف فإن المشاكل المعاصرة في اقتصاديات الدول الراسمالية حملت تلك البلدان إلى تحديد المهام الأساسية أمام التعليم وأمام تخطيطه في : معالجة البطالة وتلبية الطلب الاجتماعي على التعليم وتلبية حاجات الاقتصاد من اليد العاملة المؤهلة في نفس الوقت .

اي انه يمكن القول دون حرج ان اهداف التعليم تطورت والتصقت بالاهداف الوطنية وكانت تتبع من قريب المشاكل الاقتصادية والاجتماعية وتحاول علاجها .

- ٣ -

اما في الدول المتخلفة ، فان حالة التعليم ومستوى التخطيط ومحتوى اهدافه لم تستطع ، لسوء الحظ ، ان تتراد على حالة التخلف البنيوية التي ترزح تحت وطأتها تلك البلدان . لقد فرحت هذه البلدان الفقيرة والصغيرة في طرح شعارات كبيرة بقيت حبرا على ورق وتلخصت في المساواة امام التعليم ، تأمين احتياجات الاقتصاد من اليد العاملة ، النضال ضد البطالة ، النهضة العلمية ، الخ ...

وهي في هذا ، لم تصوب باتجاه هدف مجدد ودقيق ويمكن المنال، يسمح لها بالخروج من حالة التخلف ورسم مسار هذا الخروج . بشكل آخر ، لم تحدد خطط التعليم في العالم الثالث ، عملية الإقلاع الاقتصادي والاجتماعي هدفا نهائيا لها ، ولم تحدد الاهداف المرحلية التي تتطلبها تلك الشعارات ولا الطرق المؤدية اليها .

لا بد ان تؤكد منذ البدء وبشكل صريح صعوبة تلك العملية ، عملية الإقلاع لا يمكن الوصول اليها الا عن طريق وسيلتين تكمل احدهما الاخرى الاستثمارات المادية والتكنولوجيا ، وهاتان الوسيلتان مستحيلتان الا في مجتمع يعتمد الانسان غايته والتعليم وسيلة ، ونظام القيم الاجتماعية اداة .

ومن اجل ذلك فانه من الطبيعي ان تكون أهداف التعليم مشتقة من اهداف التخطيط الاقتصادي ، او بشكل اخر ان تكون اهداف التعليم بما يوصل الى تحقيق الاهداف العامة .

- ٤ -

لكن السؤال الذي يطرح نفسه ونحن نبحث عن اهداف محددة للتعليم تسهل عملية التنمية في الدول المتخلفة هو : هل يتم اقلع تلك البلدان عن طريق الاستثمارات المادية ام عن طريق التكنولوجيا ام عن طريق توفير الكوادر المؤهلة ام عن طريق التعليم بشكل عام ؟

ان عملية الخيار بين هذه الاهداف ، او اذا شئنا بين هذه الحلول ، لن تعطي ابدا الحل الصحيح . ذلك لاننا نعرف من النظرية الاقتصادية انه لا يوجد استثمار او نشاط مولد ، او بصورة اخرى ، ليس هناك استثمار يولد اليا استثمارات اخرى وبالتالي يستحق الافضية .

من الاستثمارات المادية :

لتحطيم الاسلوب الكولونيالي القديم المبني على تقسيم الاقتصاد الى قطاعات منعزلة : صناعة - زراعة - عمل ذهني - عمل يدوي ، معهد - مصنع ، الخ . هذا الاسلوب القديم هو الذي حافظ على حالة التخلف في الدول المتخلفة وهو الذي انتج في افضل الحالات « اقتصاد ثنائي » .

ان تحطم الاسلوب القديم يجب ان يكون لصالح تطور اسلوب اخر متناغم حول القطاعات الثلاث الاساسية السابق ذكرها . ومع ذلك فان تطور اي من القطاعات الثلاث رهن بتطور القطاعين الاخرين :

أولا : الزراعة :

سكان البلدان المتخلفة في غالبيتهم فلاحون (اكثر من ٨٥٪) والمشكلة الرئيسية هي البطالة المقنعة وعدم استغلال الموارد المحلية والتوزيع السيء للثروة ولذا فان اي استثمار في الصناعة لايزيد من الانتاج الزراعي لن يستطيع تقديم اي فوائد الى الفلاحين . كما ان تطور الصناعة بحد ذاته بحاجة الى :

- يد عاملة محررة من الزراعة عن طريق تحديث هذه الاخيرة .
- مواد اولية تنتجها الزراعة .
- الزراعة عن طريق فائض انتاجها تحول التطور الصناعي .
- التطور الصناعي بدوره يعطي جزءا من انتاجه الى الزراعة .

لذا فانه من المؤكد ان الصناعة لاتستطيع النمو الا في وجود اسواق تصريف لها في القطاع الزراعي وذلك من اجل تبادل انتاجها معه وليس من اجل الاقتراع منه والا فان الزراعة سوف تتأخر وسوف ينعكس حتما آثار هذا التأخر على الصناعة نفسها .

ثانيا : الصناعات الحرفية والصناعات الخفيفة :

الصناعات الحرفية والمحلية تتميز بكونها تعتمد على موارد محلية وتلبي حاجات محلية وانتاجها يذهب في ثلاث اتجاهات :

- في اتجاه الزراعة التي تحدد نوع الصناعة المطلوبة : معامل سجاد صغيرة ، ورشات لتصليح الماكينات الزراعية ، مولدات كهربائية صغيرة ، مضخات ماء صغيرة الخ

- في اتجاه الصناعة الثقيلة التي تزودها الصناعة الخفيفة بالمدخلات اللازمة لها (قطع تبديل ، اطارات ، ادوات كهربائية سهلة الصنع) .

وتشكل تلك الصناعة الخفيفة في نفس الوقت منفذا لاستغلال فضلات الصناعة الثقيلة .

- في اتجاه الاستهلاك اليومي لجماهير الريف والمدينة مثل معامل الغداء البسيطة ، النسيج ، الادوات المنزلية الخ

ان البدء بالاستثمار في الانسان ، لا يستطيع ، ولا يسهل ، ولا يشجع الاقتصاد على امتصاص اليد العاملة التي تم تأهيلها . لا يستطيع هذا النوع من الاستثمار ، في قناعتنا ، ان يحقق وحده الاقلاع .

بشكل اكثر وضوحا ، يجب ان لا تترادف الاستثمارات المادية مع الاستثمارات الانسانية فقط بل وان تسبق الاستثمارات المادية الاستثمارات الانسانية قليلا . اي ان تبدأ الخطوة الاولى باتجاه المسير نحو الافلاح في استثمارات مادية لتكون الثانية باتجاه تأهيل اليد العاملة اللازمة لتلك الاستثمارات المادية . ذلك لان « المادية » سوف تحرص وتتطلب أو تطلب بنية اساسية Infrastructure مكونة اساسا من يد عاملة لازمة لتشغيل تلك الاستثمارات المادية .

ستكون الاستثمارات المادية ضمانا أكيدة على ان اليد العاملة التي سوف تؤهل ستستخدم في القطاع الانتاجي . وسوف يتحدد حجم تلك الاستثمارات الانسانية كما ونوعا بالطلب من العمل اي بحاجة الاستثمارات المادية من اليد العاملة وبنوعها . او ببساطة يتحدد حجم ونوع الاستثمارات الانسانية بنوع وحجم الاستثمارات المادية .

هذا يعني اننا وان كنا نرى تلازم الاستثمارات المادية والانسانية ، فاننا نعطي اسبقية بسيطة للاستثمارات المادية لان المنطق والضرورة تستدعي ذلك ، اذ ما فائدة استيراد التكنولوجيا ، وما فائدة تأهيل اليد العاملة ، وما فائدة التعليم في كافة مراحلها اذا لم يجد استخداما في الاستثمارات المادية من أجل تطوير تلك الاستثمارات واستغلالها كما يجب . اي من أجل تطور القاعدة المادية لاقتصاديات الدول المتخلفة .

ان اقامة نسيج صناعي ، على سبيل المثال ، سوف يجبر الدول المتخلفة على احياء التكنولوجيا الذاتية الكامنة عندها وعلى استيراد التكنولوجيا المتقدمة وعلى تأهيل اليد العاملة اللازمة لتسيير هذه الصناعات ، وسوف تتطور تلك التكنولوجيا وتتكامل وتتقدم مع تطور وتقدم الاستثمارات المادية .

بمعنى آخر ، الاستثمارات المادية سوف تتدخل في اختيار التكنولوجيا وهذه بدورها سوف تطلب بندا عاملة مؤهلة وسوف تحدد نوعها وحجمها ، وهذه بدورها ايضا سوف تحدد طبيعيا اقسام التعليم وحجمه . سنكون اذا امام سلم من الاهداف تحدد بوضوح اهداف التعليم وتحدد مساره .

كان السؤال المطروح هو : هل نمو التعليم يمكن أن يكون « موتور » التنمية الاقتصادية ام ان التنمية الاقتصادية هي التي ستكون « موتور » النمو في التعليم ؟

مقولة نمو التعليم (أي زيادة الانفاق الاجمالي او الانفاق لكل طفل) وعلى انه يساعد التنمية الاقتصادية ، كانت تنطلق من حقيقة ان العمل هو احد العناصر الاساسية في الانتاج ان لم يكن العنصر الاساسي ، وبالتالي احد العوامل المهمة في عملية التنمية الاقتصادية . لقد كان الاقتصاديون المؤيدون لهذه المقولة يعتقدون ان تحسين هذا العامل عن طريق التعليم سيجعله اكثر انتاجية وبالتالي يساهم في عملية التنمية الاقتصادية . ومن اجل الدفاع اكثر عن هذه المقولة دعموا آراءهم بالتحليل الاقتصادي وبالاحصائيات حيث بينت دراسة مقارنة جرت عام ١٩٦٠ للولايات المتحدة الامريكية منذ عام ١٩٢٩ وفي ٤٨/ ولاية فيها ان هناك علاقة بين الانفاق على التعليم لكل طفل وبين نسبة النمو الاقتصادي .

ولقد بينت هذه الدراسة ان معاملات الترابط بين نسبة النمو والانفاق ضعيفة جدا وحتى انها سالبة في بعض الحالات . لقد كانت النسبة سالبة حتى عام ١٩٧٥ ثم ازدادت حتى عام ١٩٥٠ (٧٠) قبل ان تهبط الى (٥٠) . وحاليا يؤكد اغلب الاقتصاديين على عدم وجود علاقة واضحة . وهذا عائد ، في الحقيقة ، الى ضعف الاساس الذي اعتمدت عليه المقولة التي تقول بان نسبة النمو تزداد بازدياد الانفاق وتلك مقولة مشكوك فيها ، لانه لا يوجد ما يؤكد ان :

- ١ - التعليم هو المصدر الوحيد المستقل لزيادة انتاجية العمل .
- ٢ - الطاقة الانتاجية للانسان تتركس التطور الاقتصادي .

اما المقولة الثانية والقائلة بأن النمو الاقتصادي يساعد على نمو التعليم ويطوره فتبدو اكثر صلابة . ذلك لان النمو الاقتصادي سوف يزيد الدخل القومي ويسمح بتحمل اعباء التكاليف الحالية بشكل اكثر سهولة . ويسمح بالتالي بتطوير الاستثمارات الاجتماعية بشكل عام والتعليم منها بشكل خاص .

الانصاف يحتم القول ان كلا المقولتين السابقتين واقفت على نصف الحقيقة ، وذلك لوجود علاقات متبادلة بين النمو الاقتصادي ونمو التعليم ، حتى وان كانت تلك العلاقات غير واضحة بشكل كاف . ويبقى الواضح الذي لاخبار عليه هو في كون التعليم في البلاد المتخلفة مصدر ابتلاع جزء لايمكن اهماله من موارد تلك البلاد لذا فان عملية تخطيطه وتحديد اهدافه تبدو مركزية .

- ٦ -

عند السعي لتخطيط التعليم في العالم المتخلف يبدو انه من غير المنطقي محاولة نسخ تجربة الدول المتطورة . هاتان المجموعتان من الدول ليس عندها نفس المشاكل وليست في نفس المرحلة من التطور . نظام التعليم يجب ان يجيب على اهداف مختلفة وتحت وطأة ظروف مختلفة .

ان عملية استثمار مادي بسيط وموزع في الدول المتخلفة لاتستطيع معالجة حالة التخلف وبالمثل فان عملية تطور كمية وبسيطة في نظام التعليم القائم في تلك البلدان لن يحل هذه المشكلة ، خصوصا وان نظام التعليم فيها ليس سوى عبارة عن « فوتوكوبي » لنظام التعليم الموجود في الدول المتطورة . وهذا الفوتوكوبي لايستطيع دفع التنمية في الدول المتخلفة او المساهمة في حل مشاكلها لان تلك الدول امام اربع مشاكل للتعليم مختلفة عما نجده في الدول المتطورة وهي :

- عدم الاستخدام الكامل لليد العاملة .
- الانتاج المادي الضعيف .
- البيروقراطية .
- التوزيع السيء لثروات البلدان .

نظام التعليم في البلدان المتخلفة نتاج التخلف ولن يستطيع ابدا لهذا السبب ان يكون اداة التبديل اذا لم يتبدل هو نفسه اولاً .

قبل عملية التحطيم التي جرت للصناعات الحرفية في تلك البلدان، كانت الورشة تقوم مقام المعهد في اعطاء الولد المبتدىء مهنة معينة ، اما اليوم أي مع « التحديث » ، أي مع حلول الصناعات الخفيفة مكان الصناعات الحرفية فان هذا الدور قد تلاشى . يذهب الاطفال اليوم الى المعاهد العاجزة عن اعطائهم اية مهنة .

لقد خرجت البلدان المتخلفة حديثا من حفيرة الاستعمار ، ولذا فان الدولة فيها في طريق التشكل والدور الموكل الى المعاهد ونظام التعليم بشكل عام في هذه البلدان - حتى وان كان هذا الدور غير معلن - هو امداد مؤسسات الدولة بالموظفين وحماة السلطة . ليس لنظام التعليم في هذه البلدان اية علاقة مع القطاعات الانتاجية ، وهذا يمكن ملاحظته بسهولة اذا نظرنا المعلومات التي تعطيها تلك المعاهد ، محتوى المناهج لايقدم اية فائدة للاستثمارات المادية المقامة ، نظام التعليم « ينتج » اشخاصا من تكوين معين لاداء الدور المرسوم لهم ، لذا لن يجدوا اماكن لهم الا في الجهاز البيروقراطي ، ونجد انفسنا فيما يتعلق بالخريجين المؤهلين للانتاج امام ظاهرة ، تقاوم المعرفة عندهم ، او بشكل آخر امام تبذير في التاهيل . هذا الوضع يزداد وضوحا بملاحظة اعداد ونوعيات المؤهلين المهاجرين الى خارج البلاد والذين يجدون لهم اماكن تتلاءم مع تاهيلهم في البلاد المتقدمة .

أمام هذا الفشل غير المرئي بشكل واضح يضاف فشل آخر لنظام التعليم أكثر وضوحا إذا رأينا تزايد أعداد الامين (من ٤٣ مليون أمة في الوطن العربي عام ١٩٧٠ الى ٥٠ مليون عام ١٩٨٠) وتراجع التعليم للإلزامي والتعليم الفني .

ان تبدا نوعيا وكميا في نظام تعليم العالم المتخلف ضرورة ملحة ، تبدا نوعيا يعني السعي الى تغيير البرامج واقامة المعاهد التي تتلاءم وحاجات الاستثمارات قيد التنفيذ ، تبدا كميا يعني السعي الى تعميم الفروع والاختصاصات اللازمة للمشاريع المقامة وتحديد التكاليف اللازمة لهذا التبديل .

بشكل آخر ، أكثر تحديدا ، حتى يساهم قطاع التعليم في عملية الاقلاع التي لن تتولد الا بتناغم ثلاث قطاعات وهي : الزراعة والصناعة المحلية والصناعة الثقيلة فان أمامه مهمتين محددتين :

الاولى : ضرورة تطور قطاع التعليم في المرحلة الاولى من الانطلاق حتى يستطيع تلبية الحاجات المستعملة في اليد العاملة (نوعا وكما) ، تلك الحاجات التي تحدها الاستثمارات المادية في طريق التنفيذ .

الثانية : حيث يكون دور التعليم في المرحلة الثانية من الانطلاق أكثر تعقيدا بسبب التقدم التقني الواجب حدوده والنواتج عن نقل التجهيزات والمعدات الاجنبية ، لكن كيف سيكون ذلك بالتحديد ؟

- ٧ -

عن طريق الاستثمارات المادية التي يفترض وضعها في طريق التنفيذ والتي تستطيع تلبية حاجات الانسان الاساسية وتخفيض تكلفة العمل . اي انها بالتحديد الاستثمارات التي تسمح بتحديث الزراعة ودعم ونشر الصناعات المحلية (الصغيرة . والذاتية الريفية) والصناعات الثقيلة . ويكون لقطاع التعليم ازاء ذلك دور رئيسي يتحدد في تأمينه للتكنولوجيا

اللازمة وفي اعداده لليد العاملة الضرورية . اي أن هدف قطاع التعليم يجب ان يتحدد بشكل واضح هو مساهمته في تبديل التركيب البالي للاقتصاديات المتخلفة عن طريق بعث التكنولوجيا العصامية وتأمين حاجات المصانع والمزارع في طريق النمو من اليد العاملة المؤهلة .

وسيكون لهذا السبب شعار قطاع التعليم « من الاستثمارات المادية الى الاستثمارات الانسانية » .

ثالثا : الصناعات الثقيلة :

لا يمكن للزراعة ولا للصناعات الحرفية والخفيفة أن تتطور دون مساعدة الصناعة الثقيلة . وفي الحقيقة فان الصناعة الثقيلة هي العون لهذين القطاعين بالتجهيزات وهي في نفس الوقت سوق تصريف لهذين القطاعين . في هذا الصدد ، ولان ايا من بلدان العالم الثالث لا يملك ظروف الصين ، فان الصناعة الثقيلة حتى يمكن اقامتها هي بحاجة الى تكامل اقتصادي يعطيها البعد الجغرافي والبشري اللازم .

الى الاستثمارات الانسانية : وذلك بعد أن يبدأ تنفيذ الاستثمارات المادية السابقة الذكر حيث نرى امام قطاع التعليم مهمتين مختلفتين زمنيتين .

المرحلة الاولى : حيث تكون مهمة قطاع التعليم اعداد اليد العاملة التي تحتاجها الاستثمارات التي بدىء بتنفيذها ومن اجل خلق الكادر التكنولوجي وتأمين التكنولوجيا العصامية .

المرحلة الثانية : حيث تكون مهمة قطاع التعليم المساعدة في نقل المعدات الراسمالية المتطورة من العالم المتقدم وفي تطوير الاستثمارات المادية .

هذان الدوران لقطاع التعليم يتطلبان أدوات وتركيباً لقطاع التعليم مختلفاً حسب المرحلة اي : في المرحلة الاولى : فان دور قطاع التعليم يكون في تحطيم التركيب المتخلف وتهيئة الجو الملائم لبعث التكنولوجيا وهذا لا يمكن إلا بواسطة معاهد بوليتكنيكية (متعددة الاختصاصات) تقدم التأهيل اللازم لتحسين التكنيك المتبع في الإنتاج وذلك بادخال تكنيك جديد يهدف زيادة الانتاجية عن طريق اقامة علاقة بين الصناعات الحرفية والصناعات الريفية ، بالتحديد ان دور تلك المعاهد هو :

١ - المساهمة في بناء القاعدة اللازمة لبث تكنولوجيا اصيلة ، وهذا يتطلب بث الخدمات التربوية والعلمية والتكنيكية على مستوى القاعدة اي على الفلاحين البالغين وأولادهم . هذا البث للتكنولوجيا يكون عن طريق البرامج التي يجب أن تخدم بشكل مباشر الزراعة والصناعة الحرفية والصناعة المحلية .

٢ - المساهمة في الجهود المبذولة من اجل التعبئة الجماهيرية التي تسمح بنمو وعي سياسي منظم .

٣ - مقاومة التفكير البدائي والعقلية المتخلفة والطائفية والقبلية من ناحية والتفكير الديماغوجي والفوضوي وغير المنظم من ناحية اخرى .

دور المعهد متعدد الاختصاصات في الريف يخدم الفلاحين جميعا حين يسعى الى مساعدتهم في امتلاك تكنولوجيا عصامية تفيدهم في حياتهم العملية اليومية وهذا لن يكون ممكنا الا في تغيير جذري للبرامج التي تدرس حاليا في الدول المتخلفة .

اما في المرحلة الثانية : فان دور قطاع التعليم الذي يفترض استناده في هذه المرحلة على قاعدة مادية وعلى مناخ تكنولوجيا متقدم عما رأيناه في بداية المرحلة الاولى ، ولذا فان هذا الدور يختلف كذلك عن تلك المرحلة ويمكن تلخيصه في :

- ١ - المساعدة على اختيار التجهيزات الرأسمالية الاجنبية المتقدمة وتسهيل عملية نقلها .
- ٢ - ملاءمة التجهيزات الرأسمالية المنقولة مع الحاجات المحلية وتسهيل استعمالها والعمل على صيانتها .
- ٣ - مقاومة التبعية التكنولوجية .
- ٤ - ادخال الادارة الحديثة في الانتاج .
- ٥ - دعم المشاريع الصغيرة والصناعة المحلية والريفية ومعالجة مشاكلها الفنية .

لا شك أن تلك المهام وهذا الدور المتقدم لقطاع التعليم يستدعي شكلا جديدا لنظام التعليم، وخصوصا التعليم الجامعي وبرامج دراسية وأساليب تدريسية جديدة .

- ٨ -

الا أن تنفيذ هذه الاستراتيجية التي تعكس طموحات كل المستقلين والضعفاء طموحات جماهير العالم المتخلف بشكل عام لا يمكن أن تتحقق الا بقيادة منتقاة ديمقراطيا .

ولذا يجب التساؤل فيما اذا كان بالامكان الوصول الى تلك القيادة السياسية الادارية ضمن اطار ايدولوجي سياسي واجتماعي متخلف .

ان التجربة الماضية للدول المتقدمة اليوم برهنت على أن التطور الذي احرزته لم يتحقق في البداية بسبب تقدم تقني وانما كان بسبب تقدم سياسي - اداري - اجتماعي وايدولوجي .

اي ان التجربة التاريخية بينت اكثر من جميع التطورات انه من المستحيل تحديد الاهداف الاقتصادية والاجتماعية الكفاء للبدء في عملية الافلاح دون تبديل التركيب البنيوي المكون لسياسة ومجتمع واقتصاد الدول المتخلفة .

إذا كان التخلف الاقتصادي والتقني يمكن مشاهدته بسهولة ، فإن التخلف السياسي الأيديولوجي - الاجتماعي لا يمكن تحليله ولمسه بنفس السهولة ولذا فإن النضال من أجل تجاوزه أكثر حدة وصعوبة ، لأنه يحتاج أولا الى تبديل عقلية الانسان نفسه . ويكفي مقارنة بسيطة بين بعض الدول لنرى أن السبق لا يمكن ايعازه دائما الى سبق اقتصادي وتقني وانما في اغلب الاحيان لا يمكن تحليله الا في سبق اداري واجتماعي - ثقافي .

لسوء الحظ أن الاستقلال السياسي الذي نالته الدول المتخلفة ترافق مع ولادة نظم سياسية « سلطوية » ومع تطور اقتصادي « كاذب » اي مع ظهور مجتمع استهلاك وسلطة بعيدة من الجماهير . بوضوح أن ذلك المجتمع يتميز ب :

١ - تراجع الدولة وظهور تركيبات ما قبل الدولة الوطنية اي دولة القبيلة ودولة المجموعة . هذا التراجع عن المرحلة الكولونيالية التي كانت تتميز بالتضامن الوطني عرقل ويعرقل اليوم اية محاولة للاندماج الاقليمي والقومي .

٢ - اقتصاد تلك الدول مرتبط خارجيا بالاقتصاد الرأسمالي العالمي وداخليا بالريف المتخلف ، بالمرأة المقهورة في المنزل ، بمجموع الاميين المعطلين عن العمل ، ببعض الصناعات الطافية كقطع الزيت التي لا تنتج في احسن الحالات سوى بضائع متجه الى المميزين من البيروقراطيين والبروجوازيين .

٣ - سيطرة الايديولوجيا البدائية بالرغم من تحول هذه المجتمعات من استعمال ادوات بدائية الى ادوات حديثة جدا .

٤ - ان المحافظة على السلطة هو الهدف الرئيسي للطبقة القائمة في تلك البلدان وهذا يتطلب منها تقوية مؤسسات الدولة التي تستنزف جزءا من الموارد الضعيفة للدول الصغيرة المتخلفة .

٥ - نظام التعليم في تلك البلدان هو محصلة هذا الواقع ، لذا فانه يتميز ببرامج في غالبيتها دون اية فائدة للقطاع الانتاجي ، ان هذه المناهج في افضل الحالات من اجل تأهيل موظفي الدولة او الكفاءات العلمية المهاجرة الى خارج الوطن .

أي ان التعليم الجامعي حتى وان كان في توسع مستمر فانه لايعطي التأهيل الفني المطلوب . كما ان هناك ضرورة لوضع البرامج والمناهج التي تسمح باقامة تقاطع بين التعليم الديني وضرورات التقدم . بالاضافة الى ذلك فان ارادة البحث العلمي في الجامعات تكاد تكون معدومة .

واخيرا فانه يجب الاعتراف بان تراجعنا ملحوظا حتى من حيث الكم في التعليم المهني وان هناك فصلا مطلقا بين نظام التعليم وعالم العمل .

ان مصير الدول المتخلفة التي تطمح الى كسر حلقة التخلف يمر حتما عبر تحولات اساسية في تركيبها السياسي والاداري وبتحولات جوهرية في عقلية الانسان فيها وفي سلوك وتصرفات جماهيرها بشكل عام .

ان التطور المنشود هدف المجتمع بأسره ، لذا فان عمل المجتمع باجمعه هو طريقه . على جماهير تلك البلدان ان تأخذ المبادرة على المستوى المحلي بعمل الورشات الصغيرة داخل المعاهد ، بيت التكنولوجيا الذاتية ، يربط المعهد بالمجتمع .

ان تحطيم التركيب القديم لن يكون الا عن طريق الاستثمارات المادية المرافقة لتغيير اداري - واجتماعي - ثقافي .

التصنيع في البلدان المتخلفة

د. محمد مروان السمان

مهما اختلفت الآراء فالكل يعرف بان التصنيع هو
الاداة الوحيدة لتحقيق الاستقلال الاقتصادي
والاجتماعي للبدان المتخلفة ، الا ان القليل من يعرف
بان التصنيع ليس استيراد الالات والمعدات او خلق
صناعة او العديد من الصناعات ، التصنيع هو ظاهرة
اقتصادية - اجتماعية معقدة ومتعددة الجوانب ، هو
عملية تطوير اقتصادي واجتماعي يتم من خلالها تعبئة

قسم متزايد من المواد المحلية من أجل تطوير بنية اقتصادية وطنية متعددة الجوانب وحديثة من الناحية التقنية ، حيث تتميز هذه البنية بوجود قطاع صناعي ديناميكي قادر على تأمين معدل نمو مرتفع لمجمل الاقتصاد ، وبشكل عام قادر على تحقيق التقدم الاقتصادي والاجتماعي .

ان كل خطأ يكمن اذن في اعتبار بناء عدة مصانع او تطوير بسيط لمشروع صناعي واحد بمثابة تصنيع لبلد ما .

ان التصور السابق لعملية التصنيع يمكن ان يوصلنا الى تحديد مفهوم التصنيع وفق الاركان التالية :

١ - التصنيع هو عملية واسعة ومتعددة الجوانب حيث يتم بموجبها تطوير فرع صناعي يساهم في عملية الانتاج الاجتماعي بحيث يكون القسم الاكبر من مجمل الناتج الاجتماعي والدخل القومي ويمكن من احداث تحولات جذرية في بقية فروع الاقتصاد القومي وفق قاعدة تقنية حديثة .

٢ - التصنيع اذن ليس عملية لا نهائية ، بل عملية مرحلية غايتها الانتقال بالمجتمع من مجتمع زراعي بدائي الى مجتمع زراعي - صناعي بمعنى اخر فان الغاية من التصنيع هي جعل القطاع الصناعي قطاعا رائدا في الاقتصاد القومي قادرا على تحديث الزراعة بادخال وسائل الانتاج الحديثة اليها ، وقادرا في نفس الوقت على الاشباع المتصاعد لحاجات المجتمع من السلع الاستهلاكية .

٣ - باعتبار ان التصنيع هو عملية تطوير هيكلية للبنية الاقتصادية فان هذا مرتبط بايجاد قطاع صناعي ديناميكي منتج لوسائل الانتاج مما يستدعي استخدام تقنية عالية اثناء مرحلة التصنيع .

٤ - التصنيع هو ظاهرة اقتصادية - اجتماعية . فعلى الرغم من ان الهدف المباشر من التصنيع هو القضاء على التخلف التقني فان

الهدف الغير مباشر هو احداث تغييرات اجتماعية وحتى سياسية في بنية المجتمع ، ان التطور التقني والتكنولوجي يتطلب حدا أدنى من المستوى العلمي والثقافي لمن له احتكاك مباشر مع الالة حتى يحسن استخدامها ، ويحقق الحد الاعظمي من الفائدة التي يمكن ان تقدمها .

نواع استراتيجيات التصنيع :

منذ عدة سنين بدأ علم الاقتصاد يعطي اهتماما بالغا للدراسات التي تعني مباشرة باختيار استراتيجية للتصنيع تتناسب مع المعطيات الاقتصادية والاجتماعية للبلدان المتخلفة . بمعنى آخر اذا كان التطور الاقتصادي للبلدان المعنية يقاس بمفهوم « المنتج النهائي » الذي يستطيع بلد ما تقديمه للسوق عن طريق التصنيع ، فالمشكلة الاساسية يمكن ان تتلخص من خلال السؤالين التاليين :

١ - كيف يمكن تحويل الادخار المحلي لبلد متخلف الى سلع رأسمالية ؟

٢ - كيف يمكننا استخدام هذه السلع الرأسمالية من اجل الحصول على اكبر مقدار ممكن من « المنتج النهائي » ؟

من اجل الاجابة على هذين السؤالين فانه يوجد - حسب رأبي امكانية للاختيار ما بين طريقتين :

... طريقة مباشرة تعتمد على تحويل الادخار المحلي الى سلع رأسمالية منتجة محليا من اجل الحصول في نهاية الامر على « المنتج النهائي » ، اي التصنيع على اساس نظرية احلال الواردات .

... طريقة غير مباشرة تعتمد على التجارة الخارجية حسب نظرية الزايا النسبية ، اي تحويل الادخار المحلي الى سلع رأسمالية بواسطة الواردات . في هذه الحالة من اجل الحصول على القطع الاجنبي الضروري

لتمويل قيمة هذه الواردات من السلع الرأسمالية ، يمكن للبلد المتخلف ان يضغط مصاريفه الداخلية ويحول الفائض الناتج نحو انتاج سلع معدة للتصدير . الخطوة الثانية ، من اجل الحصول على المنتج النهائي يمكننا تشغيل السلع الرأسمالية المستوردة بهدف انتاج سلع معدة للتصدير ومبادلتها « بالمنتج النهائي » ، اي تصنيع البلد المتخلف استنادا الى نظرية صناعات التصدير .

هنا تكمن المشكلة الحقيقية : ماهو طريق التصنيع الذي يجب ان نسلكه البلدان المتخلفة ، هل التصنيع على اساس احلال الواردات ام التصنيع على اساس صناعات التصدير .

ان الجواب على هذا السؤال يتطلب منا دراسة عميقة لكلا النظريتين حتى نحصر على الاقل مبررات تطبيقهما من وجهة نظر مسانديهما .

اولا التصنيع عن طريق احلال الواردات

تعريف :

لقد حاول الكثير من الاقتصاديين ان يعطي تعريفا لهذه النظرية كل حسب تصوراته لها . (C. Furtado) عرفها مثلا بانها « الفعل الذي بواسطته تنخفض مساهمة قطاع التجارة الخارجية في تكوين الدخل القومي » .

يمكننا ان نلاحظ مباشرة بان هذا التعريف غير دقيق لان سبب انخفاض مساهمة قطاع التجارة الخارجية في الدخل القومي لا ينتج فقط عن احلال الواردات بل هناك عوامل عديدة قد تؤدي الى هذا الانخفاض مثل : انخفاض الصادرات أو الواردات ، ارتفاع معدل النمو في الدخل القومي عنه في قطاع التجارة الخارجية الخ .

في كل الاحوال ، ان هذا التعريف يعكس لنا على الاقل مبررات تطبيق نظرية احلال الواردات في البلدان النامية كنتيجة لوضعها الغير ملائم في مجرى المبادلات التجارية العالمية .

بالنسبة لـ (بوب B. Bobe وديريك Ph. Derycke) فقد عرفا نظرية احلال الواردات على انها « مجموعة الافعال التي يتم بواسطتها احلال الانتاج المحلي من السلع المصنعة محل الواردات من هذه السلع » .

يمكننا ان نلاحظ ايضا بأنه بقدر ما كان التعريف الاول غير دقيق فان التعريف الثاني واسع المفهوم وشامل بحيث لم يحدد لنا نوعية الصناعات التي يمكن لهذه النظرية ان تتبناها .

تعريف آخر قدمه لنا الاقتصادي الفرنسي الماركسي (C. Palloix) ولكن من وجهة نظر متاثره الى حد ما بالاساس الايديولوجي عند هذا المؤلف ، اذ قال : « ان المقصود بنظرية احلال الواردات هو احلال انتاج محلي ما محل الواردات من السلع الصناعية التي هي مهياة بالاساس لاشباع طلب داخلي موجود وواسع بشكل كاف ، ومبرر لمرادودية الاستثمارات الموظفة في الصناعات المنتجة لهذه السلع » . وهذا مايعني بالضبط الانتاج المحلي للسلع الاستهلاكية المصنعة .

من هذا التصور يمكننا ان نحصل على نتيجتين اساسيتين :

٢ - تعتمد نظرية احلال الواردات على الصناعات المنتجة للسلع الاستهلاكية التي وجدت لاشباع طلب الطبقات العليا في المجتمع وهي نفس النتيجة التي حصل عليها شارك بتلهاييم منذ مدة طويلة بصدد دراسته للتجربة الهندية في التصنيع حيث اكد على ان اقامة الصناعات المنتجة للسلع الاستهلاكية ماهي الا خطوة وجدت اساسا لاشباع رغبات الطبقة البورجوازية في المجتمع الهندي من السلع الاستهلاكية المصنعة والتي هي وحدها الطبقة القادرة على اشباع مثل هذه الرغبات .

ب - من وجهة نظر تكنولوجية ، ان صناعات احلال الواردات تتطلب تكنولوجيا بسيطة وذات كثافة رأسمالية ضعيفة ، وهذا بالتالي لا يسمح لاقتصاد البلد المتخلف ان يخلق صناعات ديناميكية بتأثيراتها المتتابة في الاقتصاد القومي ككل سواء من حيث السلع التي تنتجها والتي تذهب الى الاستهلاك المباشر ، او من حيث تأثيراتها الفنية على بقية الفروع الصناعية الاخرى . هنا ايضا تأثر باقتصادي فرنسي كبير واسمه دي بيرينس الذي حل مثل هذه الامور بدقة حين اعطانا نمطا جديدا من الصناعات اسماء « الصناعات المصنعة » والتي سوف نتعرض لها في حينه بالتفصيل .

نظريا ربما كان (بالوا) عنده الحق في ذلك الا انه عمليا قد اغفل امرا واقعا تعيشه جميع البلدان النامية وهو انها مهياة من حيث المبدأ لاقامة الصناعات التي لا تحتاج الى كثافة رأسمالية عالية وذلك لانها تستطيع التعويض عن هذه الكثافة الرأسمالية العالية بالراسمال من اليد العاملة الذي تملكه بغزارة ، وهذا في صالح اقامة صناعات احلال الواردات التي تتلاءم اكثر مع المستوى الرأسمالي والتقني للبلدان النامية .

في الواقع انه من الصعب جدا تبني تعريفا كاملا ودقيقا لنظرية احلال الواردات لانه من الضروري قبل كل شيء معرفة ابعاد المشاكل الاقتصادية لكل بلد نام على حده . انطلاقا من ذلك يمكننا ان نعرف احلال الواردات على انها اختيار عقلاني للصناعات المقامة ، اختيار يعتمد على احلال الانتاج المحلي لبعض السلع مع المصنعة محل الواردات من هذه السلع التي تحدد نوعيتها من خلال المعطيات والظروف الاقتصادية الخاصة بالبلد المعني .

والمقصود « بالاختيار العقلاني » هنا هو ان يكون هذا الاختيار حسب نظام تخطيطي شامل محكم حيث تدرس فيه جميع العقبات والمشاكل التي يمكن ان تحد من تطوير الصناعة خلال مراحل تشغيلها .

انطلاقاً من ذلك يمكننا ان نعمم مفهوم صناعات احلال الواردات بحيث تشمل الصناعات المنتجة للسلع التي كانت مستوردة قبل اقامة مثل هذه الصناعات ، والمقصود بالسلع هنا جميع انواع السلع المنتجة وبدون اي استثناء .

مبررات صناعات احلال الواردات عند نوركس R. Nurkse (١) :

يعتبر نوركس ان التصنيع امر لا بد منه بالنسبة للبلدان المتخلفة ، ولكن على الاخص التصنيع المفتوح على العالم المتقدم والقائم على اساس الصناعات الاستهلاكية وذلك انطلاقاً من ضرورة التوازن ما بين النمو في القطاع الصناعي والنمو في القطاع العام . لا حظ نوركس ان هناك عقبة اساسية تقف في وجه التصنيع بشكل عام في تلك البلدان الا وهي ضعف دافع التثمين لدى اصحاب رؤوس الاموال بسبب ضيق السوق المحلية لاجلية البلدان المتخلفة . يجب اذن توسيع هذه السوق عن طريق البدء بصناعات رائجة في المدى القريب ، اي الطلب على منتجاتها موجود . ولكن كيف تستطيع هذه البلدان تمويل النفقات الناتجة عن اقامة مثل هذه الصناعات الاستهلاكية ؟

احل نوركس رأس المال الاجنبي محل امكانيات نمو الصادرات من اجل تغطية نمو المستوردات من المواد والمعدات اللازمة لعملية التصنيع هذه ، التي دفعته لتبنيها . لذا فقد كان من الضروري الرجوع الى فكر نوركس للوصول في النهاية الى النتيجة التي بلغها وتبنا فيما بعد .

يستعرض لنا هذا الاقتصادي ثلاثة موديلات لبناء القاعدة الصناعية وبالتالي النمو الاقتصادي المتسارع للبلدان المتخلفة ، هذه الموديلات هي :

(١) بالرغم من ان R. Radan هو اول من طرح نظرية النمو التوازن في عام ١٩٤٢ بهدف تصنيع بلدان أوروبا الشرقية والجنوبية الشرقية ، الا ان R. Nurkse هو اول من صمم هذه النظرية لتطبيقها في البلدان المتخلفة .

- ١ - النمو بواسطة الصادرات من المواد الاولية .
- ٢ - النمو بواسطة اقامة صناعات التصدير .
- ٣ - النمو بواسطة توسيع الانتاج المحلي للسلع الصناعية لتغطية السوق الداخلية والمقصود هنا اقامة صناعات احلال الواردات وعلى الاخص الصناعات الاستهلاكية .

حسب رايه فان هذه الموديلات الثلاثة يمكن ان تكون مختلطة ولكن الاهمية المعقودة على كل واحد منها تختلف حسب الموارد الداخلية لكل بلد وحسب شروط الطلب الخارجي . فمن المعروف ان البلدان المتخلفة تشكو اليوم من عجز في صادراتها من المواد الاولية (موديل ١) ، ومن احواج الصعبة التي تضعها امامها البلدان المتقدمة للحد من صادراتها من المواد المصنعة (موديل ٢) ، يؤكد نوركس هنا بأنه لم يبق الا الموديل (٣) اي توسيع الانتاج الداخلي بالاعتماد على اقامة الصناعات المحلية المنتجة للسلع الاستهلاكية الذي يعتبر والحالة هذه اكثر ملاءمة من الموديلين الآخرين ، الا ان طريق التصنيع هذا لا يخلو من عقبات اهمها هو ضيق السوق الداخلية الذي يؤدي الى اضعاف حوافز الاستثمار . وهذا تحصيل منطقي لمعطيات البلدان المتخلفة بشكل عام .

انخفاض الانتاجية

↓
انخفاض الدخل

↓
ضعف القوة الشرائية

↓
ضييق نطاق السوق

↓
انخفاض الحافز على الاستثمار

وبالتالي فان توجيه الاستثمارات في مشروع واحد سيبوء بالفشل سيما وأن العاملين في هذا المشروع لن يتمكنوا من استيعاب ناتجه وهكذا لن يستطع المشروع تصريف منتجاته . الحل الوحيد برأي نوركس هو البدء بوضع برنامج استثماري يحوي العديد من الصناعات المتكاملة بتغطيتها للطلب الاستهلاكي النهائي ، فانشاء مثل هذه الصناعات المتكاملة بشكل كثيف وعلى جبهة واسعة من شأنه ان يؤدي الى زيادة نصيب الفرد من الاستثمار ويرفع من انتاجه ودخله وبالتالي من استهلاكه النهائي مما يؤدي بالنتيجة الى توسيع نطاق السوق بالنسبة لمختلف الصناعات المقامة ، هذا ما يطلق عليه « نظرية النمو المتوازن » التي تستوجب تزامن جميع الصناعات ، أي انشائها في نفس الوقت ، فالاستثمار في صناعة ما يخلق الطلب على مخرجات الصناعات الاخرى، كما ان التوسع في الصناعات الاخرى يخلق طلبا على مخرجات الصناعة الاولى ، وبعبارة أخرى فان العاملين في كل صناعة يعتبرون سوقا لمنتجات الصناعات الاخرى . وهكذا فان الاستثمارات في صناعة معينة تخلق فرص الربح وبالتالي تهيء فرص الاستثمار في صناعات أخرى ، والعكس بالعكس .

اما المقصود بمفهوم « التوازن » فهو نمو كل صناعة أو قطاع بمعدل متلائم مع مرونة دخل / الطلب على المستوى الكلي للاقتصاد القومي ، على منتجات هذه الصناعة أو هذا القطاع . يمكننا اذن ان نقول بان نمط النمو هو متوازن اذا كان معدل النمو في كل قطاع قد تم بالاستناد الى مرونة دخل / الطلب على منتجاته .

هذا ما يوصلنا في الحقيقة الى القول بأنه ليس من الضروري أن يكون معدل النمو في كل قطاع أو صناعة مساويا لمثيله بالنسبة للقطاعات والصناعات الاخرى ، بل من الممكن أن يكون معدل النمو مختلفا من قطاع لآخر ومن صناعة لاخرى ، وهذا أمر طبيعي طالما أن مستوى الدخل القومي ونمط توزيعه يحددان مرونة دخل / الطلب التي تختلف من

قطاع لآخر ومن صناعة لآخرى وهكذا فمن المعقول ان يكون نمو القطاعات والصناعات بمعدلات مختلفة ومتفاوتة فيما بينها .

من الملاحظ بأن هذه النظرية المقترحة من قبل نوركس لتطبيقها في بلدان متخلفة لا تتلاءم مطلقا مع حجم الموارد والامكانيات المادية والخبرات المتاحة لهذه البلدان . انطلاقا من هذا الانتقاد الاساسي الذي يمكن ان يتل كثيرا من أهمية افكار نوركس ، ومن اجل ان تكتمل الحلقة في تحليلاته فقد ركز بعد ذلك على ضرورة دخول رؤوس الاموال الاجنبية الى البلدان المتخلفة لتبدا القيام بتنشيط حالتها الاقتصادية وتوسيع أسواقها الداخلية بالمعنى الذي ذكرناه آنفا .

وهكذا يمكننا ان نلاحظ بأن نوركس قد بقي مخلصا لمدرسته واتجاهه الكلاسيكي لعدم استغناؤه عن مبدأ التخصص والتقسيم الدولي للعمل ولو تغير شكله ومضمونه قليلا . بل على العكس قد أعطاه نوعا من الاستمرارية بتغيير الوسيلة التقليدية لنقل النمو عن طريق التبادل العالمي حيث أحل محلها طريقة جديدة لنقل هذا النمو عن طريق طلب البلدان المتخلفة لرؤوس الاموال العالمية . رؤوس الاموال هذه يجب ان تتبع طريقا مختلفا تماما عن ذلك الذي اتبعته في الماضي (١) ، بمعنى آخر فان رؤوس الاموال الاجنبية هذه يجب ان ينحصر عملها من اجل الانتاج المحلي وتوسيع السوق الداخلية في البلدان المتخلفة ، وليس من اجل الانتاج بهدف التصريف في السوق الخارجية وهكذا فقد ضمن مكانة الدول المتقدمة في تحليلاته هذه وذلك بملكيتها لرؤوس الاموال وهذا ما يجعل عندها - بنفس الوقت - مزية نسبية في هذا المجال في تصدير رؤوس الاموال هذه الى البلدان المتخلفة التي هي في اشد الحاجة اليها .

(١) المقصود بالطريق الذي اتبعته في الماضي رؤوس الاموال الاجنبية داخل البلدان المتخلفة

هو مجال الصناعات الاستخراجية .

باختصار فان افكار نوركس يمكن أن تلخص على الشكل التالي :

ان ظروف وبنية اقتصاديات البلدان المتخلفة تتطلب استعمالا ديناميكيًا لرؤوس الاموال الاجنبية التي تعمل في داخلها . هذا الاستعمال الديناميكي يجب ان يتجه بالضرورة نحو توسيع السوق الداخلية بخلق صناعات منتجة للسلع الاستهلاكية . انه يستبعد حصرا استعمال رؤوس الاموال هذه من أجل السوق الخارجية اي من أجل انتاج سلع معدة للتصدير ، لان مثل هذا الامر سيصطدم بضيق السوق الخارجية كما اسلفنا سابقا (موديل ١ و ٢) .

لنتساءل الآن أين يقع عدم كفاية التحليل عند نوركس ؟ ان الوقائع الاقتصادية وتجارب البلدان المتخلفة في هذا المجال قد اظهرت لنا واقعا للامور بعيدا كل البعد عما قدمه لنا نظريا هذا المؤلف .

قبل كل شيء ، ان دخول رؤوس الاموال الاجنبية يكون عادة مشروطا بنمو الصادرات اللازمة لتمويل الاعباء المالية المتولدة عن رؤوس الاموال هذه . فالفرص المفتوحة امام الاستثمارات العاملة في صناعات استهلاكية لا تكون مواتية الا لفترة قصيرة وهي الفترة اللازمة لاشباع السوق الداخلية من منتجات هذه الصناعات ثم لا تلبث أن تصطدم من جديد بضيق السوق الداخلية وهي ظاهرة تفرض نفسها في الكثير من الدول المتخلفة وتقف حائلا اما تطبيق أية استراتيجية للتنمية ، لذا وعلى المدى الطويل فان هذه الاستثمارات تجد نفسها مزغمة لاقتحام السوق الخارجية والتي لا تخلو ايضا من المصاعب وذلك على الاقل حسب رأي نوركس نفسه .

هذا هو السبب الذي من أجله اتخذت الاستثمارات المباشرة الامريكية في البلدان المتخلفة منذ عدة سنوات اتجاهين مختلفين :

١ - في البلدان المتخلفة ذات الاسواق الواسعة ، كانت هذه الاستثمارات تغطي مشاريع صناعية ضخمة والتي يكون فيها معامل رأس

المال قوي ، اي في مجال صناعات احلال الواردات . ان القسم الاعظم من منتجات هذه الصناعات يصرف داخليا نظرا لانتساع السوق المحلية .

٢ - في البلدان المتخلفة ذات السوق الضيقة والطلب الضعيف ، حيث كانت هذه الاستثمارات تستخدم في صناعات ذات كثافة عالية من اليد العاملة اي في مجال صناعات التصدير حيث يمكن الاستفادة من اليد العاملة المحلية الرخيصة . هذا بشكل عام المثال التقليدي والنموذجي لمجال عمل رؤوس الاموال الاجنبية في البلدان المتخلفة لان الفالية العظمى منها - وكما قلنا - ذات سوق اقتصادية محدودة .

بالنتيجة يمكننا القول اذن بان نوركس من اجل ان يتحاشى ضيق السوق الخارجية قد وقع في مشكلة اكبر واعقد ، وهي ضيق السوق الداخلية .

مبررات صناعات احلال الواردات عند (هيرشمان Hirschman) :

ان تاريخ الوقائع الاقتصادية بين لنا التطور كسلسلة من اختلالات التوازن والتي تظهر فيها صناعات معينة مؤهلة لجذب النمو الاقتصادي . هذه الصناعات القائدة او « اقطاب النمو » تلعب دورا كبيرا في دفع عملية التنمية والتطور الاقتصادي الى الامام ، ان تقدم ونمو اقطاب النمو هذه يولد قوة جذب بالنسبة لبقية قطاعات الاقتصاد القومي ككل ، بمعنى آخر فان تقدم صناعة ما (قائدة) على صناعات اخرى هو شرط ضروري لخلق ظروف نمو هذه الصناعات ، ولعلنا نستطيع اعطاء بعض الامثلة التاريخية عن مثل هذه الصناعات القائدة التي كانت اساسا في تحقيق التطور الاقتصادي في بعض بلدان أوروبا الغربية والشرقية على حد سواء . كصناعة النسيج في انكلترا وصناعة السكك الحديدية في أمريكا وألمانيا وفرنسا وصناعة الخشب في السويد وذلك خلال القرن التاسع عشر ، أما في القرن الحالي فباستطاعتنا ان نذكر قطاع الكهرباء في الاتحاد السوفياتي في العشرينات ، صناعات النقل البحري في بلدان

أوروبا الشمالية ، الصناعات الكيماوية والالكترونية في النصف الثاني من القرن الحالي بالنسبة لبلدان أوروبا الغربية .

ان تقدم بعض الصناعات على البعض الآخر يكون باستمرار مصحوبا باختلال التوازن ، هذا الاختلال الذي يأخذ شكل تولد طاقة فائضة في الصناعات القائمة وشكل ضغوط واختناقات في الصناعات الأخرى المتخلفة نسبيا في نموها . ان الاختلال في التوازن يشكل في نفس الوقت القوة المحرصة للنمو . هذا ما اطلق عليه « نظرية النمو غير المتوازن » التي جاء بها هيرشمان والتي تعتبر ركنا أساسيا من اركان نظريات « التنمية الاقتصادية » .

تعتبر عملية التنمية - حسب هذه النظرية - سلسلة متصلة من اختلالات التوازن حيث ان كل اختلال يولد قوى مصححة له . الا ان تصحيح هذا الاختلال سوف يخلق أيضا اختلالا جديدا في التوازن يولد بدوره قوى مصححة لتعديل هذا الاختلال وبذلك يتولد اختلال جديد في التوازن ... وهكذا مما يدفع بالنتيجة التنمية نحو الامام .

من اجل توضيح فكرة السلسلة المتصلة الحلقات من اختلالات التوازن يركز هيرشمان على مفهوم الارتباط المتبادل بين الصناعات المختلفة وعلى مفهوم الوفورات الخارجية التي تتولد نتيجة لهذا الارتباط (١) . فكل استثمار سوف يخلق فرصا أخرى لاستثمارات جديدة وبالتالي يشكل بذلك دفعا جديدا للتنمية . فالمشروعات الاستثمارية الجديدة نستفيد من وفورات خارجية قائمة ولكنها بدورها تخلق وفورات خارجية جديدة وهي من ثم تخلق الظروف لمشروعات استثمارية جديدة تأتي لتستفيد من هذه الوفورات . كما ان المشروعات الثانية تستفيد

(١) انظر : مبادئ الاقتصاد للدكتور محمد هشام خواجكية ، ١٩٧٧ .

من الوفورات الخارجية^(١) التي خلقتها المشروعات السابقة ولكنها بدورها تخلق وفورات خارجية جديدة يمكن ان تستفيد منها مشروعات أخرى.

ان نقطة البدء عند هيرشمان تختلف كثيرا عنها عند نوركس . فبينما نرى بان الثاني قد ركز على رأس المال على انه اشد ما تفتقر اليه البلدان المتخلفة في عملية التصنيع ، فقد ركز الاول على وجود المستحدث والاداري الجيد الذي يتوقف عليه اختيار النوع الملائم من الاستثمارات . يرى هيرشمان بان القيد الرئيسي الذي يقيد عملية التصنيع يتمثل في القدرة على اتخاذ قرارات الاستثمار ، وحيث ان هذه القدرات نادرة في البلدان المتخلفة فيجب خلق الاطار والدوافع والظروف التي تؤدي الى اتخاذ هذه القرارات بأعلى فعالية ممكنة ، والظروف التي تؤدي الى اتخاذ قرارات الاستثمار بفعالية عالية هي ظروف اختلال التوازن المتمثل في الضغوط والاختناقات . وبمعنى آخر يجب البدء بعملية التصنيع عن طريق اختيار الاستثمارات المحرصة وليس الاستثمارات المستقلة .

ان عملية التنمية يجب ان تتجه اذن نحو اقامة الصناعات الرائدة بقوة جذبها، وتنشيطها للصناعات الأخرى . اما الصناعة الرائدة او القائدة فقد اعتبرت كذلك لانها تتميز بعلاقات امامية وخلفية بالنسبة الى غيرها من الصناعات . تتمثل العلاقات الامامية في امكانية الصناعة على خلق فرص للاستثمار في المراحل ما بعد انتهاء العملية الانتاجية . فمثلا توسع الصناعة آ ينشط ويدفع الصناعة ب اذا ما كانت هذه الاخيرة تستخدم مخرجات الصناعة آ كأحد المدخلات لديها . يترتب اذن على توسع الصناعة آ وارتفاع الانتاجية فيها زيادة ريعية الاستثمار في الصناعة ب وذلك عن طريق تخفيض نفقات انتاجها . وهكذا فمع ازدياد هذه العلاقات الامامية فان مزيدا من الاستثمارات سوف توظف في كلا

(١) الوفورات الخارجية بشكل عام هي الوفورات التي تتحقق لمشروع او مجموعة من المشاريع من جراء زيادة انتاجها او ارباحها بفصل ما ينتقل اليها من مزايا اقتصادية تفرزها مشاريع أخرى او بولدها المحيط .

الصناعتين : الاولى بسبب التصريف السريع لانتاجها والثانية بسبب الوفورات الخارجية التي تقدمها لها الصناعة الاولى .

اما العلاقات الخلفية فتتمثل في امكانية الصناعة او الاستثمار على خلق الطلب وبالتالي فرص الاستثمار في المراحل السابقة للعملية الانتاجية . ان العلاقة الخلفية للصناعة آ تتمثل في قدرتها وامكانياتها على خلق فرص الاستثمار في الصناعة ج التي تقدم للصناعة آ مستلزمات الانتاج . وبذلك فان توسع الصناعة آ يعطي بعض نتائجها في زيادة ربحية الاستثمار في الصناعة ج عن طريق اتوسع السوق المهيأة لمنتجاتها .

ان انشاء مثل هذه الصناعة (القائدة) سوف يخلق اذن حالة من اختلال التوازن في هيئة نقاط اختناق في مراحل الانتاج السابقة وفي هيئة فائض من ناتج الصناعة القائدة مهياً للاستخدام في الصناعات التي تقوم بالمراحل التالية للانتاج (١) ، ان هذا الاختلال في التوازن سوف يخلق بدوره قوى لتصحيحه وبالتالي اعادة التوازن في صورة تحريض الاستثمارات في المراحل السابقة والمراحل اللاحقة للانتاج في الصناعة التي تم توسعها . الا ان هيرشمان قد اكد على الصناعات التي يمكن ان تخلق فرصا للتصريف بالنسبة لصناعة اخرى ، اي انه اكد على الصناعات التي لها آثار تحريض نحو الخلف . وباعتبار ان هناك العديد من الصناعات تتمتع بهذه الصفة ، الا انه يجب البدء بالصناعات السهلة التحقيق في البلدان المتخلفة وخصوصا من الناحية التكنولوجية والتي يمكن ان يكون مردودها في الفترة الاولى اكبر ما يمكن .

ولكن على الرغم من ان استراتيجية التصنيع التي يقدمها هيرشمان تظهر على شكل صناعات احلال الواردات الا انها مفتوحة لدرجة كبيرة على العالم الخارجي لذا يمكن اعتبارها - على الاقل في الفترة الاولى من البدء

(١) بمعنى آخر وحسب مثالنا السابق فسوف يكون هناك نقاط اختناق بالنسبة للصناعة ج وفائض في انتاج الصناعة آ حتى اللحظة التي تبدأ فيها الصناعة آ تحريض الصناعة ب حسب الميكانيكية التي ذكرناها .

— بها كبرنامج مختلط ما بين صناعات أحلال الواردات وصناعات تصدير .
في كل الاحوال وحسب رايه يجب البدء بالصناعات الاستهلاكية لانها
تتميز بمردودها الكبير نسبيا في الفترة الاولى من خلقها ، وبعدها وبفعل
عوامل الشد والتحريض التي يمكن ان تمارسها هذه الصناعات يمكن
الوصول الى خلق او توليد صناعات انتاجية .

لنتساءل الآن ما هي مبررات البدء باقامة صناعات احلال الواردات
كخطوة أولى في مجال التصنيع ؟ حسب راي هيرشمان بأن منتجات
الصناعات هذه يمكن ان تكون مستوردة من الخارج الا ان انتاجها في
الداخل له عدة اسباب موجبة :

١ — هناك مصائب تواجهها البلدان المتخلفة فيما يخص مهنة
الاستيراد نفسها التي تتطلب تهيلا خاصا يحد من امكانياتها في الدخول
الى السوق العالمية .

٢ — ان منتجات الصناعة المحلية المقامة يمكن ان تكون مدخلات لصناعة
أخرى ، كما يمكن أن تأخذ مدخلاتها من صناعة أخرى ، وبذلك تكون
قد استفدنا من هذه العلاقات التبادلية في تحريك وتنشيط البنية
الاقتصادية ككل (أي يمكن الاستفادة من العلاقات الامامية والخلفية
التي يمكن ان توجدتها الصناعة المقامة) .

٣ — هناك مشكلة أساسية تعاني منها اغلب البلدان المتخلفة وهي
مشكلة العجز المزمن في ميزان المدفوعات مما قد يشكل نقاط اختناق
بالنسبة للانتاج الداخلي الذي يعتمد بصورة رئيسية على الواردات .

مع كل هذا فان موديل التصنيع المقترح من قبل (هيرشمان) هو
موديل (برانتي Extraverti) على الاقل في مراحله الاولى .

تتلعب الواردات دورا كبيرا في تنشيط ودفع الصناعة القائدة في
المرحلة الاولى من انشائها حيث تحتاج الى المعدات والالات الضرورية

وبكميات هائلة . لكن هذه الواردات - في نظر هيرشمان - يجب أن تقيم تقييما دقيقا من حيث الكمية والنوعية .

من أجل استبعاد نقاط الاختناق التي يمكن أن يولدها العجز المحتمل في ميزان المدافوعات نتيجة استيراد المواد والمعدات الضرورية لعملية التصنيع وبكميات كبيرة ، يجب الإبقاء على ما يسمى بالتوازن الخارجي . بمعنى آخر يجب تأمين وسيلة فعالة للتصدير من أجل تمويل النمو المضطرد للواردات .

برأي هيرشمان توجد هناك وسيلتان لتغطية هذه الواردات وبالتالي للإبقاء على التوازن الخارجي ، وهما :

- ١ - بواسطة حصيلة الصادرات التقليدية من المواد الأولية .
- ٢ - بواسطة حصيلة الصادرات المتولدة من تصدير جزء من الانتاج الذي يمكن أن تولده الصناعة القائمة نفسها والتي هي في أوج ديناميكيتهما .

الا أنه يستبعد الوسيلة الاولى بسبب الكثير من المشكلات والمصاعب التي تعاني منها البلدان المتخلفة في السوق العالمية والتي تقف حائلا امام الاعتماد على صادراتها التقليدية من المواد الأولية لتمويل وارداتها وبناء قاعدتها الصناعية . يتبنى هيرشمان الوسيلة الثانية باعتبار ان نمو الواردات المتولد عن حاجة الصناعة القائمة سيكون موازن بشكل نظامي وأتوماتيكي بانتاج الصناعة نفسها . بمعنى آخر يمكن تمويل هذه الواردات بتصدير منتجات الصناعة القائمة نفسها .

لقد أغفل هيرشمان هنا ناحية هامة وهي ان المشكلة لا تأتي فقط من ناحية الانتاج وخلق الفائض المعد للتصدير ، بل يمكن أن تأتي من ناحية تصريف منتجات الصناعة القائمة في السوق الخارجية وخاصة سوق البلدان المتقدمة . فاذا حلت المشكلة الاولى وتوفر الفائض المعد للتصدير ، وهذا لا يعني أبدا أن تحل المشكلة الثانية أي مشكلة التصريف ، إذ أن هناك بعض الظواهر التي يجب أخذها بعين الاعتبار ، والتي تقف حائلا في وجه تصريف المنتجات الصناعية التي تنتجها البلدان المتخلفة وأهمها :

١ - ان نمو صادرات البلدان المتخلفة هو من اجل تمويل الواردات في نفس الوقت الذي يتم فيه التصدير بالنسبة للبلدان المتقدمة من اجل التصريف فقط .

٢ - ان نمو صادرات البلدان المتخلفة من السلع الصناعية يجب ان يتم في نفس الوقت الذي تسيطر فيه المؤسسات الصناعية والتجارية الضخمة والتابعة للدول المتقدمة على السوق العالمية مما يضعف المركز التنافسي للبلدان المتخلفة في هذه السوق .

ان نمو الصادرات من السلع الصناعية بالنسبة للبلدان المتخلفة يعتمد على كفاءة انتاجية ضعيفة ومستوى تكنولوجيا متدني في الوقت الذي قطعت فيه البلدان المتقدمة اشواطاً كبيرة في هذا المجال .

٤ - ان نمو الصادرات من السلع الصناعية بالنسبة للبلدان المتخلفة يجب ان يتم بالرغم من القيود التجارية التي تفرضها البلدان المتقدمة على المنتجات الصناعية للبلدان المتخلفة وهذا امر لا يخلو من الصعوبة في نصريف هذه المنتجات .

ان نقطة الضعف الرئيسية في نظرية هيرشمان تكمن اذن في امكانية دوران الصناعات التي هي في الاصل صناعات احوال الواردات نحو الخارج بعد فترة بسيطة جدا من انشائها من اجل تمويل الواردات من المعدات والادوات الضرورية لتوسيع هذه الصناعات نفسها ؟ .

مبررات صناعات احوال الواردات عند دي بيريس (G. D. DE Berris)

ان الشرط الاساسي للتطور الاقتصادي هو (جوانية الصناعات *Intra version des Industries*) لانه - حسب رأي دي بيريس اساسا لا نستطيع بناء التطور الاقتصادي اذا لم تكن الصناعات في البلدان المتخلفة « جوانية » *Entraverit* لقد جرت العادة في هذه البلدان ان تكون الصناعات موجهة نحو العالم الخارجي « برانية »

Extraverti . ان صناعات التصدير لا يجب ان يكون لها الا اثارا غير مباشرة في تمويل الدفعة الاولى من الواردات من المعدات الضرورية لعملية التصنيع بشرط ان لا تستعمل حصيلة الصادرات لغير هذا الهدف . ان جهود البلد المتخلف يجب ان تتجه بعدها وباقصى سرعة نحو الداخل .

نحن نتساءل الان اي نوع من التصنيع يقصد هذا المؤلف ؟ من اجل الاجابة على هذا السؤال نرى انه من الضروري ان نتعرض الى معنى ، صفات واثار الصناعات المقترحة من قبله والتي اطلق عليها اسم « الصناعات المصنعة » Industries-Industrialantes فالصناعات المصنعة هي الصناعة او مجموعة الصناعات التي تكون مهمتها الاقتصادية الاساسية - في المكان والزمان المحددين - جذب تسويد نظامي او ادخال تعديل هيكل في مصفوفة العلاقات الصناعية وادخال تحولات في دالة الانتاج وذلك بفضل وضع مجموعة جديدة من الآلات والتكنولوجيا الحديثة تحت تصرف الاقتصاد الكلي بهدف زيادة انتاجية عوامل الانتاج وزيادة سيطرة الانسان على العملية الانتاجية ، هذه التحولات التي تعيد البناء الاقتصادي والاجتماعي مما يؤدي الى خلق شرط وضرورة التصنيع في البلدان المتخلفة .

تشمل الصناعات المصنعة حسب تصور (دي بيرينس)

صناعات الحديد والصلب ، الصناعات الميكانيكية ، الصناعات الكيماوية ، الصناعات البترو - كيميائية ، الصناعات الكهربائية والمراكز الحديثة للطاقة .

ثم يحدد ثلاث خواص اساسية لهذه الصناعات :
 ١ - انها ذات حجم كبير جدا مما يستدعي بالضرورة الاندماج المنطقي بين عدة بلدان بحيث يصبح عدد سكان السوق المشتركة (١٠٠ مليون نسمة على الاقل) .

٢ - تتمركز الصناعات المصنعة في قطاع السلع الانتاجية .

٣ - تتميز هذه الصناعات بكونها ذات كثافة رأسمالية عالية .

يؤكد دي برينيس على ان هذه الصناعات ذات كفاءة غير مشكوك بها على توليد صناعات أخرى لان الصناعات المصنعة الانفة الذكر تتميز بقدرة كبيرة على التحريض نحو الامام ، وبمعنى اخر فانها ذات علاقات امامية قوية . وهنا يكمن الفرق الاساسي بين الصناعات المصنعة والصناعات المقترحة من قبل هيرشمان ، فبينما تؤكد الاولى على العلاقات الامامية فان الثانية تؤكد على العلاقات الخلفية .

هيرشمان يصر على ضرورة توليد علاقات خلفية ليبرر بالتالي اقامة صناعات احلال الواردات في القطاع المنتج للسلع الاستهلاكية ، اما دي برينيس - فعلى العكس - يصر على ضرورة توليد علاقات امامية ليبرر اقامة صناعات احلال الواردات في القطاع المنتج للسلع الانتاجية .

يمكننا ان نلاحظ بان تصور المؤلفين السابقين يمكن ان ينطوي تحت مفهوم استراتيجية النمو غير المتوازن حيث جميع موارد الاستثمارات الجاهزة يجب ان توجه نحو اقامة الصناعة القائدة او الصناعة الاساسية الا ان دي برينيس يؤكد على ضرورة التفريق بين مبررات اختياره للصناعات المصنعة وتلك التي جاء بها هيرشمان من قبل وذلك من خلال الظواهر التالية :

١ - ان صناعات احلال الواردات حين تتمركز في القطاع المنتج للسلع الاستهلاكية انما تخدم حصرا طلب الطبقات المسورة في البلدان المتخلفة حيث يقول دي برينيس في هذا الصدد :

« يجب ان لا ننسى ابدا بان موديل التطور بواسطة خلق الصناعات الاستهلاكية هو مطابق تماما لرغبات الطبقة من المجتمع ذات الدخل المرتفع والتي من صالحها حشد الراسمال القومي في البلد من اجل تلبية رغباتها في استهلاك السلع الاستهلاكية المصنعة » .

٢ - ان الصناعات الاستهلاكية لا يوجد عندها أية قدرة تحريضية على قطاع الصناعات الانتاجية ، أي بواسطة الصناعات الاستهلاكية لا يمكن توليد صناعات اساسية . بالعكس فان الصناعات المصنعة تملك القدرة على ذلك فابتداء من صناعة اساسية يمكننا ان نولد صناعات استهلاكية وحتى صناعات اخرى انتاجية تسمح بتحديث قطاعات اخرى حيوية كالقطاع الزراعي .

٣ - اذا ما اخذنا بعين الاعتبار العامل التكنولوجي ، فان صناعات احوال الواردات المقامة في قطاع الصناعات الاستهلاكية على عكس الصناعات المصنعة فانها تتطلب تكنولوجيا بسيطة وبدائية نسبيا ذات كثافة رأسمالية ضعيفة مما لايسمح لاقتصاد البلد المتخلف ان يخلق قطاعا صناعيا ديناميكيا بعلاقاته الامامية .

٤ - يفضل المرادودية العالية التي تتمتع بها الصناعات الاستهلاكية على المدى القصير ، فان اقامة مثل هذه الصناعات تشجع من قبل رأس المال الخاص والاجنبي ، على العكس بالنسبة للصناعات المصنعة ذات الكثافة الرأسمالية العالية فانها تتطلب رؤوس اموال هائلة ولا تكون مردوديتها كبيرة الا على المدى البعيد . لذا فان اقامة مثل هذه الصناعات - اي الصناعات المصنعة - يتطلب بالضرورة رؤوس اموال وطنية تعمل بهدف البناء الاقتصادي والاجتماعي للبلد المتخلف الذي اقيمت فيه الصناعة .

٥ - اخير فان تجارب البلدان المتخلفة قد اثبتت بأن سياسة التصنيع التي تعتمد على انتاج السلع الاستهلاكية لم تنجح على تلبية رغبات هذه البلدان حتى من السلع التي تنتجها هذه الصناعات . بل اكثر من ذلك فانها عمقت وقوت تبعية البلدان المتخلفة بالنسبة للبلدان المتقدمة خصوصا فيما يتعلق باستيراد السلع والمعدات الرأسمالية . ان تصنيع السلع الانتاجية في البلدان المتخلفة نفسها يقوي من استقلالها الاقتصادي ويضعف بالتالي من تبعيتها للعالم المتقدم وهذا ما يمكن ان تقدمه الصناعات المصنعة .

إذا أردنا تلخيص أقدار دي برينيس فإنه يمكننا القول بأن على البلدان المتخلفة من أجل تحقيق استقلالها وتطورها الاقتصادي يجب أن ترفض التصنيع المفتوح على العالم الخارجي الذي يجعلها تابعة لمجموعة من القوى الموجودة خارج حدودها والتي يمكننا أستنتاج مساوئها إذا ما تفحصنا ميدان المدفوعات لكل بلد على حده والذي يشكل بمعززه المزمين قيئدا قاسيا على جهود التنمية ، يجب على هذه البلدان ان تعتمد على قواها الذاتية الموجودة او التي يمكن خلقها ضمن اطار حدودها الوطنية .

ان خلق ديناميكية داخلية في اقتصاديات البلدان المتخلفة مبنية على نموذج ذاتي للتنمية هو مطلب طبيعي ليس بالنسبة لهذا المؤلف فحسب بل بالنسبة لكل انسان يعيش في هذه البلدان . هذا المطلب مبرر تماما من وجهة نظر ايجاد حل مثالي لمشكلة التخلف الاقتصادي والاجتماعي الذي تعيشه البلدان المتخلفة اليوم أكثر من أي وقت مضى . الا ان استراتيجية التصنيع التي اقترحها دي برينيس تترك بعض الاسئلة الهامة دون اجابة .

١ - ان المشكلة التي بقيت دائما معلقة في تحليل هذا المؤلف هي كيفية تمويل الصناعات المصنعة التي تتطلب امكانيات مالية كبيرة جدا . ان مشكلة التمويل هذه تحد كثيرا من جهود التنمية المبذولة في اغلب البلدان المتخلفة حتى من اجل تنفيذ الصناعة التي تتطلب كثافة رأسمالية اقل بكثير مما تتطلبه الصناعات المصنعة .

٢ - يؤكد المؤلف كثيرا على مبدأ « جوانيه » موديل التنمية القائم على اساس الصناعات المصنعة . ان هذا المبدأ المقترح هو في تناقض كبير على الاقل فيما يتعلق بالمجال التكنولوجي . ان نموذج الصناعات المصنعة يتطلب كما رأينا تكنولوجيا متقدمة جدا والتي لا يمكن ان تكون الا مستوردة من العالم المتقدم وخصوصا في الخطوات الاولى من انشاء مثل هذه الصناعات . وهذا ما يولد على المدى البعيد تبعية تكنولوجية

للبلدان المتخلفة بالنسبة للبلدان المتقدمة ، ولعل التجربة الجزائرية في التصنيع أكبر مثال على هذه الظاهرة .

٣ - يعطي دي بيرنس دورا قليل الأهمية لصناعات التصدير وذلك حصرا من أجل تمويل الدفعة الأولى من المعدات والآلات المستوردة والضرورية لبدء عملية التصنيع . بعد هذه المرحلة فإن دور صناعات التصدير هذه يصبح هامشيا . ثم يعود في مكان آخر ليعطي التجارة الخارجية دور صمام الأمان بالنسبة للصناعات المصنعة . بمعنى آخر فإنه يقول بأن علينا ان نستورد حينما تكون قدرات الإنتاج في الصناعة (أ) غير كافية وقاصرة على تأمين مستلزمات الإنتاج في صناعة أخرى (ب) أمامية بالنسبة للصناعة الأولى ، الاستيراد يأتي هنا لتجنب نقاط الاختناق في العملية الانتاجية للصناعة (ب) .

ويجب علينا ان نصدر حينما يكون لدينا من الفائض مايزيد عن حاجة الصناعة (ب) مثلا كما في مثالنا السابق ، وذلك خوفا من ان يستهلك هذا الفائض استهلاكا نهائيا غير منتج .

اذن والحالة هذه فإن التجارة الخارجية تلعب دور صمام الأمان الذي يخلق الانسجام والتناغم في مستوى القدرات الانتاجية الداخلية وذلك حسب الميكانيكية التي اوردناها سابقا (تأمين العجز وتصريف الفائض) . ليس من المعقول أن تفرض علينا الكفاءة الانتاجية ان نبقي بشكل دائم بين الحالتين السابقتين ، أي وجود عجز وفائض بشكل مستمر ولكن بالتناوب ؟ في هذه الحالة لا يوجد أي مانع في ان تنقلب الصناعات المصنعة « الجوانية » الى صناعات للتصدير وبذلك تنتفي الميزة الديناميكية لهذه الصناعات ، فبدلا من ان نزرع جميع مخرجاتها في ارض الاقتصاد الأم تذهب على شكل صادرات الى العالم الخارجي وهذا مخالف تماما لحجج دي بيرنس .

ثانياً - صناعات التصدير :

ان اهم شرط ضروري للانطلاق الاقتصادي في البلدان المتخلفة هو تحسين الصادرات المبني على اساس من التخصص الديناميكي . يلاحظ ايضا (دي بريس) ان هناك علاقة قوية بين نمو الصادرات والدخل القومي وذلك انطلاقا من بعض الدراسات الاحصائية التي قام بها احد الاقتصاديين الذي حصل على معامل ارتباط لهذه العلاقة مقداره (٠.٨٢) لعينة مؤلفة من ٥٠ بلدا متخلفا ما بين الفترة ١٩٥٣ - ١٩٦٤ .

لاحظ هذا الاخير ظاهرة مفادها ان بلدا ما يستطيع ان يرفع حصة الفرد من الدخل القومي بمقدار ١٪ لكل زيادة في صادرات هذا البلد بمقدار ٢.٥٪ .

في هذا الصدد ايضا ، فان مجموعة من الاقتصاديين المهتمين بأمور التنمية الصناعية في البلدان المتخلفة والتابعين لهيئة الامم المتحدة قد اوصوا بنتيجة الدراسات بأنه من اجل رفع كفاءة الصادرات في تمويل الواردات من السلع الضرورية للنمو الاقتصادي على البلدان المتخلفة ان تخصص قسما من كفاءتها الانتاجية من السلع الصناعية للسوق الخارجية وليس فقط للسوق الداخلية .

وهكذا يجب ان لا نفهم بأن سياسي التصنيع (احلال الواردات وصناعات التصدير) يجب ان تتبعها الواحدة دون الاخرى . على العكس فان هاتين الصناعتين متكاملتان اذ يجب تبني سياسة للتصنيع بحيث تشمل صناعات احلال الواردات وصناعات التصدير في برنامج مشترك .

في الحقيقة ان في هذه النتيجة امرا طبيعيا اذا ما اخذنا بعين الاعتبار لافلاس سياسة التصنيع القائمة على اساس احلال الواردات في تحقيق الاهداف التي انشئت من اجلها . فقد كان من المتقد انه بعد اقامة صناعات احلال الواردات فان هذه البلدان سوف تخفف كثيرا من اعتمادها

على العالم الخارجي عن طريق تقليل وارداتها . ربما كان ذلك صحيحا بعض الشيء بالنسبة للسلع التي تنتجها هذه الصناعات والتي اقتصر على السلع الاستهلاكية . الا انه في نفس الوقت ازدادت وارداتها وبنسب كبيرة من السلع الوسيطة والالات والمعدات اللازمة لهذه الصناعات مما جعل هذه البلدان عاجزة عن تمويل وارداتها من هذه السلع خصوصا وان صادراتها تتألف في غالبيتها من مواد اولية تعاني صعوبات كثيرة في تصريفها في السوق العالمية . لذا فقد كان من الضروري ان تسعى هذه البلدان الى تعديل التركيب الهيكلي لصادراتها بما يضمن مجابهة حاجياتها المتزايدة من المعدات الضرورية لبناء قاعدتها الصناعية . المطلوب هنا اذن تعديل وضع البلدان المتخلفة على المستوى العالمي واعادة النظر في التقسيم الدولي للعمل في ادخال شيء من الديناميكية عليه بما يتناسب مع الظروف والحاجات الراهنة لهذه البلدان وهذا ما يفسر لنا ظاهرة جديدة في مجال الاقتصاد العالمي والتي تتمثل في اعادة توزيع النشاطات الاقتصادية في العالم ككل .

يمكننا تحليل هذه الظاهرة فيما يتعلق بالبلدان المتخلفة من عدة وجوه مختلفة :

١ - الاول بسيط وتقليدي يعتمد على تحسين الصادرات من المواد الاولية بادخال بعض العمليات الصناعية بهدف تنوع الصادرات . وهكذا تستطيع البلدان المتخلفة عن طريق اعطاء بعض القيم المضافة لمنتجاتها من المواد الاولية الزراعية او الاستخراجية ان تدخل شيئا من الاستقرار على صادراتها . ان معارضي هذه الفكرة يؤكدون على ان البلدان المتقدمة هي وراء ذلك لان آفاقها في استغلال البلدان المتخلفة قد تحول تبعا للزمن ولتطور القوى المنتجة . فحينما كانت هذه البلدان المتخلفة بشكلها صناعاتها التحويلية استوردت المواد الاولية من البلدان المتخلفة بشكلها الخامي . اما الان وقد ارتقت البلدان المتقدمة في سلم التطور الصناعي اصبحت بغنى عن تحويل هذه المواد الاولية بنفسها الى مرحلة اعلى . ففي القرن التاسع عشر عندما كانت الصناعات النسيجية البريطانية

بحاجة للقطن مثلا بشكله الخام لتدفع صناعة الغزل الى الامام اصبحت الان بحاجة الى الخيوط القطنية لانها لم تعد بحاجة لتشغيل « مايفاكورتها » بل تعدت هذه المرحلة لتتركها للبلدان المتخلفة بينما تنصرف هي لمجالات انتاجية اخرى .

في كل الاحوال ان هذا النقد سيكتمل اكثر حينما نتعرض بالتفصيل لوجه الثالث في تفسير ظاهرة اعادة توزيع النشاطات الاقتصادية في العالم .

٢ - الوجه الثاني فانه يعتمد على الفكرة القائلة بان هناك توزيعا عالميا للنشاطات بشكل مستمر يعتمد على ميكانيكية الاستقبال لنشاط جديد والتخلي عن نشاط قديم في كل بلد . ففي كل مرة تتخلى الدولة المتقدمة عن نشاط قديم في مجال الانتاج المستقبله دولة اخرى اقل تقدما من الاولى وهذا ما يعطي من حيث المبدأ ديناميكية مستمرة للتقسيم الدولي للعمل .

٣ - اما الوجه الثالث في تفسير ظاهرة اعادة توزيع النشاطات الاقتصادية على مستوى العالم فيعتمد على ظاهرة « عالمية الانتاج »

سوف نقوم الان بدراسة الوجهين الثاني والثالث بشيء من التفصيل . اما الوجه الاول فيمكن ان يمثل حالة من الحالات التي نتعرض لها تلقائيا عند تحليلنا الوجه الثاني .

٢ - التوزيع العالمي للنشاطات وديناميكية التقسيم الدولي للعمل :

١ - نظرية دوران المنتجات عند (ر . فيرون R. Vernon) :

تنطلق هذه النظرية من تعميم ظاهرة انتقال بعض النشاطات الصناعية بشكل عفوي من البلدان المتقدمة الى البلدان الاقل تقدما .

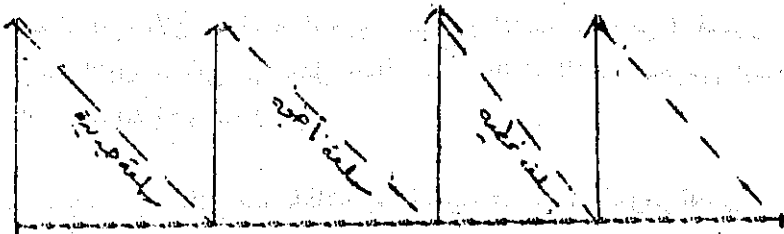
يقسم فيرنون السلع الى ثلاثة أنواع وذلك حسب خواصها ومستوى تطور البلد التي توجد فيها :

- سلع جديدة (Produits nouveaux) خاصة بالبلدان الاكثر تقدما والتي فيها البحث العلمي اكثر تطورا من البلدان الاخرى .

- سلع ناضجة (Produits mûrs) بتأثير الزمن ، وهي نفس السلع الجديدة ولكن بعد فترة زمنية معينة من انتاجها فان البلد المنتج يتخلى عنها لينصار الى انتاجها من قبل البلد التي تأتي في الدرجة الاقل مباشرة في سلم التقدم . مثال ذلك السلع التي تتخلى الولايات المتحدة عن انتاجها لبقية البلدان المتقدمة .

- سلع نمطية (Produits standardisés) ، وهي آخر مرحلة من حياة منتج ما حيث تبدأ بانتاجه البلدان المتخلفة بعد ان تخلت عن انتاجه البلدان المتقدمة .

هذه الدورة في حياة سلعة ما يمكننا تصورها حسب الشكل التالي :



بلدان متخلفة أخرى بلدان متخلفة بلدان متقدمة أخرى الولايات المتحدة الأمريكية

حسب رأي فيرنون فان هذه هي القاعدة التي يجب على بلدان العالم ان تنطلق منها من اجل بناء قاعدتها الصناعية .

ان ما يهمنا في الحقيقة من ذلك كله هو تقبل او رفض هذه الميكانيكية التي يقدمها لنا فيرنون من وجهة نظر التصنيع في البلدان المتخلفة . بمعنى آخر اذا كان الهدف من تصنيع البلدان المتخلفة هو القضاء على حلقة التخلف التي تعيشها هذه البلدان ، واذ انطلقنا من ان التخلف هو مفهوم نسبي (اي اننا لولا التقدم لما عرفنا ان هناك تخلفا) فهل باستطاعتنا ان نعتبر تصنيع البلدان المتخلفة القائم على اساس هذه النظرية التي يقدمها لنا فيرنون هو الطريق الصحيح لحل مشكلة التخلف في هذه البلدان ؟ بتعبير مطلق ، ان هذه الآلية في الانتقال النشاطات تحمل معها تحسنا ملموسا في هيئة البلدان المتخلفة فيما يتعلق بمجال التصنيع الذي تحتاج اليه .

بتعبير نسبي ، ان استمرارية استقبال وبحث النشاطات سوف يؤدي الى توسيع الفجوة من التقدم التي تفصل البلدان المتقدمة عن البلدان المتخلفة .

لان الاخيرة ستبقى قابضة في ادنى مراحل نظام الانتاج العالمي . ان ما اقترحه فيرنون يعمق في الحقيقة التقدم بالنسبة للبلدان المتطورة في مجال البحث العلمي ويعمق ايضا التخلف بالنسبة لجميع البلدان النامية على حد سواء .

اذا كان فيرنون يقترح علينا في نظريته هذه قانونا جديدا للتقسيم الدولي للعمل فان هذا الاخير لا يختلف كثيرا عن القانون القديم سواء من ناحية الجهة التي فرضته وهي البلدان المتقدمة نفسها ، او من ناحية المكان الذي سوف تحتله البلدان المتخلفة في نظام الانتاج . بواسطة

القانون المقترح من قبل فيرنون فان البلدان المتقدمة تحفظ لنفسها فيه الاختراعات والابداع الفني والتكنولوجي وتترك للبلدان المتخلفة الصناعات التي اصبحت غير مجدية لها وخصوصا تلك الصناعات ذات الكثافة العالية من اليد العاملة الرخيصة . بمعنى آخر فان تصنيع البلدان المتخلفة حسب آلية فيرنون يتمركز في مجال انتاج السلع التي بلغت المرحلة النهائية من دورة حياتها .

في الحقيقة ان فيرنون لم يعط قانونا جديدا للتقسيم الدولي للعمل وانما اعطى للقانون القديم حركية تناسب مع تطور نظام الانتاج العالمي . في كل الاحوال فان اعادة التوزيع العالمي للنشاطات هذا والذي يأخذ مظهر استقبال وبث للنشاطات قد تبناه فيما بعد دي بيرنو DE Perno - ولكن آفاقه كانت نوعا ما مختلفة عن سابقه - للوصول الى القانون الديناميكي للتقسيم الدولي للعمل (وذلك حسب تصوره بالطبع) .

٢ - بث واستقبال النشاطات وديناميكية التقسيم الدولي للعمل عند (دي بيرنو DE Perno) :

ينطلق دي بيرنو في تحليله لحركة النشاطات العالمية من تقسيم دول العالم الى اربعة مجموعات :

١ - الولايات المتحدة الامريكية وتاتي في اعلى التسلسل الهرمي للبلدان المتقدمة .

٢ - المملكة المتحدة البريطانية ، المانيا وفرنسا وتصنف في قمة البلدان الصناعية بعد الولايات المتحدة الامريكية وبانها ذات مستوى معاشي مرتفع(١) .

(١) المجموعتان الثانية والثالثة لا تشملان فقط البلدان المذكورة بل ان هذه البلدان كانت على سبيل المثال وليس الحصر .

٣ - إيطاليا واليابان وهي من البلدان الصناعية ولكن ذات مستوى معاشي اقل من المجموعة الثانية .

٤ - مجموعة البلدان التي هي في طريق التصنيع وتشمل البلدان المتخلفة بشكل عام .

وهكذا فان كل مجموعة من هذه البلدان هي مؤهلة لان تستقبل النشاطات من المجموعة التي تسبقها وتبشها للمجموعة التي تليها . هذه الآلية يمكن ان ترجح لنا الى حد ما مدى مساهمة البلدان المتقدمة في تصنيع البلدان المتخلفة وذلك عندما تبث اليها النشاطات التي تتخلى عنها .

ان حركة النشاطات هذه على المستوى العالمي لهي « حقيقة اكيدة » ولكن ، حسب مايقول دي بيرنو ايضا ، توجد بعض العوامل التي تخدم توزيع هذه النشاطات واهمها السياسات الجمركية التي تقيد حركتها . من اجل الخلاص من جميع القيود ومن اجل ان تستفيد جميع البلدان في العالم وخصوصا المتخلفة منها من حركة هذه النشاطات فان المؤلف (دي بيرنو) يدعو الى تبني النموذج المفتوح^(١) للنمو ما بين مجموعة البلدان المتقدمة من جهة ومجموعة البلدان المتخلفة من جهة اخرى .

انه يقول بان المجموعة الثانية لا تستطيع ان تغلب على « السلبيات الهيكلية » التي تعاني منها اقتصادياتها الا اذا احتوى النمو في البلدان المتقدمة على الصفتين التاليتين :

١ - ان يقوم هذا النمو على اساس قطاعات التصدير .

(١) وهو نموذج (ه . ج . جونسون H . J . Johnson) الخاص بتحليل آثار النمو الداخلي على المبادلات الخارجية .

٢ - انتقاء نموذج النمو بحيث تكون له آثار مباشرة على قطاع الاستيراد بما يكفل تنشيط الواردات من البلدان المتخلفة .

هذان هما الشرطان الضروريان اللذان يجب ان يجتمعا في نموذج النمو المتبع في البلدان المتقدمة حتى تتوفر « الشروط السانحة » لتواجد عنصر الديناميكية في التوزيع العالمي للنشاطات .

بعد هذا التمهيد يخلص (دي بيرنو) الى اعطاء تصور جديد لمبدأ التخصص الدولي حسب المزايا النسبية حيث يدخل عليه عنصر الحركة .

يقول المؤلف بان لمصلحة كل بلد ان يتخصص في تصنيع ونتاج السلع التي تكون الآفاق المستقبلية للطلب الداخلي عليها ملائمة . بالمقابل يجب ان يستورد السلع التي تكون لاجلها هذه الآفاق اقل ملائمة .

بعد ان لخصنا الافكار الرئيسية التي يعتمد عليها (دي بيرنو) :

١ - آلية حركة النشاطات الاقتصادية على الصعيد العالمي عند (فيرنون Vernon) .

٢ - آثار النمو الداخلي على المبادلات الخارجية عند (جونسون Johnson) .

نستطيع ان نلاحظ ان الديناميكية المقترحة من قبل هذا المؤلف والتي ادخلها على قانون المزايا النسبية تعتمد على ثلاث قواعد رئيسية :

١ - التخلي المستمر من قبل البلدان المتقدمة عن نشاطات اقتصادية كانت تؤديها والقدرة المستمرة بالمقابل من قبل البلدان المتخلفة على امتصاص هذه النشاطات .

ب - الانتقاء للنشاطات الجديدة المتبناة من قبل البلدان المتقدمة بما يتلاءم مع الشروط التي ذكرناها آنفا والتي يجب أن تتوفر في نموذج النمو المتبع .

ج - الإخذ بقانون المزايا النسبية في التخصص والتقسيم الدولي للعمل بشكله الديناميكي ، أي بأن مصلحة كل بلد تقتضي أن يتخصص في إنتاج السلع التي تكون الآفاق المستقبلية للطلب الداخلي عليها ملائمة، وأن يستورد السلع التي تكون لاجلها هذه الآفاق أقل ملائمة .

ان نفس النقد الذي وجهناه لنظرية فيرنون يمكن أن يوجه أيضا الى افكار دي بيرنو والذي يتلخص بأنه يمكن ان يؤدي الى تحسن مطلق في وضع البلدان المتخلفة ولكن نسبيا فان هذه البلدان تبقى في ادنى درجات نظام الانتاج العالمي الذي يبقى مسيطرا عليه من قبل البلدان المتقدمة .

ب - عالمية الانتاج L'internationalisation de la Production

والتوزيع الجغرافي للنشاطات :

ان انتشار ظاهرة الاستثمارات الاجنبية المباشرة على الصعيد العالمي التي تاخذ شكل استثمارية الانتاج في الوطن الام صاحب هذه الاستثمارات يجعلنا ان نتجاوز المفهوم العفوي للتوزيع العالمي للنشاطات التي تكلمنا عنه آنفا واستبداله بما يسمى بالتوزيع الجغرافي للنشاطات . والمقصود من ذلك هو ان مكان العملية الانتاجية هو الذي تغير اما مالها فدائما للبلد الذي انطلقت منه هذه الاستثمارات . اذن لا يوجد توزيع عالمي للنشاطات يتم بشكل عفوي ، كما يقول البعض وانما يجب الحديث عن توزيع جغرافي للنشاطات ، أي وكأننا نتكلم عن انتقال هذه النشاطات

داخل الوطن الواحد . سنقوم بتحليل هذه الظاهرة بشيء من التفصيل نظرا للاهمية الكبرى التي تحتلها الآن في العالم الغربي خصوصا عند الاقتصاديين الماركسيين .

ان الهدف الاساسي من دراستنا لظاهرة (عالمية الانتاج *L'internationalisation de la Production*) هو اولا معرفة مكان البلدان المتخلفة الذي ستحتله على الصعيد العالمي كما يحدده لنا مفهوم عالمية الانتاج وثانيا معرفة فيما اذا كانت آلية التصنيع التي تقدمها لنا هذه الظاهرة بالنسبة للبلدان المتخلفة هو ما تريده هذه البلدان لحل مشاكلها .

قبل كل شيء يجب علينا ان نلاحظ التناقض الموجود بين هذا التحليل والتحليل الذي سبقه والذي يتعلق بديناميكية التقسيم الدولي للعمل .

ان تحليل التقسيم الدولي للعمل يتجاوز هنا تصور التخصص ما بين البلدان حسب مبداء الموجودات من عوامل الانتاج او صيرورة الانتاج ، هذا التجاوز قد قسم بواسطة ادخال مفهوم مراكز القوى .

هذا يعني ان التقسيم الدولي للعمل هو محصلة مراكز القوى ما بين البلدان ، هو حصيلة الوضع الجغرافي والسياسي وليس حصيلة مبداء المزايا النسبية كما تدعي المدرسة الكلاسيكية .

ان الصراع اذن هو ما بين مراكز قوى موجودة على الصعيد العالمي التي هي وراء انتشار عملية الانتاج الرأسمالية خارج حدودها الجغرافية بواسطة توجيه الاستثمارات على الصعيد العالمي ، لتقوم بعملية الانتاج في بلد ثان الا ان مال الانتاج في نهاية الامر الى السوق المحلية للبلد الرأسمالي حيث جاءت منه الاستثمارات .

يمكننا القول اذن بأن اعادة توزيع النشاطات او بمعنى آخر التقسيم الدولي للعمل حسب المفهوم الديناميكي الآنف الذكر بين البلدان المتقدمة والبلدان المتخلفة هو مفتعل - غير تلقائي - ومن اخراج البلدان المتقدمة نفسها لتضمن مجالا حيويا لتشغيل استثماراتها في البلدان المتخلفة . ان الوصول لهذه النتيجة امر طبيعي اذا ما وسعنا مفهوم الانتاج ليتجاوز الحدود الطبيعية لبعض البلدان المتقدمة ولعل الشركات المتعددة الجنسيات (Les Firmes Multi - National) لهي اكبر مثال على ذلك حيث توجد الشركة الام في البلد الراسمالي اما فروعها فتكون في بلدان اخرى تمارس عمليات الانتاج في هذه البلدان ومن ثم تصدر منتجاتها حسب العقود والالتزامات التي تبرمها الشركة الام . وهكذا فان عملية الانتاج محد ذاتها قد تمت في البلد الآخر - غالبا ما يكون بلدا متخلفا - الا ان مال الانتاج نفسه انما يكون الى البلد الراسمالي .

بشكل عام ان البلدان المتخلفة حسب ظاهرة عالمية الانتاج سوف تصبح جزءا مندمجا في نظام الانتاج الذي تفرضه الدول المتقدمة الكبرى . وهكذا فان عدم ثبات عملية الانتاج وتجاوزها الحدود الطبيعية لهذه البلدان كان لها اثر في خلق تخصص جديد للبلدان المتخلفة يتمركز فوق قطاع صناعي مجزا بما يتلاءم مع خطة الانتاج الموضوعة من قبل البلدان الكبرى حيث تستفيد هذه الاخيرة من اليد العاملة الرخيصة في البلدان المتخلفة . ان هذا التحليل يفسر لنا بعض الشيء كيف ان مفهوم البلدان المتقدمة في استغلال البلدان المتخلفة قد تطور حسب الزمان وحسب القوى المنتجة في كلا المجموعتين من البلدان . فاذا كان التقسيم الدولي للعمل بمفهومه التقليدي اداة في يد البلدان المتقدمة تمكنها من استغلال البلدان المتخلفة في مواردها الطبيعية فان التقسيم الدولي للعمل بمفهومه الديناميكي القائم على اساس اعادة توزيع النشاطات بين مختلف بلدان العالم هو اداة تملكها الدول المتقدمة لتتمكن اليوم بواسطتها من استغلال

الدول المتخلفة في مواردها الطبيعية بالإضافة الى مواردها من اليد العاملة .

ان هذه النظرة وان كانت تشاؤمية الى حد ما لانها تعتبر التصنيع في البلدان المتخلفة حسب هذه الآلية بعيدا كل البعد عن خلق الاستقلال الاقتصادي والاجتماعي لهذه البلدان ، الا انها امر واقع تعيشه الغالبية العظمى من هذه البلدان التي التزمت بصناعات اكثرها تجميعية ذات تأثير محدود في خلق قطاع صناعي حركي قادر على احداث تغيير هيكلي في بنية اقتصاديات البلدان المتخلفة .

في بعض الحالات نستطيع اليوم ان نلمس تحسنا نسبيا في التركيب الهيكلي لصادرات بعض البلدان المتخلفة لصالح ارتفاع حصة السلع المصنعة في مجمل هذه الصادرات . الا ان هذا يجب ان لا يمر بدون حذر وتحليل لهذه الظاهرة. ان ارتفاع نصيب الصادرات من السلع الصناعية في غالبية العظمى جاء نتيجة لنشاطات الفروع الانتاجية والتجارية للشركات المتعددة الجنسيات التي تمارس اعمالها داخل هذه البلدان .

ان الاحصائيات المتوفرة لدينا عن النشاطات التجارية لفروع الشركات الامريكية المتعددة الجنسيات الموجودة في أمريكا اللاتينية تشير الى ان ٤٠٪ من صادرات هذه الاخيرة من السلع الصناعية في عام ١٩٦٨ قد تمت بواسطة فروع الشركات الامريكية ولصالحها .

النتيجة النهائية التي يمكننا ان نحصل عليها هي ان تصنيع البلدان المتخلفة بقدر ما هو امر ضروري ومحتوم لكسر حلقة التخلف التي تعيشها هذه البلدان بقدر ما هو امر حساس ودقيق ، على هذه البلدان ان تفهم مضمونه وابعاده . ان البلدان المتقدمة لا يمكن ان تساعد البلدان

المتخلفة في بناء قاعدتها الصناعية بدون حدود ، ان ما يهمها اولا واخيرا هو ضمان مصالحها الاقتصادية في هذه البلدان وان يكون ربحها اكبر بكثير من خسارتها . اننا لانقصد ابدا اهمال دور البلدان المتقدمة في هذا المجال ، على العكس فللبلدان المتقدمة دورها الذي يجب ان تلعبه في تصنيع البلدان المتخلفة ولكن في حدود طريق التصنيع الذي تختاره البلدان المتخلفة بنفسها والذي يجب ان يتناسب مع خلق هوية مستقلة لها .

* * *

أهمية المعطيات الإحصائية في التخطيط لمساهمة المرأة في التنمية الاقتصادية

الدكتورة أمل كابوس

مقدمة :

ان الاستفادة القصوى والمثلى من الموارد البشرية هدف من اهداف جميع الدول في بناء اقتصادها ، اذ وعى الجميع ما للعنصر البشري من اهمية قصوى في الانتاج والتنمية والتطور . وبما ان المجتمع طائر ذو جناحين : المرأة والرجل فان التنمية تعتمد بالتالي على تطوير ودمج واسهام كل من الجنسين رجالا ونساء في هذه التنمية واهمال احدهما يعني بكل تأكيد انه هنالك هدر للموارد البشرية او على الاقل عدم استفادة مثلى منها .

وقد برهنت تجارب جميع الدول أن التنمية الاقتصادية والاجتماعية لا تتحقق ما لم يخطط لها ، كما ان التخطيط الاقتصادي الفعال في أي مجال من المجالات لا يتحقق ما لم تتوفر للمخططين المعلومات والمعطيات الاحصائية الاساسية التي تعطيهم مسحا كاملا للفئة المدروسة. تصور لهم واقع هذه الفئة واحتياجاتها وامكانياتها والموارد المتاحة كي يتمكن هؤلاء المخططون من ان يوجهوا هذه الامكانيات والموارد في الطريق الافضل والامثل .

قبل ان ننتقل في معالجة أهمية المعطيات الاحصائية في تصوير واقع المرأة في منطقة الدول العربية وخاصة سوريا وكيف يمكننا ان نخطط لمساهمتها في التنمية والتطور والنمو انطلاقا من الواقع يتوجب علينا توضيح بعض النقاط المهمة :

اولا - هدف التخطيط : المرأة

في كل عملية تخطيطية يجب تحديد الهدف بكل دقة وهدفنا هنا هو التخطيط لمساهمة المرأة في التنمية الاقتصادية ، بمعنى آخر ان اهتمامنا سينصب على دور المرأة . وقضية المرأة هذه هي بالحقيقة قضية نصف المجتمع من الناحية الكمية اذ ان نسبة الذكور الى الاناث قريبة من التساوي في كل المجتمعات ، وهي في نفس الوقت قضية المجتمع كله من الناحية الكيفية ، اذ ان مساهمة المرأة الفعالة في المجتمع انما تضيف موردا بشريا هاما لمواجهة تحديات التقدم والتطور والنمو ، ومن ثم فان الايمان بضرورة تمكين المرأة من الاسهام في حياة مجتمعها عطاء واخدا ، قد اسقر كضرورة من ضرورات التنمية هدفا ووسيلة وقد اصبح من شبه المسلمات لدرجة انه تولدت لدى الجميع شبه قناعة بأن للمرأة دورا اجتماعيا وانسانيا وتربويا واقتصاديا عليها ان تؤديه وعلينا ان نخطط له .

لكن الخلاف ينشأ عندما ننتقل الى كيفية تأدية هذا الدور والتي الاتجاه الذي يجب ان نسلكه في عملية التخطيط هذه .

فالبعض يرى في المرأة الام والزوجة التي خلقت لتربية الاطفال والاعتناء بزوجها فقط ، ولم تخلق للعمل خارج المنزل فهي اقل من الرجل فهما وادراكا ، وان عملها خارج المنزل يمنعها من تادية وظيفتها الاساسية والى ضعفة الاسرة وتهلهل المجتمع ، وعلينا ان نخطط في هذا الاتجاه اي ان تقوم المرأة فقط بدورها كام وكزوجة .

هذه النظرة الى المرأة كانت سببا في ضعفة مكانة المرأة الاجتماعية والى ضعف دورها الاجتماعي والاقتصادي ، وتعود الى اعتبارات تتعلق بالاعدادات والتقاليد القديمة ، ومن هذا المنطلق فحصول المرأة على التعليم يعتبر رفاهية وامتنانها عملا ما خروجا على المجتمع وحصولها على الاكتفاء والاستقلال المادي شيء غير مرغوب فيه ، وتحقيق الذات وتكوين شخصيتها كلام ليس له اي معنى او مدلول .

فريق آخر يركز على كون اهمية الدور الذي تلعبه المرأة لا ينبع فقط من كونها اما ومربية جيل بل من كونها عنصرا فعلا وقادرا على العمل والانتاج ، ويجب علينا ان نفسح لها مجال العمل الانتاجي داخل وخارج المنزل ، علما ان العمل المنزلي الاسري رغم انه في النظريات الحديثة عمل انتاجي (بدون اجر) الا انه غير قادر في جميع الاحوال على امتصاص الايدي العاملة النسائية بالكامل فيتوجب على الفاشض من هذه الايدي العاملة الخروج من المنزل للاستفادة من هذه الطاقات غير المستعملة . وقسم كبير من هذا الفريق يركز على اولوية عمل المرأة داخل المنزل وتربية الاطفال والجيل والسماح لها في الخروج فقط عند انماتها من المسؤوليات وبني حال وجود اسباب اقتصادية مادية تدعو الى ذلك .

الفريق الثالث يذهب الى ابعد من هذا لي طرح فكرة كون المرأة والرجل متساويين (لا المساواة الحسابية المطلقة) بل المساواة في الامكانيات والقدرات وخاصة في الحقوق ، وهذا يعني ان المرأة تساوي الرجل عقليا وفكريا ، وقادرة على العطاء والعمل والانتاج والابداع ، علما ان مجالات العمل والابداع قد تكون مختلفة لكل من الرجل والمرأة ،

كما انها تتمتع بالصفات الخلقية والنفسية والفكرية والجسدية التي تؤهلها للمساهمة في جميع الفعاليات الاجتماعية والاقتصادية وتبوؤ المناصب في مختلف المستويات .

وانه من غير المنطق والعدل والحكمة والفائدة الوطنية ابعادها قسرا (مباشرة او غير مباشرة) عن العمل وتخصيصها فقط بالمنزل ، لانه تكون بذلك قد حرمانا المجتمع من عناصر قد تكون مبدعة ومنتجة في ميادين شتى . والمشروض علينا ان نؤمن للمرأة كما للرجل فرص التعليم والحياة والاختيار بدون اي قسر او اكراه (مادي او معنوي ، فكري او اجتماعي ، عام او حتى نفسي) ، وتأمين فرص الاختيار هذه يشعر المرأة كالرجل انها عنصر مسؤول يسعى الى تأمين مستقبله بالشكل الذي يرغب وبالاسلوب الذي يحقق شخصيته وينم عن ذاته ويجعل منه عنصرا مميزا ، ويجب ان تشعر المرأة ان قوانين وعادات وامكانيات المجتمع توفر وتؤمن لها هذا الاختيار وتساعد في تحقيقه تماما كالرجل . وهنا يتجلى بوضوح مبدأ المساواة . هذه المسؤولية يترتب عليها بالطبع حقوق وواجبات فعليها ان تمي هذه الحقوق وتسعى الى القيام بواجباتها . بهذا الشكل تأخذ المرأة مكانها الطبيعي (في المنزل والعمل ، كأم وكزوجة ، كصديقة وكأخت ، كزميلة وكشريكة) وتكون قادرة على ان تعكس صورة واضحة للأمة في تقدمها وفي تخلفها ، فالأمة التي تكون فيها المرأة عنصراً بشخصية متكاملة نفسياً وعقلياً وثقافياً هي أمة متقدمة متطورة ، وعندما بضيق على المرأة وتتخلف يكون ذلك أحد المظاهر الواضحة لتخلف الأمة وتراجعها نساء ورجالاً اذ من غير الممكن اذا كان نصف أعضاء المجتمع غير مكتملي الشخصية والتكوين الفكري والعلمي ان يكون المجتمع سليماً ، لان النساء والرجال هم أعضاء لمجتمع واحد .

لذا يجب التركيز باناه عند الدعوة لاسهام المرأة في التنمية النظر للموضوع في اطاره العام الشامل وليس من زاوية اقتصادية بحتة ، فكم من النساء العاملات تهضم حقوقهن ويعطين أزواجهن كامل دخلهن دون

أن يكون لهم حتى حق ابداء الرأي . وبرامج التنمية يجب ان تتضمن برامج تغيير للبنية الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والاعلامية تحتل المرأة مكانتها وتنال حقوقها (قانونيا - ثقافيا - عمليا - اعلاميا - نضاليا) ولتشعر هي بنفسها ان هذا ليس عطاء من المجتمع او من الذي حولها بل هو أساس وجودها كفرد من افراد المجتمع وككائن حي كامل الاهلية والحقوق وان هذا يحقق خير المجتمع كله لا النساء فحسب .

ثانيا - أهمية التخطيط وادواته (البحث العلمي - المعطيات الاحصائية) :

يتجلى بوضوح من الآراء السابقة المتباينة أن مساهمة المرأة في التنمية لا يتم وسوف لن يتم بالشكل العفوي ، كما انه لا يواكب تطور المجتمع بشكل طبيعي بل له مقوماته الخاصة واوراعه المختلفة . واذا افترضنا جدلا ان المجتمع قد تقبل طوعا فكرة خروج المرأة الى العمل ومشاركتها مشاركة فعالة في التنمية وبناء مجتمعا ، فهل يمكن أن يتم ذلك بين ليلة وضحاها ؟ كلا ان ذلك يحتاج الى اتخاذ كثير من الاجراءات والى تحديد السياسات المختلفة في جميع المجالات والاستراتيجيات ، انه بكلمة مختصرة يحتاج الى تخطيط قصير ومنتوسط وطويل الاجل . وان فترة الانتقال (انتقال المرأة من وضعها التقليدي الى امرأة مسؤولة عاملة) هي فترة انتقالية صعبة جدا تحتاج الى تدابير خاصة اذ يجب ان لا يغرب عن بالننا بأن الأسرة تبقى الخلية الاولى والمهمة في أي مجتمع سليم وان بناءها المتكامل هو الأساس في صرح البناء المتين للمجتمع بكامله ، كما ان الاطفال هم نواة المجتمع وجيل المستقبل فلا يجوز ان يكونوا هم الضحية ايضا لتغيير مفاجيء في المجتمع فالتنمية هلدفها الاول والآخر : الانسان وتحقيق سعادته (رجلا او امرأة ، طفلا او شيخا ، ابيض او اسود) .

من هذا المنطلق فالتخطيط لاسهام المرأة في التنمية الاقتصادية التي هي جزء من كل ، في التنمية العامة الشاملة : اجتماعية ، ثقافية ... الخ ، يتم برسم السياسات التي تعتمد على المنطق السليم والبحث العلمي .

آ - البحث العلمي :

كان البحث العلمي فيما مضى أكثر ما يهتم بالعلاقات السببية لدراسة الواقع وملاحظته ، أما الآن فان اهتمام الباحث الحقيقي العلمي ينصب على نواح أخرى غير السببية ، إذ أصبح الهدف الرئيسي له الحصول على علاقات تربط الظواهر الطبيعية الملاحظة وغيرها ببعضها البعض .

ومهما تعددت أساليب البحث فلا يمكن ان يسمى البحث علميا الا اذا سار تبعا لمرحلة معينة متميزة صراحة أو ضمنا . وهذه المراحل تكاد لا تختلف في شيء عن المراحل التي يتبعها الشخص العادي في تفكيره عندما تصادفه مشكلة من مشاكل الحياة اليومية . إذ يمكن تلخيصها كما يلي :

- ١ - الشعور بوجود مشكلة أو مجال يحتاج الى دراسة أو بحث .
- ٢ - تحديد اطار الدراسة أو البحث .
- ٣ - وضع فرضيات معينة تتعلق بهذه الدراسة .
- ٤ - جمع المعطيات الاحصائية وترتيبها وتصنيفها وعرضها بشكل سهل الافادة منها .
- ٥ - تفسير المعطيات الاحصائية واستخلاص النتائج وتعميمها اذا أمكن التعميم بعد اختبار دقتها وجودتها لننتقل منها الى التنبؤ بالمستقبل والتخطيط له ..

كما نلاحظ انه بعد تحديد المشكلة واطارها بشكل دقيق فان المعطيات الاحصائية تعتبر من أدوات البحث العلمي ومن مستلزماته الأساسية اي اننا نسمى عن طريق جمع الأدلة والبيانات الى ترجمة المشكلة الفامضة الى ارقام والاعتماد على التعبيرات الكمية بدلا من التعبيرات الكيفية .

فمثلا رسم سياسة تعليمية للمرأة من حيث توفر المدارس اللازمة وعدد المدرسين فيها يعتمد على بيانات وأرقام توضح عدد التلميذات المحتاجات لكل نوع من انواع التعليم في كل منطقة من المناطق . وبدون هذه المعطيات الاحصائية نجد انفسنا نتصرف دون هدى او ارشاد ، فنكثر من المدارس في جهة لا تحتاج اليها بينما تقلل منها في جهة اخرى هي في ميسس الحاجة اليها ، او ننشئ معاهد لنوع معين من التعليم في منطقة تحتاج الى نوع اخر من المعاهد . وفي الميادين الصحية نجد انه لايمكننا توزيع خدمات صحية تهتم بالامومة والطفولة مثلا توزيعا سليما يؤدي الى الدرجة القصوى من الاستفادة الا بناء على معطيات احصائية عن عدد النساء المتزوجات ودرجة الخصوبة ومدى انتشار الامراض . وفي الميادين الاجتماعية نجد انفسنا امام ظواهر معقدة متشابكة كالزواج والطلاق والتكاثر . ولدراسة هذه الظواهر نحتاج الى مقاييس رقمية تبين مدى انتشارها في المجتمع ومدى تأثيرها وتأثيرها بالعوامل الاخرى وبدون هذه المقاييس يستحيل علينا تفهم اوضاع المرأة على حقيقتها ويصعب جدا بالتالي اعداد خطة سليمة للاصلاح حينما تدعو الحاجة اليها .

ولكي نصل الى ما نريده من ارقام ومقاييس كمية وحقائق علمية نجد انه يلزمنا عادة اجراء ثلاث عمليات متشابكة وهي :

١ - جمع البيانات الاولية اللازمة اي جمع الاحصاءات من :

(١) مصادرها الاساسية (ميدانيا) .

(٢) من مصادرها الثانوية .

عرض الاحصاءات :

(١) عرض ضمن الكتابة .

(٢) عرض جدولي .

(٣) عرض بياني .

٣ - تحليل الاحصاءات لحساب :

- (١) النسب والمعدلات .
- (٢) القيم المركزية (المتوسطات) .
- (٣) قيم التشتت وعلاقات الارتباط بين المتغيرات .

٤ - تفسير الاحصاءات واستنباط التقديرات والتنبؤات .
وتدعى هذه الطريقة في العمل بالطريقة الاحصائية ، ويمكن تعريفها كالتالي :

« الطريقة الاحصائية هي احدى طرق وصف ومقارنة المجموعات والظواهر المتغيرة واثبات الحقائق العلمية المتصلة بها ، شأنها في ذلك شأن اية طريقة من طرق الاستنتاج المنطقي كالطريقة التجريبية مثلا غير انها تختلف عن طرق الاثبات الاخرى في انها تعتمد اعتمادا كليا على التعبير الرقمي عن الظواهر » .

ويمكن القول ان اي باحث اجتماعي احصائي اقتصادي يستخدم الطريقة الاحصائية كاحدى طرق الاثبات العلمي لاينتهي بجمع البيانات بل بالعكس ان عمله يبتدىء بجمع البيانات ولاينتهي الا بعد ان يقوم بتنقيح هذه البيانات وتحقيق الهدف من جمعها فالبيانات الاحصائية (او ايضا المعطيات الاحصائية) للباحث العلمي هي بمثابة المواد الاولية لاية عملية انتاجية لايستطيع الصانع ان يستفيد من هذه المواد مالم يحولها الى سلع صالحة قابلة للاستعمال وقادرة على اشباع حاجات معينة في الانسان .

ب - حدود المعطيات الاحصائية واستعمالاتها السيئة :

كما ان المواد الاولية تختلف في جودتها فتختلف قيمة السلع المنتجة منها تبعا لذلك فان المعطيات الاحصائية تختلف ايضا في دقة تمثيلها للظواهر الموضوعية تحت البحث وتختلف تبعا لذلك قيمة النتائج التي نحصل عليها منها ومهما بلغت هذه المواد الاولية من الجودة فانه لايمكن

استعمالها مالم نحولها الى اشكال مختلفة عن شكلها الاصلي لتصبح صالحة للاستعمال واشباع الحاجات وبالمثل فان المعطيات الاحصائية لا تستطيع ابراز اية حقيقة علمية مالم نجر عليها التحويلات اللازمة وتعيين الحدود المنطقية التي تجيز لنا استنتاج الالراء والعلاقات المناسبة .

فالمعطيات الاحصائية لا يمكن ان تتعدى حدود امكانياتها فهي ليست بالوسيلة التي تستطيع ان تعطينا البرهان القاطع لكل الظواهر كما ان التفسير الناتج عن هذه المعطيات لا يمكن ان يتعدى حدود المعطيات العددية . قد يكون التعبير الرقمي عن هذه الظواهر من اقوى وسائل الاقناع والاثبات لان منطق الارقام بصورة عامة منطق موضوعي مستقل عن الاعتقاد او الميل الفردي ، غير انه قد يكون ايضا من اشد وسائل التضليل اذا اسيء استعماله . ومع الاسف فان سوء استعمال المعطيات الاحصائية شائع للدرجة تدعو الى الاسف ، لاسيما وانه قلما نجد بحثا اجتماعيا او اقتصاديا او سياسيا او طبيا يخلو منها ، ويرجع ذلك الى عدم فهم طبيعة الطرق الاحصائية او الى معرفة القليل المضلل عنها .

ان طرق الاحصاء هي بمثابة الادوات والالات للصانع . وهل ننتظر من الصانع ان يؤدي عملا منتجا الا اذا فهم طبيعة الادوات والالات التي يستخدمها ويجب ان لا يغيب عن ذهننا ايضا ان كل طريقة او اداة مهما كانت فعالة واقوية ، لا بد لمن يستعملها ان يستعمل الى جانبها الدقة والحكمة والحس السليم كي يصل الى الهدف ويحقق الغاية من استعمال تلك الطريقة ، لذلك يجب على الاحصائي ان يتسلح الى جانب معرفته بالادوات الاحصائية بحس سليم وتفهم صحيح لواقع المشكلة التي يريد دراستها ، اذ انه غالبا ما يتعرض لخطر الاكثار والمغالاة في جمع المعلومات الاحصائية والى خطر الانغمار في المجالات الفنية للاصول والمبادئ الاحصائية واعطائها الاولوية في البحث .

ولعل من اخطر وسائل التضليل هو محاولة التوصل الى نتائج علمية من واقع البيانات الاولوية مباشرة كما لو حاول الصانع تقديم المواد الاولوية

للمستهلك في شكلها الاصلى . ومع هذا فكثيرا مانجد مثل تلك الاحصاءات في الابحاث .

الجدول رقم ١

توزيع اناث القطر الحربي السوري حسب الريف والحضر وثقات السن بالآلاف

تقدير ١٩٧٨		تقدير ١٩٧٥		فئات السن الماء
حضرية	ريفية	حضرية	ريفية	
٨٩٤	١٠٠٣	٧٩٤	٩٤٤	١٤ - ١٥
١٨٦	٢١٠	١٢٦	١٥٠	١٥ - ١٦
٥٩٧	٦٧٠	٤٨٧	٥٧٩	١٩ - ٢٤
١٦٥	١٨٥	١٢١	١٤٤	٤٥ - ٥٩
٩٧	١٠٩	١٠٩	١٢٩	٦٠ فأكثر
١٩٣٩	٢١٧٧	١٦٣٧	١٩٤٦	المجموع

فتقديم هذه الارقام على علاقتها دون تحليلها بأية طريقة احصائية والاستنتاج منها ، انه نظرا لكون العمر القانوني للعمل هو ١٩ - ٦٠ سنة فمجموع القوة العاملة المتاحة للاناث هو ٨٥٥٠٠٠ انثى في الريف ٧٦٢٠٠٠ انثى في المدينة ، وبما ان المرأة تعمل في بلدنا بشكل منتج في الحقل ، فلا يمكننا اعتبار الريفية في سن العمل عاطلات عن العمل مهما كانت نتيجة التعداد الاحصائي ، هذا الاستنتاج قد يكون مضللا في بعض الاحيان حسب اعتقادنا .

هنالك امثلة اخرى يمكن ان تدل على سوء استعمال المعطيات الاحصائية غير انه يكفي ان نشير هنا في ايجاز الى اهم الاخطاء الشائعة في هذا المجال :

١ - التحيز : يقول الاستاذ يول (١) « انه قلما يخلو انسان من الميل الطبيعي نحو التحيز في صورته المختلفة في اختيار البيانات الاحصائية وان هذه الصفة الانسانية متصلة الى ادرجة تجعل من المستحيل التغلب عليها حتى بالمران أو الحذر الشديد .

٢ - استعمال بيانات غير كافية او اغفال بعض العناصر المهمة في الظاهرة المدروسة : فمثلا لايمكننا تحديد معدلات التسجيل في المدارس الابتدائية استنادا الى نشرات المدارس الرسمية فقط فيما اذا كان هنالك قطاع خاص ضخم للتعليم الابتدائي ...

٣ - عمل مقارنة بين بيانات لايصح المقارنة بينها نتيجة وجود اختلاف اما في التعاريف المستعملة او في التركيب الهيكلي . مثلا : مفهوم العاطل عن العمل يختلف من بلد الى اخر .

لمقارنة معدلات الوفيات يتوجب دوما توحيد التركيب العمري للسكان والا لكانت النتائج خاطئة .

ويمكننا ان نختتم هذه الفقرة بالقول بان جميع الاحصاءات مع منتهى حسن النية تتضمن دائما اخطاء ، وبعض الاخطاء مثل التي تنتج عن التقريب تكون عادة غير هامة . اما الاخطاء التي تكون نتيجة المشاهدة الخاطئة او التسجيل الخاطيء او ايضا التفسير الخاطيء فقد تكون خطيرة وينبغي بالتاكيد تجنبها او تصحيحها ماامكن ذلك . ولكن مهما

(١) يول وكندل : مقدمة لنظرية الاحصاء ص ٢٢٧ .

كانت الاخطاء التي قد تظهر في الاحصاءات فانها تبقى اداة قوية ومقنعة واقل تحيزا من غيرها من الوسائل ، وكل طريقة علمية مهما بلغت من الدقة والموضوعية قابلة للتعرض لنفس الاخطاء . لذلك يجب عدم الخوف من استعمال المعطيات الاحصائية بسبب الخشية من الاخطاء ، فالاحصاء يحتل مكان الصدارة في تطور ونمو كثير من العلوم والمعلومات الاحصائية تبقى الدعامة في النظريات الاجتماعية والاقتصادية الحديثة والاساس في السياسات والعمليات الاقتصادية الاجتماعية ، واستعمالها يبدو الزاميا لمن يريد تحليل وتفسير العلوم الانسانية الاجتماعية الاقتصادية لانها تحقق وظيفتان هامتان : وظيفة تصويرية - وظيفة تحليلية .

ثالثا - وظائف الاحصاء :

وظيفة تصويرية : وتتحقق هذه الوظيفة عن طريق الدراسات التي تسعى الى تصوير بعض الظواهر في مجموعة من الافراد عن طريق ايجاد مقاييس تكون في مجموعها صورة لهذه الظواهر .

ومن امثلة هذا النوع تعدادات السكان التي تعطينا صورة معينة لحالة المجتمع في لحظة معينة . احدى هذه الصور تبين لنا الحالة الزوجية في المجتمع بواسطة مجموعة من الارقام اولها يبين عدد المتزوجين والثاني يبين عدد المطلقين والثالث يبين عدد الارامل ... الخ . ويمكننا تحديد صورة ارى للمجتمع تبين حالته العلمية عن طريق مجموعة اخرى من الارقام وهكذا ...

وقد سميت هذه الوظيفة بالتصويرية لانها كالتصوير الضوئي تسعى الى تصوير الوضع الراهن من عدة جوانب .

وظيفة تحليلية : تتحقق هذه الوظيفة عن طريق البحوث التي تدرس تأثير عدة مؤثرات وتحلل اسباب ظواهر معينة ودراسة العلاقة بين مجموعة من الظواهر . كأن تدرس مثلا اثر تعليم المرأة على معدلات الخصوبة او دراسة اسباب الطلاق .

وغني عن البيان ان هذين النوعين من البحوث (بحوث تصويرية - بحوث تحليلية) غير مستقلين عن بعضهما، فالبحوث التصويرية انما تهدف في الواقع الى اعداد البيانات وتحديد العمليات الاحصائية حتى يتمكن الباحثون من استخدامها في بحوثهم التحليلية . والبحوث التحليلية اما ان تتكون من عملية جمع البيانات ثم تحليلها ، واما ان تعتمد على بيانات ومعطيات احصائية سبق اجراؤها .

رابعا - دور الاحصاء في مجال التخطيط لاسهام المرأة في التنمية :

أ - تصوير الواقع :

بينما فيما سبق كيف يمكن للمعطيات الاحصائية ان تصور واقع اية ظاهرة اقتصادية او اجتماعية واننا سنحاول في هذه الفقرة ان نطبق عمليا الطريقة الاحصائية في تصوير واقع المرأة لان تصوير هذا الواقع اساسي في تخطيط المستقبل ، وان امثالتنا العملية ستكون مستقاة اكثر ما يمكن من الواقع العربي السوري بالاضافة الى بعض الامثلة الاخرى من بعض الدول العربية .

١ - واقع المرأة كفنصر بشري

ان اهم صفة من صفات اي مجتمع احصائي سكاني هو تقارب الجنسين ، واول ظهرت بعض الاضطرابات في بعض الفئات العمرية ، فالتعادل هو سمة لاستمرارية المجتمعات الانسانية واستقرارها . والجدولان رقم ٢ و ٣ يبينان التركيب العمري للسكان سورية في سنوات متعددة .

الجدول رقم ٢

عدد سكان القلعة المصري السوري حسب الجنس
وفئات السنين
١٩٨٠ - ١٩٦٠

تقدير ١٩٨٠		١٩٧٠		١٩٦٠		فئات السن
اناث	ذكور	اناث	ذكور	اناث	ذكور	
٨١٥٩٩٨	٨٥٧٣٨٠	٥٧٥٤٢٤	٦١٤١١٥	٤٢٥٣٨٠	٤٦٤٨٢٨	٤-٠
٥٨٩٩٤٣	٦١٧٤٦٨	٥١٦٦٦٠	٥٥٩٠٢٤	٣٢٨٧٠٥	٣٧٧٧٣٦	٥-٥
٥٤٣٥٦٠	٥٦٩٨٨٥	٣٩٧٣٤٤	٤٤٣٠٦٣	٢٤٥١٩٢	٢٧٠٧٢٢	١٤-١٠
٥٠٣٢١١	٥٣٨٣٥٩	٣٩٥٢٣٣	٣٠٧٠٧٥	١٨٨٩١٦	١٩٠٦٩٧	١٩-١٥
٣٩٠٩٥٩	٤٢١٦٥٦	٢٢١٨٧٣	٢٣٩٠٩٥	١٧١٣٧٦	١٦٥٦٤٢	٢٤-٢٠
٢٨٤٠٠٥	٣٠٣٤٩١	١٨٣٠١٣	١٦٨٥٧٧	١٧٠٠٩٢	١٥٥٠٢٩	٢٩-٢٥
٢١٠١٥١	٢٢٣١١٢	١٦٦٧٧٩	١٥٥٩٠٨	١٣٤١٨٩	١٤٦٣١١	٣٤-٣٠
١٦٦٤٤٥	١٧٤١٤٨	١٥٨٩٧٠	١٥٨٣٥٠	١١٧٦٠٢	١٢٤٣٣٩	٣٩-٣٥
١٥٠٣٣٣	١٥٥٥٣٥	١٢٥١٤٣	١٣٨٤٠٢	٧٨٩٢٩	٨٨٩٣٤	٤٤-٤٠
١٤٣٥٧١	١٤٦٣٩٣	٩٦٥٣٦	١٠٧٢٣٤	٧٠٢١٧	٧٩٠٠٢	٤٩-٤٥
١٢١٧٧٦	١٢٦٩٢٥	٧٤٦٦٦	٧٨٦٦١	٦٦٣٩٤	٦٤٣٨٨	٥٤-٥٠
٩٢١٨٢	٩٠٣٨٦	٥٦٠٥٤	٦١٥٨٢	٤٥٩٨٨	٤٨٩٤٨	٥٩-٥٥
٦٦٠٤١	٦٣٢١٧	٦٥٩١٧	٦٣٤٦١	٦٣٥٠٤	٥٥٤٦٢	٦٤-٦٠
٥١٤٥٩	٤٧٩٣١	٤٣٧٣٥	٤٢٥٣٨	٣٠٣٧١	٣٥٦٨٤	٦٩-٦٥
٤١٦٥٥	٣٨٣٠٢	٤٣٨٥٢	٤٢٧٠٨	٣٥١١٤	٣٢٧٩٨	٧٤-٧٠
٤٣٦٣٤	٣٩٦٩٣	٥١٨٥٦	٥٣٣١٧	٣٩٥١٨	٤٣٦٤٣	٧٥ فأكثر
٤٢١٤٠٦٤	٤٤٠٨٩٨٠	٣٠٧١٥٧٥	٣٢٣٣١١٠	٢٢٢٠٨٩٧	٢٣٤٤٣٢٤	المجموع
١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	نسبة الذكور إلى الإناث

محصوبة من قبل الباحث

المصدر : المجموعات الإحصائية السورية

الجدول رقم ٣

التكوين العمري النسبي في القدار العربي السوري
حسب الجنس للعوام ١٩٦٠-١٩٧٠-١٩٨٠
نسبة في - نسبة الامالة مرتفعة

فئات السن	١٩٦٠		١٩٧٠		تقدير ١٩٨٠	
	اناث	ذكور	اناث	ذكور	اناث	ذكور
٤-٠	١٩٨	١٩٨	١٨٧	١٩٠	١٩٥	١٩٤
٥-٩	١٦٨	١٤٨	١٦٨	١٧٣	١٤	١٤٠
١٠-١٤	١١٥	١١٠	١٣٠	١٣٧	١٣٠	١٢٩
المجموع	٤٧٤	٤٤٩	٤٨٥	٥٠٠	٤٦٥	٤٦٣
١٥-١٩	٨١	٨٥	٩٦	٩٥	١٢٢	١١٩
٢٠-٢٤	٧١	٧٧	٧٢	٧٤	٩٦	٩٣
٢٥-٢٩	٦٦	٧٧	٦٠	٥٢	٦٩	٦٧
٣٠-٣٤	٦٢	٦٠	٥٤	٤٨	٥٠	٥٥
٣٥-٣٩	٥٢	٥٣	٥٢	٤٤	٤٠	٣٩
٤٠-٤٤	٣٨	٣٦	٤١	٤٣	٣٥	٣٦
المجموع	٣٧١	٣٨٨	٣٧٥	٣٦١	٤١٢	٤٠٤
٤٥-٤٩	٢٤	٢٢	٢١	٢٣	٢٣	٢٤
٥٠-٥٤	٢٨	٢٤	٢٤	٢٤	٢٨	٢٦
٥٥-٥٩	٢١	٢١	١٨	١٩	٢٠	٢٢
٦٠-٦٤	١٤	٢٨	٢٢	٢٠	١٤	١٦
المجموع	١٠٧	١١٥	٩٥	٩٦	٩٥	١٠١
٦٥-٦٩	١٥	١٤	١٤	١٣	١٠	١٢
٧٠-٧٤	١٤	١٦	١٤	١٣	٩	١٠
٧٥ فأكثر	١٩	١٨	١٧	١٧	٩	١٠
المجموع	٤٨	٤٨	٤٥	٤٣	٢٨	٢٢
المجموع العام	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠

المصدر: المرأة العاملة في سوريا رسالة نيل د باوم معهد التخطيط التنمية الاجتماعية والاقتصادية

في سوريا، ١٩٧٥ - ١٩٧٦

الجدولان رقم ٢ و ٣ يشيران الى الحقائق التالية :

١ - ان نسبة الذكور الى الاناث في المجتمع العربي السوري هي تقريبا ١.٥ بمعنى ان كل /١.٥/ من الذكور يقابلهم /١.٠/ انثى ، وهذا يعني ان هنالك تقاربا في اعداد الذكور والاناث .

٢ - ان الفئة العمرية القادرة على العمل اي بين العمر ١٥ - ٦٤ سنة تتميز بارتفاع نسبة الاناث عن الذكور حسب تعدادي ١٩٦٠ و ١٩٧٠ حيث بلغت على التوالي {٧٨ر٤} للذكور - ٥.٣ر٥ للاناث - و{٥٧ر٥} للذكور و{٧٣ر٤} للاناث بينما تساوت هذه النسبة حسب اسقاطات عام ١٩٨٠ اذ بلغت ٥.٧ر٥ للذكور و٥.٥ر٥ للاناث - وهذا يعني ان نصف قوة العمل مؤلفة من النساء .

٣ - ان المجتمع العربي السوري يتميز ببنية سكانية فتية اذ بلغت نسبة الفئة العمرية . - ٤ سنوات حوالي نصف مجموع السكان ، وهذا يعني ان معدلات الاعالة مرتفعة جدا .

هذه الحقائق تدفعنا الى القول بانه اذا لم يكن هنالك سياسة حكيمة تروج بالطاقت النسائية في العمل فسوف يكون هنالك هدر قوة بشرية لا يستهان بها . ويعتبر هدر القوى الانسانية من اسوأ أنواع الهدر الاقتصادي .

٢ - واقع المرأة في التعليم :

ان اهم مظهر من مظاهر رقي الامم وتقدمها في البلدان النامية هو مستوى التعليم عامة (ذكرا وانثى) ومستوى تعليم المرأة خاصة . وان آثار التعليم المباشرة وغير المباشرة غير قابلة للحصر . فبالعلم ترتفع الامم ، وبالعلم يتسامى الانسان ويرقى ، وان المرادود المادي للعلم يتبلور في زيادة الانتاجية والابداع في العمل ، والابتكار ومع هذا فانه لا يواهي مردوده الاجتماعي والمعنوي بخلق اجيال واعية ذات فكر نير خلاق وتفكير منطقي

وعلمي . فما هو اذن وضع المرأة اذا حُرمت من هذا السلاح البناء ، وكيف يمكن لها ان تعمل وتنتج مالم تؤمن لها هذا الشرط اللازم لاثبات ذاتها .

وللاسف ان واقع المرأة في التعليم في غالبية الدول العربية لواقع اليم رغم الجهود الجبارة التي تقوم بها معظم هذه الدول في هذا المجال . واليك بعض الارقام التي تظهر تأخر المرأة عن الرجل في مجال التعليم في سوريا التي تعتبر من اوائل الدول التي تسعى الى تعليم المرأة .

الجدول رقم (٤)

جدول يبين مستوى التعليم الى مجموع السكان
عام ١٩٧٠ في سوريا

ذكور		اناث		الجنس المستوى التعليمي
النسبة %	العدد	النسبة %	العدد	
٢٤ر٤	٧٠٩٠٩٨	٧٢ر٢	١٤٤٩٠٨٩	اممي
٢٤ر٦	٧١٢٩٦٩	٢٦ر٨	٢٩٧٧٢٢	ملم
١٨ر٢	٢٧٦٧٤٢	٧ر٨	١٥٢٨٠٧	ابتدائي
٩ر٧	١٩٩١٩١	٢ر٢	٦٥٩٢٥	اعدادي وثانوي
٢ر٠	٦١٩٧٠	٠ر٧	١٢٩٢٨	تعليم عالي*
%١٠٠	٢٠٥٩٩٧١	%١٠٠	١٩٧٩٤٩٢	المجموع*

المصدر : المرأة والتنمية في مجالات التعليم - العمل التشريع والخدمات
الاتحاد العام النسائي - الجمهورية العربية السورية ص {

- * تعليم عالي : قد جرى حسابه من قبل الباحث كعدد متمم للمجموع .
- * المجموع : يمثل مجموع السكان / ١٠ / عشرة سنوات فاكتر ، اي اعتبرت اعمار الاميين من سن العاشرة فما فوق .

ان هذا الجدول يعطينا فكرة عن معدلات الامية ويظهر بوضوح ان نسبة الامية لدى النساء تفوق ضعف نسبة الامية لدى الذكور ، وقد يكون من المفيد ان تكمل هذا الجدول ببعض النسب الهامة لمعدلات الامية بين الاناث في الجمهورية العربية السورية لاتمام الصورة الحقيقية لواقع تعليم المرأة اذ انه يتعلق بفئات السن من جهة والاقامة من جهة اخرى . فمعدل الامية بين الاناث من الفئة العمرية (١٠ - ١٤) بلغ ٥٠.٨ ٪ ويرتفع في فئة العمر (٢٠ - ٢٤) الى ٦٨.١ ٪ ويصل الى ٨١.٧ ٪ في فئة العمر (٣٠ - ٣٤) والى ٩٠.٧ ٪ في فئة العمر (٤٥ - ٤٩) والى ٩٤ ٪ في فئة العمر (٥٥ - ٥٩) . اما معدلات الامية عند اناث الريف فقد بلغت ٨٨.٣ ٪ في حين ان المعدل عند اناث الحضر لم يتجاوز ٥٣.٨ ٪ .

وان هذا الواقع في الحقيقة لا يختلف في بقية البلدان العربية عنه في سوريا . والجدول الاتي يعطينا صورة عن هذا الواقع لبعض البلدان العربية :

الجدول رقم ٥

النسبة المئوية للأمية للذكور والاناث لسكان

بعض الدول العربية ١٥ سنة فما فوق

البلد	السنة	ذكور	اناث
البحرين	١٩٦٥	٦٣٩	٨١٨
	١٩٧٥	٤٢٠	٦٤٦
مصر العربية	١٩٦٦	٥٢٠	٧٩٠
	١٩٧٥	٤٣٢	٧١٠
العراق	١٩٦٥	٦٤٤	٨٧٢
	١٩٧٥	٥٨٥	٨٢٨
الاردن	١٩٦١	٤٩٩	٨٤٨
	١٩٧٦	١٤٠	٤٥٧
الكويت	١٩٧٠	٣٦٦	٥٨١
	١٩٧٥	٣٢٠	٥٢٠
ايران	١٩٧٠	٢٥١	٤٧٩
	١٩٧٥	٢٠٠	٤٤٠
سوريا	١٩٦٢	٤٦٥	٨٣٢
	١٩٧٥	٣٤٠	٧٦٠
الامارات العربية	١٩٦٨	٧٣٠	٩١١
	١٩٧٥	٤١٦	٨١٩

1 - United Nations , Demographic Yearbook 1971 : المصدر الاصلية :

2- ECONA , Demographic and Related Socio-Economic Data Sheets for countries of The Economic Commission for Western Asia, Beirut, 1978

هذا النقص في تعليم المرأة يتفاقم في المستويات العليا من التعليم
وقلما تتوجه المرأة الى المجالات العلمية والاختصاصات التطبيقية بل
تكتفي في اكثر الاحيان بالاختصاصات النظرية وهذه بعض الارقام التي
تدعم هذه الحقائق .

الجدول رقم ٦

البيانات عن عدد الدالاب في الجامعات

في القلمر المصري السورى

ونسبه عدد الاناث فيهن

العام الجامعي	مجموع عدد الدالاب	عدد الذكور	عدد الاناث	النسبة
١٩٦٩/١٩٧٠	٣٦٧٦١	٣٠٢٨١	٦٤٨٠	%١٨
١٩٧٤/١٩٧٥	٦١١٥٦	٤٨٤١٠	١٢٧٤٦	%٢١
١٩٧٧/١٩٧٨	٧٨٠٦٨	٦٠٦٠٦	١٧٤٦٢	%٢٢
١٩٧٨/١٩٧٩	٨٥٤٧٤	٦٥٧٢٤	١٩٧٥٠	%٢٣

المصدر : " المرأة والتنمية " مرجع سابق ص ٢٢

نلاحظ من هذا الجدول ان نسبة الاناث بالنسبة للذكور تبقى منخفضة ولو ان اتجاهها
العام في تزايد . ولكن الحقيقة التي تترك التفاؤل خير ان وتناقص نسبة نمو عدد الاناث
في الجامعات . أعلى من ذلك ويريدنا التحقق من ذلك بحساب الجدول النسبي التالي :

الجدول رقم ٧

تطور عدد الدالاب في الجامعات من سنة الى اخرى

العام الجامعي	عدد الطلاب		عدد الذكور من الطلاب		عدد الاناث من الدالاب	
	المطلق	النسبة المئوية من سنقالي اخرى	المطلق	% من سنة الى اخرى	المطلق	% من سنة الى اخرى
١٩٧٠/١٩٦٩	٣٦٧٦١	—	٣٠٢٨١	—	٦٤٨٠	—
١٩٧٥/١٩٧٤	٦١١٥٦	١٦٦	٤٨٤١٠	١٥٩	١٢٧٤٦	١٩٦٧٠
١٩٧٧/١٩٧٦	٧٨٠٦٨	١٢٧٧٥	٦٠٦٠٦	١٢٥	١٧٤٦٢	١٢٧
١٩٧٨/١٩٧٧	٨٥٤٧٤	١٠٦٤٩	٦٥٢٢٤	١٠٨	١٩٢٥٠	١١٢

* جرى حساب هذا الجدول من قبل انباعت استنادا الى الجدول السابق بمتضم كل عدد على العدد الذي يسبقه كالتالي : $\frac{61156}{36761} = 166\%$ $\frac{78068}{61156} = 127\%$

نلاحظ من هذا الجدول ان معدل الزيادة من سنة الى اخرى هو اكبر للاناث منه للذكور وهذه ظاهرة جيدة في تعليم المرأة الجامعي رغم كون هذه الزيادة اقل بكثير من المرغوب .

والسؤال الممكن ان نظرحه الان كيف تتوزع هذه النسبة من الفتيات الجامعيات بين مختلف العلوم والفروع ؟ الجواب لهذا التساؤل معطى في الجدول رقم ٨ .

نموذج عن توزيع الطلاب والطالبات

في الأقسام الخاصة بالمنطقة في جامعات القادر العربي السوري

للعام الدراسي ١٩٧٦/١٩٧٧

اسم الكلية	المجموع	الذكور	الإناث	النسبة
الرياض	٥١٧٤	٣٣٢٤	١٨٤٠	٣٥
الهندسة	١١٦٩	٠٤٦٦	٧٠٣	٥٩
الطب الأسنان	١١٢٨	٠٨٤٥	٢٨٣	٢٦
العلوم	٣٠٤٠	١٧١٦	١٣٢٤	٤٣
الهندسة	١٠٧٧٤	٠٨٣٦	١١٦١٠	١٠٦
الهندسة المعمارية والدراسات	١١٢٢	٣٨٠٤	٣٣١	٦
الزراعة	٦٠٢٧	٣٣٢٦	٢٧٠١	٤٣
الفنون الجميلة	٠٦١٨	٣١٣٠	٣٠٤	٣٣
الآداب	٥٢٢٢٥	١٥٥١٧	٣٦٧٠٨	٦٣
العلوم	٢٢٢٢	١٨١٧	٤٠٥	١٦
التجارة	٤٢٢٦	١٦٠٣	٢٦٢٣	٢٨
الزراعة	٠٦٨٦	١٨١٠	١٠٦	١٣
الزراعة	٠٤٤٠	٣٣٤	١٠٦	٢٦
العلوم الاقتصادية	١٣٢٤	١٠٨١	٢٤٣	١٨
الآداب البيمارية	١٢٢١	١٢٢١	-	٠
المجموع	١٠٦٨٧	٦٠٦٠٦	٤٦٢٦١	٤٢

المصدر: المرأة والتنمية: مرجع سابق ص ١٣

نلاحظ من هذا الجدول ان هنالك بعض الفروع التي تستهوي المرأة اكثر من غيرها، ولاشك ان معرفة هذا التوزع ضروري لتخطيط المستقبل، فان اقبال المرأة على العلوم الاساسية التطبيقية كالطب والهندسة الميكانيكية والكهربائية والزراعة اقل من غيره رغم اننا قد بدأنا نلمس في الآونة الاخيرة تطورا في هذا المجال ، وقد تسعى المرأة الى مجالات تتطلب فترة زمنية دراسية اقل وامتاشى مع أكثر أهوائها ونفسياتها كالسكرتارية حيث بلغت النسبة في عام ١٩٧٩/١٩٧٨ للانتساب في معهد السكرتارية بدمشق ٥٦٪ اناث بالنسبة للذكور ، كما ان الاقبال على مدرسة التمريض مرتفع جدا .

الا ان اقبال المرأة على التخصص العالي ضئيل جدا ، واحصاء عدد الموفدين معيار لدى الاقبال كما نرى في الجدول التالي :

الجدول رقم (٩)

احصاء عدد الموفدين من جامعة دمشق للدراسة العليا خارج القطر

النسبة٪	اناث	ذكور	المجموع	العام
٦	١٢	١٩١	٢٠٣	١٩٧٠
٨	١٧	٢٠٤	٢٢١	١٩٧٥
١١	٠٢	١٦٨	١٨٨	١٩٧٧

المصدر : المرأة والتنمية مرجع سابق ص ١٥

- مما سبق نستطيع ان نستخلص النتائج التالية :
- ١ - ان معدلات الامية رغم ارتفاعها لدى الذكور والاناث في البلدان العربية ككل ، فان ارتفاع نسبتها في البلدان العربية بالنسبة للاناث هو أعلى بكثير .
 - ٢ - ان الاقبال على الدراسات المتخصصة الجامعية والعليا قليل جدا من قبل الاناث بالمقارنة مع الذكور وما يقال عن سوريا ينطبق على البلدان الاخرى العربية اذا لم تقل انه اسوأ .
 - ٣ - هنالك اتجاه نحو نمو وتطور التعليم بين الاناث ، وهذا ما لمستهناه في الجدول رقم (٧) وما نستطيع ان نلمسه من الجدول التالي :

الجدول رقم (١٠)

جدول نسب التسجيل المائيه الاستيعاب

سني العامين ١٩٧٠/١٩٧١-١٩٧٥/١٩٧٦

في سوريا

المرحلة	١٩٧٦/١٩٧٥			١٩٧١/١٩٧٠		
	مجموع %	اناث %	ذكور %	مجموع %	اناث %	ذكور %
الصف الاول	٨٤	٧٣	٩٤	٧٨	٦٥	٩٦
المرحلة الابتدائية	٧٨	٦٥	٩٠	٧٠	٥٤	٨٥
المرحلة الاعدادية	٥٧	٣٩	٧٥	٤٧	٢٧	٦٥
المرحلة الثانوية	٣٢	٢٠	٤٣	٢٧	١٢	٣٥

المصدر : المرأة والتنمية مرجع مسابن ص ٦ .

المصدر : المرأة والتنمية مرجع مسابن ص ٦ .

ومع هذا فان التطور غير كاف وذلك بالمقارنة مع التطور في الدول المتقدمة .

٤ - لا ضرورة للقيام بدراسة تبين العلاقة الوثيقة الموجودة بين مستويات التعليم وآثاره الايجابية في جميع ميادين الحياة : وسنترك بحث هذه النقاط الى حين معالجتنا اثر التعليم والعلاقة بينه وبين العمل ، الا اننا ننوه هنا فقط الى قصور المعطيات الاحصائية في تبيان الآثار الاجتماعية والفكرية وتغيير العادات الاستهلاكية والاعتماد على الطرق الحديثة في ادارة المنزل وتربية الاطفال وبناء جيل مفكر مبدع الناتجة عن تعليم المرأة وفتح آفاق تفكيرها ، وسنورد فقط الجدول التالي الذي يبين اثر تعليم المرأة على خصوبتها نحن الذين نعاني من نمو سكاني ذي معدلات مرتفعة جدا .

الجدول رقم ١١

متوسط عدد الأولاد المولودين لـ ١٠٠٠ امرأة متزوجة (١٩٦٩-٤٩ سنة)
بحسب مستويات التعليم لكل من الرجل والمرأة في الأردن

المجموع	جامعة	ثانوي	اعدادي	ابتدائي	* امسي %	مستوى التعليم الزوج تعليم الزوجة
٥٩٦٨ (٣١٣٥)	٥٣٠٠ (٣٠)	٥٤٤٦ (١٥٨)	٥٨٦١ (٣٣٢)	٦١٣٥ (١٤٣١)	٦٢٠٤ (١١٨٩)	* امسي %
٤٤٣١ (١٣٣٩)	٣٩٠٣ (٧٢)	٤٠٢٢ (١٤١)	٣٣٩٥ (٢٦١)	٤٨٩٢ (٦٠١)	٥٣١٤ (١٢١)	ابتدائي
٣٠١٤ (٥٠٠)	٢٨٤٠ (٩٤)	٢٦٦٦ (١٢٤)	٣٠٥٣ (٣٣)	٣٠٠٨ (١٢٩)	٢٨٥٠ (٢٠)	اعدادي
٢٧١٥ (٢٨٨)	٢٤٢٦ (١١٠)	٢٤٢٢ (٣٠٣)	٢٥٤٨ (٤٦)	٣١٢٥ (٣٢)	* * (٣٢)	ثانوي
-	٢٠٠٠ (٦٥)	* *	* *	* *	-	جامعة
٥١٠٤ (٥٢١٤)	٣٠٢٤ (٣٥٠)	٢٩٠٦ (٥٧٦)	٣٦٢٢ (٧٧٠)	٥٥٦٤ (١١٩٥)	٦٠٨٦ (١٢٢٦)	المجموع

المصدر : Population Bulletin of the United Nations Economic Commission for Western Asia-N° 13 July 1977
APaf Tech-Eandis: "Female Education and Fertility Decline in a Developing Country: the Case of Jordan ."

* تشمل العلم بالقبراءة والثانية .
* مجموعات عدد افراد من أقل من العشرين .
* الأعداد داخل الأقواس تمثل عدد الافراد في كل مجموعة (في العشرة)

٥ - لم نناقش التعليم في الريف نظرا لاننا سنفرد للمرأة الريفية
فقرة خاصة .

٣ - واقع المرأة في العمل :

للمرأة خصائص اجتماعية وبيولوجية تؤهلها للقيام ببعض الوظائف
والتخصص في بعض المجالات التي تنبع بها وتؤدي فيها دورا فعالا لذلك
فان عمالة المرأة تعتبر مهمة جدا لتحسين الانتاج ولتسريع وتأثر النمو
الاقتصادي والاجتماعي والثقافي كما انه يزج في المجتمع طاقات كبيرة من
الايدي الغير المنتجة . ومع ذلك فان نسبة قوة العمل النسائية من
مجموع الاناث في البلدان العربية لا تزال ضعيفة ولم تدخل المرأة بعد
في مجال العمل الذي يلائم خصائصها وطاقاتها ، وهذا التناسب بين
الطاقات والخصائص من جهة ونوع العمل من جهة اخرى ضروري جدا
اذ ان مطالبة حق العمل للمرأة لا يعني بتاتا زجها بشكل عشوائي في
جميع مجالات العمل دون النظر الى امكانياتها واوضاعها الخاصة وهذا
لا يقف ابدا عائقا في مساهمتها ، فالمهندس لا يستطيع ان يقوم بعمل القاضي
والعكس صحيح فالتخصص وارد في جميع مجالات الحياة ، الا ان هذا
التخصص يتطلب وضع سياسات حكيمة ومخططة للرعاية وواقع المرأة
في العمل وتطلعاتها ومجالات نبوغها اكثر مما يمكن .

وتتجلى اهمية مساهمة المرأة في البناء الاقتصادي والاجتماعي
لتحقيق التنمية في :

١ - ازدياد الدخل الوطني وبالتالي زيادة التراكم الراسمالي
الضروري لانجاح برامج التنمية .

٢ - التقليل الى حد كبير من نسبة السكان الذين يعيشون
كمستهلكين فقط ، اي عالة على المنتجين ، وبذلك تزداد نسبة الراسمال
الموجه الى البناء على حساب الراسمال المستهلك من الدخل القومي .

٣ - رفع انتاجية العمل الاجتماعي وهي الركن الاساسي لتحقيق التنمية وقد تنبعت الى هذه الحقيقة جميع البلدان المتقدمة وزجت بذلك النساء في العمل ، وان الدول النامية تسعى الى زج الطاقة النسائية في العمل المنتج ولكن يجب ان تكرر ان هذا الامر يستلزم بيانات احصائية دقيقة للتعرف على الطاقات البشرية المتوفرة لاستخدامها استخداما صحيحا وبصورة عقلانية دون احداث خلل او عدم توازن في تركيب المجتمع اذ لا نستطيع نقل المرأة من المنزل الى العمل دون التخطيط لذلك من عدة جهات :

١ - تهيئة المرأة عمليا واعلاميا فالعمل قبل كل شيء مسؤولية يجب ان يحرر المرأة من تبعيتها لكل ما هو بال : عادات قديمة او ايضا ظواهر مدنية حديثة زائفة (السلوك الاستهلاكي غير الواعي - التقليد في اللباس والعادات الخ ...) ، ويخلق منها شخصية متكاملة منتجة متميزة قادرة على تحدي مشاكل الحياة مع الحفاظ على كرامتها وزيادة تمسكها بالعائلة والمنزل والاولاد لاسيما وانها تشعر انها تشارك في عملية البناء هذه .

٢ - تهيئة الظروف العائلية المواتية بشكل نحافظ على التركيب العائلي السليم ونضمن الاستقرار والرعاية للاولاد .

٣ - تهيئة فرص العمل المناسبة للمرأة :

وان دخول المرأة معترك العمل باسس علمية صحيحة سوف يكون له اثر حضاري وثقافي ينتقل من خلالها الى الاجيال القادمة التي هي عماد البلاد في التنمية الاقتصادية والاجتماعية لانها سوف تعلم الاجيال القادمة انماط جديدة للحياة .

واذا اردنا ان نأخذ فكرة عن مدى مساهمة المرأة في العمل في بعض الدول العربية لرأينا ان نسبة مساهمتها مقارئة بالذكور منخفضة كما يظهر في الجدول رقم ١٢ .

الجدول رقم ١٢

مكثى مساعمة المرأة في القوة العاملة

لمعظم الدول العربية عام ١٩٧٥

البلد	معدلات العمالة %		نسبة الإناث في قبة العمل %
	ذكور	إناث	
العراق	٤٧٤	٢٢	٤٢
الأردن	٤٤٤	٣٠	٦٠
لبنان	٢٢١	٢٦	١٨٠٤
البحرين المعروفة	٥٠١	٢٦	٤٧
اليمن	٥٣٦	٢٤	٤٢
اليمن الديمقراطية	٤٦٨	٢٧	٥٠
المعدل العالمي	٤٧٩	٣٨	٧١

المصدر: I.L.O : Labour Force Estimates and Projections: 1950 - 2000 Geneva 1977

وهذه المعدلات المنخفضة هي من سمات الدول النامية بصورة عامة والعربية بصورة خاصة مقارنة مع بقية دول العالم كما يظهر من الجدول الآتي .

الجدول رقم ١٣

عدد النساء العاملات في بلاد آسيا ونسبتهن
الى مجموع عدد الأناث والى مجموع قوة العمل
عام ١٩٧٥

النسبة النسبية النسبة من مجموع قوة العمل	النسبة المئوية		العدد بالآلاف	الأناث بالآلاف	البلد
	بالأناث سنة فأكفأ	مجموع الأناث			
٤٧٢	٢٧٧	٦٢٢	١١٨	٥٤٤١	إيران
٦٠	٥٥٣	٦٠	٣٦	١٣١١	الأردن
١٨٤٤	١٥٥٣	٩٦	١٣٧	١٤٢٥	ليبنان
٤٧٨	٤١٧	٢٥٦	١١٣	٤٤٣١	العربية السعودية
٤٩٣	٤٠	٦٥	٨١	٣٢٩٥	تايبين
٥١	٤٦	٢٧	٢٢	٨٢١	اليمين الديمقراطية
٨١	١٠٠	٥١	٢٥	٤٩٢	الكويت
١١٧٢	٤٢	٦٠	٢١٢	٢٥٤٩	ج.ع.س
٣٤٣	٤٤٨	٢٩٢	٣٢٢٤٦٦	١١٠٦٠٩٤	آسيا
٣٥٠	٤٣٢	٢٩١	٥٧٥٧٠٥	١٩٨٠٩٦٥	العالم

المصدر: ILO: Labour Force estimates and Projections: 1950-2000 Vol. I: Asia (Geneva, 1977)

وإذا كانت هذه النسب قد تطورت بعض الشيء في بعض البلدان العربية كالكويت مثلا نظرا للنهضة الصناعية التي رافقتها كما نلاحظ في الجدول رقم ١٤ فإنها بصورة عامة ما زالت تسير بوتائر ضعيفة جدا .

الجدول رقم ١٤

تدابير مانحة القوة العاملة نسبي بعض الدول العربية

المجموع	انك	ذكور	السنة	البلدان
٢٢٠٩	٢٠٦	٤٢٠٤	١٩٦٦	الأردن
٢٢٠١	٢٠٦	٤٣٠١	١٩٧١	
٢٢٠٢	٢٠٠	٤٤٠٤	١٩٧٥	
٢٢٠٧	٠٠٤	٤٧٠٤	١٩٦٦	الكويت
٢٢٠٤	٠٢٥	٥٢٠٠	١٩٧٠	
٢٢٠٥	٠١٥	٤٧٠٩	١٩٧٥	
٢٢٠٢	٠٤٥	٤٦٠٠	١٩٦٠	سوريا
٢٢٠٨	٠٥٥	٤٢٠٧	١٩٧٠	
٢٢٠٦	٠٦٠	٤٥٠٢	١٩٧٥	
٢٢٠٩	٠٢٢	٥١٠٢	١٩٦٦	مصر العربية
٢٢٠٦	٠٣٠	٥٠٠٨	١٩٧٢	
٢٢٠٥	٠٤١	٥٠٠٤	١٩٧٥	

International Labour Office, Yearbook of Labour Statistics, Geneva, 1966 and 1978 المصدر :

وإذا أردنا أن نحلل أسباب هذا التقصير في مواكبة التطور الطبيعي فنرى أن هنالك عوامل عديدة تتحكم في موضوع مساهمة المرأة في الأنشطة الاقتصادية المختلفة فاليئة المحافظة والاعراف التي تحيط بالمرأة في مجتمعنا تجد من مساهمة المرأة في العمل ، وكذلك فإن زواج المرأة يجعلها أقل اقداًما على العمل في مجتمعنا الذي لا تتوفر فيه الشروط الكافية التي تخفف على المرأة بعض الواجبات البيتية مثل رعاية الاطفال ودور الحضانه والخدمات المنزلية .

وتجدر الملاحظة هنا الى ان الاحصائيات التي تبين مدى العلاقة الموجودة بين توفر هذه الخدمات وامكانية الزيادة في مساهمة المرأة في العمل خارج المنزل غير متوفرة ، كما انه لا توجد اية دراسة تقوم على حصر حاجات النساء العاملات من هذه الخدمة .

فدور الحضانه انشئت بعد ان شعر الجميع بحاجتها الماسة ومع ذلك فاننا نعلم ان اعدادها غير كافية ، فالتخطيط المسبق لهذه الخدمات غير متوفر كما ان البيانات والاحصائيات في هذا المجال قاصرة جدا على مد المخططين بالاسس التي سيعتمدونها في هذا المجال .

لهذه الاسباب نرى ان مساهمة المرأة تتأثر بعاملين رئيسيين ، من جملة العوامل الاخرى ، وهما الحالة الزوجية والحالة التعليمية كما يظهر في الجدولين رقم ١٥ - ١٦ بالنسبة لسوريا .

الجدول رقم ١٥

نسبة مساهمة الاناث في القوة العاملة

حسب الحالة الزوجية

عام ١٩٦٠ و ١٩٧٠ في سوريا

الحالة الزوجية	مجموع الاناث		المشتغلات		النسبة	
	١٩٦٠	١٩٧٠	١٩٦٠	١٩٧٠	١٩٦٠	١٩٧٠
متزوجة	١٥٤٠١	٣١٨	٢٦٨	٥٤٠٥	١٧٠١	١٧٠١
متزوجة	٧٧٣٠١	١٠٣٤٢	٤٧٣٣	٥٩٠٨	٦٠١	٥٠٨
متعلقة	٩٢	١٢٦	١٣	٢٢	١٤٧	١٧٥
ارملة	١٣٨٥	١٦٤٥	٧٠	١٥٧	٥١	٩٣
المجموع	١٠٧٥١٤	٦٥٢٩٠٦	٨٢٤	١٣١٧	٦٠٦	٢٠٦

المصدر : تعداد السكان ١٩٦٠ و ١٩٧٠

بينما تبلغ النسبة لكل من العازبات المملقات ١٧٪ تقريبا تنخفض الى ٠٨ و ٣ لكل من المتزوجات وارامل ويحزى ذلك الى مسؤولياتهن المعنوية ورعاية اطفالهن .

الجدول رقم ١٦

عدد ونسبة مساهمة الأثاث نسبي
التشاط الاقتصادي حسب الحالة السكنية
في سوريا

الترتيب	نشاط النشاط الاقتصادي	مجموع الأثاث ١٠ سنوات تأثير	النسبة المئوية
٣٠٠٧	١٢٨١٩٥	٤١٧٢٢٧	أساسي
٣٦	١٠٣٢٤	٢٨١٢٥٩	تعليم
٤٧	٦٠٣١	١٤٢٦٠٩	ابتدائي
٤٤	٢٨١٤	٤٠٤٣٦	استعداد
٢٦٤	٤٩٤٤	١٨٧٥٠	وتنسيق
٦٢٣	٧١٧٦	٧٦٩٠	ثقفي وسهلي
٨٢٩	١٤٦٦	١٧٤٧	حامل شهادة التعليم الابتدائي والثانوي
٨٢٩	١١٣٤	١٢٦٨	حامل شهادات التعليم الابتدائي والثانوي والقانونية
٦٦٤	٢٥٧	٣٨٧	حامل شهادات المرحوم الابتدائية
٨٨٣	٢٤٣	٢٧٥	حامل شهادات المرحوم المهنية والفنية
٨٢٥	٢٣٥	٢٧٠	حامل شهادات المرحوم الجامعية أو ما يعادلها
٩٢٧	٣٠	٣١	حامل شهادات التعليم الزامية
٩٠٥	١٠٨	١٢٠	دكتوراه
٩	٩	١٨٦	غير مهني
٤٦٤	١٦٣٨٦١	١٩١٧٢٢٥	المجموع الكلي

العدد و النسبة المئوية لسكان سوريا ١٩٧٥

هذا الجدول يظهر بوضوح الارتباط الوثيق الموجود بين مستويات التعليم ومحاولة النشاط الاقتصادي ، وبين ان تعلم المرأة يدفعها الى ميدان العمل ، فكلما ارتفعت درجة تعليمها ادى ذلك الى جعلها عنصرا فعالا في المجتمع نتيجة لزيادة وعيها . ويوضح لنا الجدول بان ٨٢٧٪ من جملة النساء الحاصلات على الشهادة الجامعية يساهمن في النشاط الاقتصادي و ٩٣٣٪ من جملة النساء الحاصلات على المؤهل الفني او المهني يساهمن في النشاط الاقتصادي ، وتنخفض هذه النسبة الى ٢٦٤ عند النساء الحاصلات على الشهادة الثانوية العامة وتصل الى ٢٦ عند النساء اللواتي .

ان هذه الحقيقة على درجة بالغة من الاهمية ، فالحل الوحيد لزوج النساء في ميدان العمل هو التعليم الذي يرفع من درجة كفاءتهن وعطائهن ومردودهن .

لن نستطرد في سرد الوقائع التي تظهر لنا ايضا مساهمة المرأة في تصوير واقع المرأة في العمل .

ان المعطيات الاحصائية قادرة ان تظهر لنا ايضا مدى مساهمة المرأة في كل قطاع من القطاعات المختلفة للنشاطات الاقتصادية وتحدد لنا بذلك انواع الاعمال التي تستهوي المرأة اكثر من غيرها . فمثلا في سوريا ان عمل المرأة يتركز بصورة رئيسية في مجال التعليم والخدمات ومن ثم الزراعة ، فالاعمال المكتبية ، وهذا التخصص يساعدنا في رسم الخطط المستقبلية .

قبل ان نختم هذه الفقرة لواقع المرأة في العمل يجب التنويه الى نقطتين هامتين في هذا المجال .

١ - ان العمل رغم اهميته القصوى بالنسبة للمرأة ومردوده بالنسبة للاقتصاد ، فقد لا يعود بالنفع المادي على صاحبه ، فمثلا في سوريا

عام ١٩٧٠ بلغت نسبة النساء اللواتي يعملن بدون أجر ٤٠٪ من مجموع النساء العاملات ، وهذا الواقع قد يدل على سيادة بعض العادات الاجتماعية التي وان دفعت المرأة الى العمل فانها لا تعتقها من واقعها الاجتماعي ولا تحررها من تبعيتها الاقتصادية . واكثر ما تتركز هذه الظاهرة في الارياف . وللأسف فالمعطيات الاحصائية المتوفرة قلما تعكس هذا الواقع بحقيقته الكاملة .

٢ - ان خروج الزوجة الى العمل ولد بعض المشكلات ، ولكن هنا ايضا يوجد قصور كبير في المعطيات الاحصائية لتصوير هذا الواقع وتحديد المشكلات بالارقام ليتسنى للمخططين معالجتها اذ حسب رأينا الغاية من عمل المرأة هو النمو والتطور من جميع اوجهه ، ومن غير المنطق ان يكون عمل المرأة سببا في تفكيك رباط الاسرة او اهنال تربية الاطفال او حتى على حساب صحة الزوجين او اوقات فراغهم .

فقد اثبتت دراسة اجتماعية ميدانية عن المشكلات الناتجة عن خروج الزوجة الى العمل قام بها المكتب التنفيذي للاتحاد العام النسائي في سوريا بالاشتراك مع وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل بان نزول المرأة معترك العمل والمساهمة بالنشاط الاجتماعي والاقتصادي والسياسي العام قد حقق مكسبا كبيرا في تكوين اتجاهات جديدة في تحرير نصف المجتمع من الجمود ودفعه في طريق الانتاج والمشاركة لكن مجموعة كبيرة من المشكلات اخذت تدخل الى معظم البيوت من خلال ارهاق المرأة بعملين معا ولعدم توفر الخدمات التي تعتق المرأة من بعض مسؤولياتها من جهة ولعدم قبول الأزواج بمساعدة زوجاتهم من جهة اخرى اذ لم يتولد قناعة لدى الجميع بان الحياة اساسها المشاركة .

وقد حددت اغراض البحث* ب :

(*) تزيد من الايضاح راجع المشكلات الناتجة عن خروج الزوجة الى العمل الكتاب الاول
الاتحاد العام النسائي - دمشق ١٩٧٨ .

١ - الكشف عن المشكلات الاسرية ، وتحديد ابعادها وآثارها على حياة الاسرة واستقرارها من خلال مايعطيه البحث من معلومات وبيانات ومعطيات احصائية .

٢ - الوصول الى نتائج وعلان مقترحات .

وفي الحقيقة ان مثل هذه الدراسات نفتقر اليها كثيرا رغم اهميتها اذ تلقي اضاءة على مقومات جديدة لعمل المرأة نذكر على سبيل المثال لا الحصر المعطيات التالية :

٦٨٥٧٪ من الزوجات العاملات يقضين العطل في البيت للقيام بالاعمال المنزلية .

٥٤٨١٪ من الاسر التي لديها اولاد تغطي الزوجة غيابها عن العمل بسبب مرض طفلها باجازات ادارية و١٠.٥٪ باجازة بدون راتب .

٢٩٨٢٪ من العاملات التي جرت الدراسة عليهن ينفردن بكافة الخدمات المنزلية داخل الاسرة . وهذا يعني ان ثلث الزوجات العاملات تقريبا مسؤولات عن تأمين كافة الخدمات المنزلية بمفردهن دون اية مساعدة .

٤٧٥٪ من الازواج يساعدون زوجاتهم العاملات بالاعمال المنزلية التي تعتبر من اختصاص رب الاسرة (شراء الحاجيات ، ومساعدة الاولاد في مسؤولياتهم المدرسية) .

النتائج الممكن استخلاصها من دراسة المرأة في العمل تنحصر في النقاط التالية :

- ان مساهمة المرأة في العمل يبقى ضعيفا رغم الجهود المبذولة واذا اردنا زيادة مساهمتها فيجب التخطيط من اجل تحقيق هذا في ثلاثة اتجاهات :

أ - زيادة تعليم المرأة

- ب - تأمين فرص العمل التي تتناسب وامكانياتها وظروفها .
 ج - العمل على تأمين الخدمات التي تحرر المرأة من أعبائها المتراكمة في المنزل .

٤ - واقع المرأة الريفية :

أن المعطيات الاحصائية تظهر اهميتها خاص في دراسة فئة له أوضاعها الخاصة وظروفها الشاقة والصعبة لاسيما ان لها تأثير كبير على التنمية الاقتصادية هذه الفئة هي عبارة عن فئة النساء الريفيات ، اننا اذ نريد ان نظهر واقعها الذي هو بصورة عامة واقع اليم ، فاننا نهدف من هذا ، التأكيد على أهمية دراسة اوضاعها بالارقام ، والتخطيط لتطويرها ، وتنمية القطاع الزراعي الذي يعتبر من أهم جميع القطاعات في الاقطار العربية . واليك بعض الارقام كما وردت في البحث الذي اعده الاتحاد النسائي في دمشق « المرأة والتنمية » عن سوريا .

أ - التركيب السكاني :

٧٨٪ من النساء في الريف هن في أعمار تتراوح بين ١٥/٥٩ سنة بينما اللواتي يزيد عمرهن عن /٦٠/ فأكثر لا يشكلن سوى ٤٪ وهذا معناه ان المرأة الريفية قوة بشرية فعالة تسهم في العمل والانتاج وفي بناء المجتمع العربي .

وقد اثبتت نتائج البحث في مجالات التعليم - العمل - التشريع - الخدمات عام ١٩٧٩ ان ٩٣٪ من القوة العاملة النسائية في الريف هن مستغلات . وغالبا ما يكون العمل في المجال الزراعي .

ب - التركيب التعليمي :

ان نسبة الامية في الاوساط النسائية الريفية ٧٦٪ بشكل عام وهي ٦١٪ في فئة السن ١٥ - ١٩ و ٩١٪ في كل من فئات السن ٣٠ - ٣٤ - ٣٥ - ٣٩ . وتؤكد على ما جاء في البحث بأن هذه النسبة مؤثر خطر لاوضاع المرأة الريفية تظهر آثاره واضحة في جميع المجالات . الامر الذي يدفع المسؤولين الى الاهتمام الجدي بمحو الامية للنساء الريفيات بوضع برامج تنفيذية تناسب والواقع وتتفق مع الاحتياجات .

ج - التركيب الزواجي :

يتميز الزواج في الريف بظاهرتين أساسيتين :

١ - ظاهرة الزواج المبكر : ٣٪ من المتزوجات تتراوح اعمارهن بين ال ١٠ - ١٤ سنة .

٢ - غلاء المهور : ٨١٪ من الفتيات بين العمر ١٥ - ١٩ سنة .

و ٣٧٪ من الفتيات بين العمر ٢٠ - ٢٤ سنة غير متزوجات بسبب غلاء المهور .

د - المرأة الريفية والعمل :

ان العمل الزراعي للمرأة الريفية هو جزء لا يتجزأ من عملها اليومي كربة منزل ف ٩٦٫٨٧٪ من نساء الريف المشتغلات يعملن بالزراعة والرعي ، ولكن قلما تستقل المرأة الريفية ماديا اذ هنالك ٨٢٫١٩٪ من النساء الريفيات ليس لهن اي دخل الوسائل الصحية والخدمات ووسائل الترفيه والتسلية .

«الجدولان رقم ١٧ ورقم ١٨ يبينان توزيع المشتغلين الريفيين في سوريا حسب الحالة التعليمية والعملية .

جدول رقم ١٧

توزيع المشتغلين الريفيين حسب الحالة التعليمية في سوريا
عام ١٩٧٥

اجمالي الجنس %	متعلم او حاصل على مؤهل %	أسي %	الحالة التعليمية
١٠٠	٤٧٥١	٥٢٤٩	ذكر
١٠٠	٦١٤	٩٣٨٦	انثى
١٠٠	٣٥٤٦	٦٤٥٤	المجموع

الصدر : بحث العينة السكانية لعام ١٩٧٥ .

جدول رقم ١٨

توزيع المشتغلين الريفيين حسب الجنس والحالة العملية في سوريا
لعام ١٩٧٥

المجموع الجنس %	يحمل لدى ذويه أولدى الخبير بدون أجر %	يحمل بأجر نقدي او عيني %	يحمل لحسابه %	يحمل عمل %	الحالة العملية
١٠٠	١٦٨٣	٢٧٤١	٤٩٣١	٦٤٧	ذكر
١٠٠	٨٢١٩	١١٨٦	٥٦٥	٥٣١	انثى
١٠٠	٣٥٨٧	٢٢٨٧	٣٦٥٨	٤٦٧	المجموع

الصدر : نتائج بحث العينة السكانية لعام ١٩٧٥ .

النتائج يمكن ان نستخلصها عن وضع المرأة في الريف تتخص في النقاط التالية :

النتائج الممكن أن نستخلصها عن وضع المرأة في الريف تتلخص في النقاط التالية :

- ١ - ان المرأة الريفية تساهم في التنمية بشكل ملموس .
- ٢ - مردود مساهمة المرأة الريفية يبقى منخفضا نتيجة مستواها العلمي والعملية .
- ٣ - قلما تعمل المرأة الريفية بأجر اللهم اذا كانت في الوظائف الادارية معلمة او غيره ... التي في الحقيقة لا تشكل الانسبة ضئيلة من مجموع العاملات .

نستطيع الاسترسال في دراسة واقع المرأة ممثلا بمعطيات احصائية: ارقاما ، او نسبا ، معدلات تطور ونمو ، من نواح اخرى متعددة ، الا اننا نجد انه من المهم ان نعالج الى ما حققته المعطيات الاحصائية في مجال التحليل والتنبؤ . ونسائل فيما اذا كانت المعطيات الاحصائية تفي هذا الغرض .

حدود المعطيات الاحصائية في مجال التخطيط لمساهمة المرأة في التنمية :

سبق وقلنا ان اهمية المعطيات الاحصائية تتحقق في تصوير الواقع ولكن ما فائدة تصوير الواقع اذا لم يساعدنا الى الانطلاق نحو المستقبل والتخطيط له ، وعلى ما نظن انه لن نكون متشائمين اذا قلنا ان العقبات وقصور المعطيات في هذا المجال الكبير فقلما سعت دراسة او بحث الى تقديرات وتنبؤات خاصة بالمرأة : هنالك بعض التقديرات المتعلقة بنمو السكان عامة : مثلا توقعات السكان لعام ٢٠٠٠ كما ان هنالك بعض التوقعات لتطور قوة العمل بشكل اجمالي وعام ، ولكن هل يكفي هذا ؟

ان صورة المرأة التي تعكسها المعطيات الاحصائية الموجودة قد عبرت عن واقع معين للمرأة نريد تغييره وتطويره لنتحكم في سيره واتجاهه : ولكن هل يمكننا ذلك اذا لم يكن لدينا صورة للمرأة كما نريد ان تكون وكما نريدها ان تكون في المستقبل . ولنتساءل ما هي الامكانيات المتوفرة في هذا المجال ؟ وما هو السبيل الى ذلك ؟

وهنا يظهر بوضوح النقص في البيانات والقصور في المعطيات الاحصائية .

سبق وان ذكرنا في نهاية كل فقرة ماهية المعطيات الاحصائية الغير متوفرة فالسعي الى ايجادها يعتبر ضرورة نتمنى تحقيقها بالاضافة الى الملاحظات والمقترحات التالية :

١ - ان الاجهزة والادارات الاحصائية قلما تسعى الى تصنيف احصائياتها في مختلف المستويات والقطاعات على اساس النوع (ذكورا واناثا) ولو فعلت لساعدت كثيرا في تأمين الوسائل لتخطيط افضل في مجال قوة العمل النسائية .

٢ - نقص البيانات الصحية والطبية الخاصة بالمرأة رغم اهميتها وضرورتها .

٣ - ليس لدينا اية صورة رقمية لوضع المرأة في المستقبل وليس هنالك خطط من اهدافها المحددة بشكل دقيق تحقيق مستوى معين من عمل المرأة مثلا ، او تعليمها خلال فترة معينة من الزمن اي ان الصورة المستقبلية للمرأة غير واضحة وغير محددة بالارقام والاعداد .

٤ - ليس هنالك اي مسح يحدد المشاريع والبدائل والمجالات الجديدة التي يمكن ايجادها لزيادة معدلات مشاركة المرأة في قوة العمل .

٥ - ليس هنالك تشجيع كاف للمرأة بالتدريب على مجالات البحوث وجمع المعلومات . ويتأكد أهمية دور المرأة الباحثة في الدراسات الميدانية خاصة الريفية منها نظرا لتفهمها وقربها من مشاكل المرأة بصورة عامة وكفاءتها كعنصر اتصال بالاسرة وجمع المعلومات منها .

بايجاز : أن المعطيات الإحصائية في الدول العربية عامة وفي سورية خاصة قد ساعدت كخطوة أولية على تصوير وضع المرأة ، إلا أن الصورة لم تكتمل بعد ، وأن جميع الدول العربية تسعى إلى معالجة ذلك . ومن هذا المنطلق فهي بحاجة ماسة إلى إحصائيين في هذا المجال .



المؤلف : د. محمد عبد الحليم عبد الرحمن ، أستاذ الإحصاء في جامعة دمشق ، ورئيس قسم الإحصاء في المعهد القومي للإحصاء في سورية .
 المؤلف : د. محمد عبد الحليم عبد الرحمن ، أستاذ الإحصاء في جامعة دمشق ، ورئيس قسم الإحصاء في المعهد القومي للإحصاء في سورية .
 المؤلف : د. محمد عبد الحليم عبد الرحمن ، أستاذ الإحصاء في جامعة دمشق ، ورئيس قسم الإحصاء في المعهد القومي للإحصاء في سورية .
 المؤلف : د. محمد عبد الحليم عبد الرحمن ، أستاذ الإحصاء في جامعة دمشق ، ورئيس قسم الإحصاء في المعهد القومي للإحصاء في سورية .
 المؤلف : د. محمد عبد الحليم عبد الرحمن ، أستاذ الإحصاء في جامعة دمشق ، ورئيس قسم الإحصاء في المعهد القومي للإحصاء في سورية .

هجرة الكفاءات العربية

أسباب - نتائج
مقترحات للحل

على العيد

تعتبر ظاهرة الهجرة احد اهم العوامل المؤثرة ،
على تطور الاقتصاد الوطني وعلى التركيب الهيكلي
للسكان والقوى البشرية ، وتكتسب هذه الظاهرة ،
اهمية متزايدة ، في وقتنا الحاضر نظرا لتزايد عدد
المهاجرين وخاصة من الكوادر العلمية المتخصصة واثر
ذلك على خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية بالنسبة
للدول النامية وحرمان هذه الدول الاستفادة من خبراتهم

ومؤهلاتهم بالإضافة إلى النتائج المترتبة عن الهجرة الداخلية والمتمثلة بالنزوح من الريف إلى المدينة وما يترتب عليها من نتائج متعددة الجوانب، بعضها ايجابي وبعضها الآخر سلبي ، وهذا ما نراه في الدول النامية التي تتصف حركة القوة العاملة بها بالعشوائية والبعد عن التخطيط . والدراسة المتعلقة بالهجرة تعني الانتقال من أجل العمل إلى بلدان متقدمة صناعية سواء للإقامة المؤقتة أو الدائمة ، ولا يدخل في عداد ذلك الانتقال بين الدول العربية ، أو الهجرة النادرة باتجاه البلدان النامية الأخرى أو الهجرة لأسباب سياسية . وتكاد الدراسات تجمع على تحديد فئة المهاجرين كما يلي :

- ١ - ذوي المهن الحرة كالاطباء والمهندسين والاقتصاديين والمحامين وغيرهم .
- ٢ - الفنيون الذين يشكلون حلقة الاتصال بين المهندسين والعمال المهرة .
- ٣ - العمال المشابهون للفنيين الذين هم العمال المهرة المكتسبون خبرة متخصصة في مجالات حيوية في الصناعة .

والفكرة السائدة عن هجرة الكفاءات هي أن هذه الهجرة تمثل عقبة في طريق تنمية البلدان النامية بما فيها بلدان الوطن العربي . ومن هنا فلدى معالجة هذه المشكلة التي يمكن أن نصفها مبدئياً بالخطيرة ، فإن دراسة الظواهر والعوامل التي تسهم في هجرة هذه الكفاءات إنما تمثل نقطة بداية سليمة في وضع برامج فعالة للقوى البشرية كما أنها تنطوي على عملية دقيقة في بناء المؤسسات العربية العاملة في مجالي البحث والتعليم العالي وإذا كانت هجرة الكفاءات تنتقص من أهمية قضايا أساسية أخرى من قبيل الاستقلال والتبعية والتخلف فإن التركيز على هذه المتغيرات المحورية إنما يبرز هجرة الكفاءات بوصفها ظاهرة فرعية ملازمة لهياكل أخرى قائمة على التبعية والجمود .

ان احصاءات هجرة الكفاءات العربية والتي تعتبر جزءا من الحركة العامة لهجرة الكفاءات من الدول النامية ، يشوبها قصور واضح ويبدو أن هذا القصور متعمد من جانب الدول المتقدمة المستقبلية للكفاءات ، حيث تتجاهل هذه الدول نشر البيانات الواضحة عن حركة هجرة الكفاءات والتجنس اليها ، على الرغم من وجود نظم احصائية بالغة الدقة لدى هذه الدول في هذا المجال (١) .

اسباب هجرة الكفاءات العربية :

في اطار المناقشة العامة لهجرة الكفاءات العربية ارى ضرورة تناول الموضوع سواء لتفهم اسباب الهجرة ام لاقتراح الحلول ، في اطار واسع يتجاوز العوامل الشخصية ، ذلك أن قرار الهجرة لا يتخذ على المستوى الشخصي كاختيار حر ينسجم مع حق الانسان في الهجرة ، أو العمل حيثما شاء ، لكن هجرة الكفاءات تمثل احدى افرازات البنية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتكنولوجية ، وتتشابك العوامل لتجتمع في سعي مباح للهجرة . ، وهي بذلك مؤشر لفشل خطط تنمية الانسان العربي اقتصاديا واجتماعيا وعلامة استسلام أمام عوامل تهميش الانسان صانع التنمية وهدفها .

فالتجربة التي يعيشها المثقف العربي تشتمل على عنصر الغربة والضياع في شتى المجالات تلك الغربة التي يعيشها في كلتا الحالتين سواء استمر في وطنه اذ يكون حاملا لمعرفة لا تكتمل بها شخصيته نتيجة لميزات مجتمعه . او هاجر ، وهنا يستوعب من طرف المجتمع المهيمن الذي يحتوي على ذاتيته مما يؤدي الى الغبن الثقافي .

إذا الاغتراب هنا هو حالة هيكلية متولدة من خصائص المجتمع العربي في علاقته مع الامبريالية الثقافية (٢) والحالة هذه ، تولد في الواقع ثلاثة انواع من ردود الفعل للمثقف العربي اذا لم يكن مهاجرا :

— فهناك حالة العجز وانتفاء القدرة على العمل والتغيير والانكباب في الاستهلاك وتلك اشد حالات الاغتراب .

— وهناك تبني الايدولوجية القومية على اساس انها تعبر عن رادة السيطرة على التكنولوجيا في سبيل الحفاظ على الذاتية والكرامة القومية .

— وهناك تبني السلفية والتنكر القومي للتقدم بما فيه من انماط تكنولوجية وثقافية ، وهي أيضا تشكل نوعا من الاغتراب لانها تنتكر للتاريخ .

وهكذا تخلق ثنائية ثقافية مبنية على ثنائية اقتصادية تعكس الهيمنة المولدة للاغتراب الثقافي وهذه بدورها المنعكسة من طبيعة المجتمع العربي .

والهجرة اذن هي الامكانية من الامكانية المتصلة في وضع الاغتراب الثقافي الذي تولده خصائص المجتمع العربي في علاقته مع الامبريالية .

ولا شك في ان الكشف عن الابعاد المختلفة لظاهرة هجرة الكفاءات العربية الامر على جانب من الاهمية لاكثر من سبب . اذ من المنتظر ان يتخرج بضعة ملايين من المواطنين العرب في الجامعات العربية فيما بين عامي ١٩٨١ - ٢٠٠٠ ومن ثم فان المشكلات التي نواجهها حاليا في استيعاب الكفاءات العالية وتوزيعها واستخدامها ، مشكلات محورية بالنسبة لرسم سياسات اكثر فعالية للقوى البشرية والتعليم . وسوف

تستمر البلدان التي تفتقر في الوقت الحالي للكفاءات العالية في استخدام هذه الكفاءات من البلدان التي لديها فائض منها .

وتؤكد الدراسات الخاصة بهجرة الكفاءات ، العلاقة الوثيقة بين التعليم والتدريب في الدول المتقدمة وهجرة الكفاءات . فالدارسون في الخارج هم أكثر المرشحين للهجرة سواء بعد اتمام دراستهم أو تدريبهم مباشرة أو بعد عودتهم بمدة وجيزة .

وتشير بعض الاحصاءات ان نسبة ٦٠٪ من الدارسين في البلدان الغربية يهاجرون كما ان نسبة ١٥٪ من الدارسين في الدول الاشتراكية أو الدول النامية يهاجرون . ووفقا لحسابات اجراها احد الباحثين العرب وطرحها في ندوة « إكوا » « اللجنة الاقتصادية لدول غربي آسيا التابعة للأمم المتحدة » فقد بلغت النسبة المئوية لهجرة الاطباء والمهندسين والعلماء العرب الى أوروبا والولايات المتحدة الامريكية حتى سنة ١٩٧٦ كما يلي :

٥٠٪ من الاطباء والبالغ عددهم ٢٤٠٠٠ طبيب .

٢٣٪ من المهندسين والبالغ عددهم ١٧٠٠٠ مهندس .

١٥٪ من العلماء العرب المشتغلين بالعلوم الطبيعية والبالغ عددهم ٧٥٠٠ عالم .

ان المصدر الرئيسي للعلماء والمهندسين المهاجرين الى الولايات المتحدة الامريكية من الاقطار العربية هو مصر حيث هاجر منها نحو كلتي المجموع . وهناك مصادر رئيسية اخرى هي العراق ولبنان ويقدم كل منهما نسبة ١٠٪ من المجموع وسورية والاردن ويقدم كل منهما أكثر من ٥٪ من المجموع . وفلسطين التي أسهمت بنحو ٤٥٪ من المجموع .

وقد تجاوز متوسط عدد العلماء الذين دخلوا الولايات المتحدة كمهاجرين / ٤٨٠ / شخصا في السنة في عام ١٩٨٠ أي بزيادة تبلغ

حوالي عشرة امثال من ٦٢١ مهاجرا في عام ١٩٦٦ الى ١٢١٥ مهاجرا في عام ١٩٧٠ . وقد انخفض هذا العدد بعد ذلك الى ٢٧١ مهاجرا في عام ١٩٧٤ وعاد وارتفع قليلا الى اكثر من ٤٠٠ مهاجر في عام ١٩٧٧ ، وظهرت هذه الاتجاهات في كل الاقطار العربية التي تعتبر مصدرة رئيسية للعلماء والمهندسين المهاجرين .

تعكس الزيادة البطيئة ، لكن المستمرة ، في هجرة العلماء والمهندسين العرب زيادات مشابهة في عدد العلماء والمهندسين الذين هاجروا الى الولايات المتحدة من جميع البلدان عربية كانت ام غير عربية (١) . وفي نفس الفترة من عام ١٩٧٤ - ١٩٧٧ بلغت الزيادة في هجرة العلماء والمهندسين من جميع البلدان الى الولايات المتحدة نحو ٢٠٪ ولكنها بلغت ٥٠٪ من الاقطار العربية ، وتعكس نسبة الثلاثين بالمائة / ٣٠٪ / الاضافية وجود عوامل اقليمية تزيد من حصة العلماء والمهندسين المهاجرين من الاقطار العربية الى الولايات المتحدة . لقد هاجر من مصر والعراق ولبنان وسورية والاردن وفلسطين حوالي ٩٥٪ من العلماء والمهندسين المولودين في هذه الاقطار ما بين عامي ١٩٦٦ - ١٩٧٦ . وقد ارتفعت حصة المهاجرين المصريين بين عامي ١٩٧٦ - ١٩٨٠ من ٥٣٪ الى نحو ٧٥٪ . وهناك عدد غير معروف من العلماء والمهندسين العرب الموجودين حاليا في الولايات المتحدة الامريكية بصفة غير مهاجرين وهم يعتزمون على الارجح الحصول على صفة مهاجرين ، او انهم يعتزمون البقاء فيها بصورة دائمة دون تغيير وضعهم كغير مهاجرين ، فيصبحون غرباء غير شرعيين ، والجدير بالذكر ان عدد المهاجرين العرب من الكفاءات العالية والقيمين حاليا في الولايات المتحدة الامريكية فقط يقدر بحوالي / ١٠٠٠٠٠٠ / / مائة الف شخص ومع ان ظاهرة هجرة الكفاءات تختلف في نوعيتها الى حد كبير من حيث هجرة الفئات الماهرة وغير الماهرة من العمال ، فانها تظل مرتبطة بهذه الاخيرة

(١) صحيفة تشرين الصادرة في تاريخ ١٥/٣/١٩٨١ .

ارتباطا وثيقا فالسياسات الشاملة التي تؤثر على الفئات الاخيرة تؤثر عامة على الحوافز او الموانع المتعلقة بهجرة الموظفين ذوي الكفاءات العالية على حد سواء ، الا انه من الصعب وضع وبرمجة وتنفيذ سياسات لفئات محددة بعينها ، وبالتالي فمع ان الخسارة الاجتماعية الناتجة عن هجرة الكفاءات اكبر بكثير من هجرة العمال المؤهلين وغير المؤهلين « ما دامت تكاليف تعليم الكفاءات اعلى بكثير » . فان اهتمام الحكومة بكسب النقد الاجنبي يحول بينها وبين اتخاذ اجراءات شاملة لايقاف هجرة جميع الفئات والتي قد تكون الطريق الوحيدة الفعالة للحد من هجرة الكفاءات في المدى القريب . وكذلك ايضا ليس بالامكان توفير حوافز متميزة لتشجيع فئة دون الفئات الاخرى .

ومن هنا فمن الضروري ان تناقش ظاهرة الهجرة الى الخارج في اطار عام وشامل . كذلك من الصعب اعطاء الهجرة الدولية حقها من الدراسة دون الاشارة الى مظاهر الخلل الاجتماعي والثقافي والمهني والتطبيقي . ولولا ان بعض البلدان قد عمل على تسهيل وتشجيع هجرة فئات معينة من الكفاءات لظلت هذه الهجرة محدودة النطاق ولهذه الظاهرة جانبان وهما :

- ١ - العوامل التي تدفع وتساهم الى مغادرة الكفاءات من بلدانها .
- ٢ - العوامل التي تضعها البلدان المستقبلية « المضيقة » كي تجذب الكفاءات .

اولا : العوامل التي تدفع الكفاءات الى مغادرة بلدانها :

اذا كانت الاحتياجات المستقبلية من القوى البشرية العاملة في مختلف المجالات يجري تحديدها في اية دولة على اساس متغيرات سياسية واقتصادية واجتماعية فان من حق المرء ان يتساءل عن السبب الذي يجعل هذا البلد او ذاك ان يخرج اعدادا من الاطباء او المهندسين او

العمال الماهرين أو غير الماهرين أو غيرهم دون الاخذ بعين الاعتبار لتلك المتغيرات ولا سيما للطلب الاقتصادي على خدماتهم . وبرغم أنه لا يوجد تفسير معقول لهذا المسلك غير الحكيم سوى ان البلد يعاني من قضايا التخلف ومن وجهة نظر خصوصية هناك ثمة نواقص كامنّة تشوب النظام الصحي والفني أو غيرهما في تلك البلدان ومنها : انعدام التخطيط الواقعي في مجال القوى البشرية وفي ميدان التخطيط التربوي أو الفشل في ايجاد التكامل والتنسيق بين تلك العمليات الامر الذي يؤدي الى تطور غير متناسق بين الانظمة المختلفة أو في داخل كل نظام (١) .

وفي القطر العربي السوري بلغت نسب المهاجرين في اعوام ١٩٥٦ - ١٩٦٩ كما يلي :

الاطباء ٦٥٪ ، المهندسون ٦١٪ ، علماء الطبيعة ٥٩٪ ،
البيطريون ٥٠٪ ، الزراعيون ٣٩٪ ، اطباء الاسنان ٣٤٪ ، الصيادلة ٣٣٪

نرى من هذه النسب ان النسبة الاجمالية للمهاجرين من الكفاءات العلمية تبلغ ٥٧٪ اذا علمنا ان مجموع الكفاءات المهاجرة هي / ٨١٨٣ / كفاءة .

ان هجرة الكفاءات هي بالضرورة نتيجة ترتبت على وضع اللامساواة الحاصل في التنمية بين الدول وبين المناطق والفئات الاجتماعية داخل كل دولة واذا ما انطلقنا من مقولة ان هجرة القوى البشرية العاملة في اي ميدان هي معظمها نتيجة السياسات أو الخطط غير الواقعية المطبقة في المجالات والانظمة المختلفة .

بناء على ذلك فان عوامل الدفع تشكل الوجه الاساسي للمشكلة ويمكننا القول ان هناك عددا من العوامل الاجتماعية والسياسية والادارية

والثقافية والعلمية التي لا يمكن اخضاعها الى ذات النمط من التحليل في كل الظروف والتي يبدو أنها دائما في بلدان العالم الثالث كافة وراء ظاهرة هجرة الكفاءات .

وبإيجاز يمكننا أن نذكر عوامل الدفع هذه وهي :

١ - عدم الاستقرار السياسي حيث تعاني من هذه الظاهرة معظم البلدان النامية .

٢ - الحواجز الإقليمية بين اقطار الوطن العربي وغياب التكامل البيئي وتنافر برامج وخطط هذه الاقطار . والبلدان النامية بشكل عام .

٣ - عدم توفر التسهيلات العلمية وعدم وجود المناخ الملائم لامكانية البحث العلمي .

٤ - انخفاض المستوى المعيشي .

٥ - السياسة التعليمية فاذا عملت هذه السياسة على زيادة الخريجين من الجامعات بما لا يتفق مع احتياجات التنمية كان ذلك دافعا لهجرة كفاءات واسعة .

٦ - عدم التوافق والمطابقة ما بين التأهيل والاعداد والتدريب والحياة العملية وبذلك عدم وضع الرجل المناسب في المكان المناسب .

ثانيا : العوامل التي تضعها وتثبتها الدول المتقدمة لجذب الكفاءات .
في عام ١٩٧٢ كان / ١٤٠ / الف طبيب على الاقل موجودين في بلدان لم يكونوا من رعاياها او لم يولدوا فيها او يتعلموا فيها ، وكان هؤلاء الاطباء يمثلون وقتها وبصورة عامة / ٦ / % من عدد اطباء العالم « باستثناء جمهورية الصين الشعبية » ويصل متوسط من يهاجرون سنويا الى ما يعادل / ١ / ٨ / الحصيلة السنوية في العالم .

وقد وجد ان مايزيد على ثلاثة ارباع الاطباء المهاجرون يعيشون في ثلاثة بلدان فقط هي :

الولايات المتحدة الامريكية (كان فيها / ٦٨ / الف طبيب في عام ١٩٧٢) والمملكة المتحدة (كان فيها / ٠.٢١ / الف طبيب في عام ١٩٧٠)

وكندا (كان فيها / ٩ / الاف في عام ١٩٧١) ثم برزت كل من المانيا الاتحادية وكان فيها / ٦ / الاف في سنة ١٩٧١ واستراليا / ٤ / الاف في سنة ١٩٧٢ بوصفهما أيضا من البلدان المهمة المستقبلية للمهاجرين .

فما هي المزايا والمشجعات التي تتوفر في البلدان المتقدمة التي تجذب الكفاءات وتجعلها تترك بلدانها ؟

يمكن ان نجيب على هذا التساؤل بالنقاط التالية وبايجاز كما يلي :

١ - المحيط العلمي الاكثر تقدما الذي يحفز على مواصلة البحث والتجريب وزيادة الخبرة حيث ان ظروف العمل في البلدان المتقدمة وسيلة لتحقيق الطموحات العلمية بما توفره من فرص البحث العلمي ووسائله .

٢ - اعتماد الترقية والترفيح بالدرجة الاولى على البحث المنتج والكفاءة الفردية .

ان الصعوبات التي تواجهه من دخول مراكز المسؤولية او على الاقل المراكز التي تتلاءم مع مستوى اعدادها يخلق لديها شعورا بالكبت يتجلى سواء في اعتراضها على الاجور او بالاشمئزاز واهمال العمل والمؤسسات التي يعملون بها ، وفي هجرة عدد كبير منها في نهاية المطاف الى الخارج . وتجدر الاشارة الى ان ظاهرة الاشمئزاز من العمل ومن المؤسسات لا تقتصر على الملاكات العليا « ولكن هذه الملاكات بما لديها من اعداد تستطيع بسهولة ان تجد لنفسها ملاذا في الخارج » بل انها تتجلى على كافة

المستويات مع فارق وحيد هو ان الموظفين الاقل كفاءة لا يستطيعون التعبير عن عدم رضاهم الا باعمال الرفض او المطالبة بأجور ارفع (*).

٣ - توفر الحرية السياسية والاجتماعية في البلدان المتقدمة الغربية اكثر منها في بلدان العالم الثالث . ولو نسبيا .

٤ - المستوى المعاشي الجيد الذي يحققه الفرد والضمانات الاجتماعية وخدماتها ووسائل الاستهلاك والرفاه المادي وتسهيلاته .

ان الاعتبارات العائدة الى انخفاض الاجور لا تشكل عاملا حاسما على المستوى الاقتصادي بل انها تدخل في المعادلة من خلال عمليات اقتصادية واجتماعية اكثر تعقيدا .

نرى ان عوامل الجذب مختلفة ومنها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية وغيرها . لكن تحتل العوامل الاقتصادية مكانتها المؤثرة على الكفاءات الاقتصادية والعلمية ، والاشخاص الاكثر تأثرا بهذا العامل هم الاشخاص الافضل اعدادا والاكثر كفاءة لتسيير اجهزة الانتاج والتعليم والتدريب في البلاد .

وانطلاقا من النظرة الشمولية لمشكلة هجرة الكفاءات العربية وارتباطها بالواقع العربي نرى ان هذه المشكلة لا تنفصل عن مكونات التنمية الاجتماعية والاقتصادية العربية من طموح واتحاد وعجز ، والبرز هذه المكونات (*):

١ - التحدي الذي يجابه نهوض الوطن العربي وتكالب عناصر العداء له وترسيخ التجزئة فيه لتجعله يعجز عن الوفاء بالاحتياجات الاساسية

(*) هجرة الكفاءات العربية - بحوث ومناقشات ندوة اكوا - مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت شباط - ١٩٨١ .

لابنائهم ويطمس روح الابداع للناخبين فيه ويسمح بالظروف الاستثنائية التي تتعرض لها حياة وعمل ابنائهم بالاستمرار والتعمق ويفتح طريق نجاح المشوه امام اقل العناصر كفاءة ، واستعدادا للعطاء .

٢ - التبعية للبلدان المتقدمة وتواصل هذه التبعية مع اتجاهات خطط التنمية الغير مدروسة وبرز مظاهر التبعية في هذا المجال هي :

أ - الاعتماد على التكنولوجيا المستوردة دون النجاح في تحقيق توظيف لها في الوطن العربي ودون عناية بايجاد تكنولوجيا وسيطة او تكنولوجيا ملائمة توفق بين كثافة العمل ورأس المال في البلدان العربية او تنجح في اختيار المجالات الموافقة للموارد البشرية والطبيعية في البلدان العربية لتقديم اضافة في البناء لحضاري العالمي واحتلال مركز متمام في التقييم الدولي للعمل .

ب - التبعية الثقافية وخاصة منها نمط الاستهلاك الغربي حين شوه مفهوم النجاح في الحياة وساعد على تهميش نخبة فقدت دورها الايجابي المنتظر منها .

٣ - الاندفاع في سياسات تعليمية وتربوية غير متوافقة مع خطط التنمية فضلت الكم على الكيف وانطبعت بمفاهيم تقليدية في تفضيل العمل المكتبي على العمل اليدوي وعززت عقد الحصول على الشهادات العليا ، وساعدت على تفريغ الريف من افضل عناصره وبالتالي تعميق التخلف والجهل والمرض فيه، وفي نفس الوقت تضخيم مشاكل المدينة واسر جهود التنمية للتخفيف من معاناة المدينة وفي النهاية تخريج جيش احتياطي للهجرة .

٤ - القوانين المتخلفة وادارة شؤون الافراد التي اعطت اولوية لعنصر الولاء ليسبق بمراحل عنصر الكفاءة ، وسخرت جزءا كبيرا من امكانيات

التنمية لفرض الراي الواحد ولاقناع المجموعات والافراد بقبول الوصاية عليها . وبذلك تم قتل روح الابداع وشوش مفهوم الولاء وعزل الانسان عن تنمية الانسان .

النتائج المترتبة على هجرة الكفاءات : :

يمكن تحليل النتائج المترتبة على هجرة الكفاءات من الناحية الاقتصادية والناحية الثقافية والتعليمية وكذلك من ناحية اكثر شمولا هي ناحية المجتمع النامي الذي يتاثر بها .

١ - النتائج الاقتصادية : تمثل هجرة الكفاءات بكل بساطة اقتطاعا من القوى العاملة الهامة المتوفرة لدى البلاد والتي تحتاج اليها البلدان النامية « بشكل عام » حاجة ماسة في الجهد التصنيغي الذي تبذله ، وينتج عن هذه الهجرة تخريب للقوى المنتجة في الاقتصاد وزيادة التوتر في سوق القوى العاملة العالية المستوى الامر الذي يؤدي بدوره الى التأثير على مستوى الاجور . ولايمكن التعويض عن هذا الاقتطاع بالتحويلات النقدية التي تأتي نتيجة هجرة القوى العاملة العادية التي تفتقر الى المواصفات الفنية . وبقدر ما يكون مستوى كفاءة القوى العاملة العالية مرتفعا بقدر ماتكون خسارتها كبيرة بالنسبة الى الاقتصاد فبالاضافة الى تكاليف توظيف قوة العمل والاحتفاظ بها ، هناك التكاليف الباهظة للتعليم والتدريب التي تدفع في معظم الاحيان بالعملات الصعبة «كالتدريب الكوارد في الخارج» . وهكذا فان متوسط الكلفة السنوية لتدريب احد افراد القوى العاملة العالية المستوى في الخارج والتي تتكبدها الشركة الوطنية في الجزائر مثلا يبلغ / ٧٠ / الف دينار جزائري بالنسبة الى الدرجة الاولى من الكفاءة و / ١٦١٦٩٠ / دينار جزائري بالنسبة الى الدرجة الثالثة اي بزيادة / ٢٢٥ / و / ٣٧ / مرة على التوالي بالنسبة الى متوسط الكلفة السنوية للتدريب في المؤسسة ذاتها (*) وبلاضافة الى

هذه التكاليف التي تمثل المدفوعات النقدية لكل شخص يرسل الى الخارج ينبغي اضافة تكاليف اخرى يصعب حسابها وهي التكاليف التي تتكبدها الاجهزة المعنية بارسال العمال الى الخارج . وتزايد فداحة التكاليف الناشئة عن هجرة الكفاءات عندما تحدث الهجرة بين فئات السكان الافضل تدريبا واعدادا والذين استطاعوا بفضل اقدميتهم في العمل ان يكتسبوا خبرة مهنية واسعة . وبالفعل فان الخبرة (خصوصا عندما تقترن بمستوى عال من الاعداد والتدريب المهني) تشكل عاملا هاما في اغناء مواصفات القوى العاملة العالية المستوى ، شأنها بذلك شأن التعليم والتدريب المهنيين وهي تشكل عنصرا اساسيا في المجال الواسع للمعرفة والخبرة الجماعية وبدونها تتعرض كل محاولات التنمية الى الفشل .

ان الهجرة ظاهرة خطيرة بشكل عام وهجرة الكفاءات بشكل خاص تعتبر اخطر على التطور الاقتصادي والاجتماعي وتكمن الخطورة في :

١ - العجز الحاصل بسبب الهجرة من الكوادر العلمية اللازمة لرفع وتيرة التطور الاقتصادي والاجتماعي وهذا ما يؤثر بشكل مباشر على مستوى رفاهية الشعب .

٢ - في عدم حصول البلاد على أي مردود لقاء ما انفقته على تعليم هؤلاء الافراد .

٢ - النتائج الثقافية والتعليمية : يمكن ان نوجز النتائج من هذه الوجة بما يلي :

١ - تناقص قدرة الوطن في اعداد المؤهلين اللازمين لعمليات التنمية محليا حيث ان هجرة الكوادر العلمية تحرم الجامعات والمعاهد والمؤسسات

التعليمية والتأهيلية من الاجهزة ، والكوادر التي يكون بإمكانها ان تعمل على اعداد المؤهلين محلياً .

٢ - انخفاض المستويات التعليمية في البلد نتيجة تناقص عدد المؤهلين من اعضاء الهيئة التدريسية بالنسبة لعدد الطلاب في الجامعات والمعاهد والمؤسسات التعليمية مما يؤدي الى تخرج دفعات ذات كفاءة محدودة .

٣ - ارهاق الاجهزة الحالية من الفنيين والعلميين سواء في الجامعات او المعاهد او مؤسسات الدولة بازدياد الاعباء عليهم مما يؤدي الى ضعف الانتاجية وانخفاض المددود وانتشار روح اللامبالاة والاهتمام ، ونمو العقلية الروتينية وفتور الحماس للتجديد والتطور .

٤ - عدم القدرة على انشاء مراكز للابحاث العلمية او التوسع القائم فيها ، مما يؤدي بالتالي الى عرقلة التطور والتقدم الفكري والعلمي لهؤلاء الاختصاصيين وتناقص وانخفاض قدراتهم الاساسية بحكم عدم اتاحة الفرصة لها بالممارسة والتطبيق .

٥ - تناقص القدرة على الربط بين التطورات الثقافية والتعليمية في البلد وبين متطلبات خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية .

٦ - اضطرار الدولة الى استيراد الخبرات العلمية الاجنبية من الخارج لتلافي النقص الحاصل في الهجرة وبالتالي الوقوع في دائرة التبعية .

وبشكل عام ينبغي النظر الى ظاهرة الهجرة على اعتبار انها تشكل آفة عامة في المجتمع بكل ابعادها وتأثيراتها . وقد ركزت هذه الدراسة على مشاكل القوى العاملة الاقتصادية والعلمية العالية المستوى الا ان ظاهرة هجرة الكفاءات تصيب فئات اجتماعية اخرى ، الذين وان كانوا

غير معنيين مباشرة بعمليات التصنيع والتنمية يلعبون مع ذلك دورا هاما في التنمية الثقافية والفنية والاخلاقية للمجتمع بأسره .

ومن خلال التبعية الاقتصادية والثقافية والحضارية . . . الخ التي يماي منها الوطن العربي بشكل خاص ودول العالم الثالث بشكل عام تتولد العلاقة القوية ما بين حجم « المعونة » المساعدات التي تقدمها الدول الامبريالية للدول النامية ونزيف الكفاءات العلمية والتقنية والارقام التالية تثبت ذلك :

الدولة	السنة	استجلاب الكفاءات الرجح من	التامة والنظمت المساعدات للدول	نسبة تغطية هجرة الكفاءات للمساعدات
الولايات المتحدة	١٩٦١ - ١٩٧٢	٣٠٨٢٨	٦٦١٨٦	٪٥٠
كندا	١٩٦٣ - ١٩٧٢	١٠١٠٤	٤٢٢٢	٪٧٢
بريطانيا	١٩٦٤ - ١٩٧٢	٣٥٣٤	٩٧٩٨	٪٥٦

ان الضرر الكبير الذي يلحق بالمجتمع من جراء هجرة الكفاءات لا يمكن تقديره بمعايير بحتة او بمعايير السوق وحدها ، لابد من تقويم هذا الضرر بكافة آثاره المتنوعة .

مقترحات للمساهمة في حل المشكلة

تبقى مشكلة هجرة الكفاءات بشكل عام قائمة ومتجهة ، كما رأينا ، نحو الدول المتقدمة صناعيا وخاصة الولايات المتحدة الامريكية وكندا وبريطانيا والمانيا وغيرها ، من المشاكل الرئيسية التي تعاني منها تلك

البلدان ، بل هي انعكاس لواقع التخلف والتجزئة والتبعية الموجودة في بلدان الوطن العربي وبشكل عام في بلدان العالم الثالث .

وبالتالي لا يمكن ايجاد الحلول الا اذا تم التحرر بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى من خلال النضال الدؤوب داخليا وعالميا . وبكلام آخر بازالة الاسباب التي دعت الى وجود المشكلة . ومع ذلك وضمن الواقع الموجود فبامكان الدول العربية ان تقوم باتخاذ اجراءات تخفف من دوافع هجرة الكفاءات وتقدم دافع جذب للكفاءات المهاجرة وهي كما وضعتها لجنة خبراء الكفاءات العربية المنعقدة في الفترة الواقعة بين ٢ - ٤ شباط ١٩٨١ .

اولا : اقتراح الاستفادة من الكفاءات العربية المهاجرة : ان غالبية الكفاءات المهاجرة اوجدت ظروف استقرارها في المهجر ، لذلك فعودتها تخضع لجهود منظمة طويلة المدى ، وفي انتظار العودة المحتملة ، يمكن البلدان العربية الاستفادة من هذه الكفاءات لفترات قصيرة على ان يواكب ذلك :

- ١ - جهد اعلامي موضوعي يقدم للكفاءات المهاجرة في بلاد المهجر اعلاما موضوعيا يشعرهم بمشاكل بلدانهم وبالذور المنتظر لهم .
- ٢ - اتصال مستمر ورعاية تنمي روح التعاون وتثير مشاعر الحنين للوطن .

- ٣ - تقديم خدمات ملموسة لهم ، مثل المساعدة في تعليم ابنائهم اللغة العربية ، وارسال محاضرين اكفاء وعلميين لاطلاعهم على المشاكل البحثية والفكرية والفنية في البلدان العربية وتزويد مجتمعاتهم وجمعياتهم بكل جديد من المؤلفات العربية والانتاج الفكري والعلمي العربي .

٤ - اتخاذ الإجراءات المناسبة لتسهيل زياراتهم للوطن من معاملات ادارية وجمركية وامنية .

وتوضع برامج للاستفادة من هذه الكفاءات المهاجرة وتتضمن :

١ - دعوتهم لالقاء محاضرات علمية في مجالات تخصصهم وتسهيل لقائهم مع زملائهم في التخصص وفي مراكز البحث والجامعات العربية .

٢ - دعوة طليعة من الكفاءات العالية المهاجرة ليكونوا اعضاء دائمين او مراسلين في مجالس البحث العلمي ولجان التخطيط للبحث العلمي .

٣ - دعوتهم لاستشارات فنية يربطون فيها بالمشاريع الهامة التي تقام في البلدان العربية وذلك اثناء مناقشة خطة التنمية او مناقشة دراسات الجدوى للمشاريع الهامة .

٤ - التعاقد معهم لفترات محددة برواتب مجزية في اطار تنفيذ مشاريع محددة .

٥ - تخصيص نصيب من التسهيلات السياحية ومراكز قضاء الاجازات للكفاءات المهاجرة ولعائلاتهم في بلدان عربية .

٦ - تقديم شركات الطيران العربية تسهيلات في السفر بين بلدان المهجر الى البلدان العربية لمن تضمن اسماؤهم دليلا معتمدا من الجامعة العربية ومنظماتها او من النقابات والجمعيات والاتحادات المهنية العربية .

٧ - ترجمة مؤلفات الكفاءات العربية وطباعتها وتقديم مكافآت عادلة عن ذلك .

٨ - اشراك من يرغب منهم في الضمان الاجتماعي « التأمينات الاجتماعية » المعتمد في بلدانهم العربية بما في ذلك ضمان الشيخوخة والمعجز والوفاة .

ان هذه المقترحات تمثل مدخلا لاعادة الكفاءات المهاجرة ، على أن تترجم الى قرارات تنفيذية تلتزم بها كل المصالح المعنية في الدول العربية وتتحمل فيها البعثات الدبلوماسية في الخارج مسؤولية هامة .

ثانيا : اقتراح سبل الحد من نزيف الكفاءات العربية :

ان نزيف الكفاءات يعتبر من اخطر القضايا التي تواجه التنمية العربية وتستدعي تضافر جميع الجهود على المستويين القطري والعربي ، وتلح في بلورة رؤية جديدة للتنمية في البلدان العربية تفر من الهياكل القائمة ، ويمكن البدء بالاجراءات التالية :

١ - تكثيف رعاية المبعوثين للبحث والدراسة والتدريب رعاية مادية ومعنوية والتوجيه الجاد للاستفادة من طاقات البحث والدراسة والتدريب المتاحة في البلدان العربية الاخرى ، وفي اطار الرعاية تقدم المنح الدراسية وترسل اساتذة اكفاء للاتصال بالمبعوثين ويعفى المبعوثون من تكلفة عودتهم كل سنة الى عائلاتهم ووضع برامج لاشراكهم في العمل والانتاج اثناء الاجازات الدراسية .

٢ - اعادة النظر جديريا في سلم الاجور والرواتب التي تمنح للكفاءات العربية في بلدانهم ، وتقديم حوافز مادية تربط بالبحث والانتاج ، وتقدم الاجر المتساوي مع العمل المتساوي وترفع الحدود العليا للاجور لكافة البارزين من ذوي الكفاءات وتقديم الحوافز التشجيعية والتسهيلات المصرفية والجمركية للوفاء بالاحتياجات الاساسية خاصة منها المساعدات التي تكفل توفير السكن المناسب وتقديم الخدمات اللازمة لقيامهم بأعمالهم على احسن وجه .

٣ - احترام الجانب الانساني في الكفاءات العربية وخاصة منها حرية الراي وبشكل خاص فيما يتعلق بمجالات اختصاصاتهم الفنية .

٤ - اعطاء المسؤوليات الفنية للفنيين ، وان يلتزم سلم الوظائف بشرط الكفاءة التي يجب ان توضع لها معايير علمية ، دقيقة ، تبعده عن النزوات والاهواء الشخصية .

٥ - تقليل الشعور بالفن بالمقارنة مع زملائهم الخبراء الاجانب العاملين في بلدانهم العربية .

٦ - الالتزام باستراتيجية العمل الاقتصادي العربي فيما يتعلق بسياسة البحث وتخصيص / ٣٪ / من الدخل القومي لاغراض البحث العلمي وبرمجة سياسة البحث العلمي على المستوى العربي .

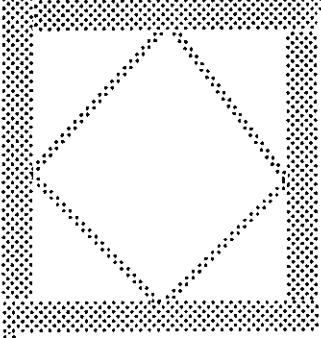
وباختصار ، مادامت اسباب هجرة الكفاءات العربية نتيجة حتمية للواقع العربي وما يعانيه من تجزئة وتخلف وتبعية ، تعتبر هذه الهجرة نتيجة افرزات طبيعية من البنية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتكنولوجية . . . الناتجة عن الخلل التنموي في هذه الاقطار العربية .
ويجب ان تركز الحلول على الاسس التي من شأنها ان تخلق التوازن التنموي في المجتمع العربي والذي يؤدي بدوره الى الاخذ بالتخطيط العلمي ، الدقيق ، للموارد البشرية الموجودة والتي تعتبر بحق الركن الاساسي في التنمية . كذلك الاهتمام بالتفرغ العلمي والبحث العلمي المفيد واغناء المكتبات وتحديثها والعمل على الاستقرار السياسي والفكري والاجتماعي وتحسين الاوضاع المادية بحيث تتلاءم مع الجهد المبذول وحاجة المجتمع اليه .

ولا يخفى على احد من أن القاعدة الاقتصادية ، المتينة هي الدرع الواقى من الضغوط الخارجية وهي الوسيلة الاساسية ، للحفاظ على المكتسبات لاي بلد من البلدان يريد النهوض والتطور والضمانة الاكيدة لنجاح الخط الاشتراكي الذي تسلكه القيادة السياسية ، وخاصة في مرحلة التحويل الاشتراكي .

المراجع :

- ١ - هجرة الكفاءات العربية « بحوث ومناقشات ندوة أكوا »
مركز دراسات الوحدة العربية بيروت شباط ١٩٨١ .
- ٢ - مجلة الاقتصاد العدد ٢٠٦ آذار ١٩٨١ .
- ٣ - اعداد من صحيفة تشرين .
- ٤ - مجلة المستقبل العربي ١٩٨٠ العدد ١٥ .

ملف المعرفة



الواقع

الثقافي

المصري

في زمن النطيع

د. أحمد أبو مطر

الواقع الثقافي المصري في زمن التطبيع

د. أحمد أبو مطر

عقب اتفاقيتي كامب ديفيد ، طرحت القيادة الاسرائيلية ، ما عرف باسم « تطبيع العلاقات » بين الطرفين المصري والاسرائيلي ، أي الانتقال بها من مرحلة العداء الى مرحلة طبيعية ، كتلك التي تحكم العلاقات بين اية دولتين متجاورتين ، تقوم بينهما علاقات طبيعية عادية ، منذ سنوات بعيدة . ولقد كانت سياسة التطبيع هذه من الامور التي نصت عليها الاتفاقيات المذكورة ، ودلل الكيان الصهيوني ، من خلال اصراره على الرخص السريع في تطبيقها ، على أنه يدرك النواحي التي يمكنه من خلالها احداث الخلل والازدواجية في وجدان المواطن العربي في مصر ، ومن ثم الوصول الى المواطن العربي في الساحات الاخرى ، خاصة وأن عشرات الالوف من العرب يزورون مصر سنويا ، ويحتكون بالتالي بالمواطن المصري ، وربما - مستقبلا - اليهودي الذي يفترض فيه أنه سيوجد في مصر يومها .

لقد كان تبادل السفراء بين القاهرة وتل أبيب في ٢٦/٢/١٩٨٠ ، أولى الخطوات التي حققتها العدو الصهيوني ، وكان رفع العلم الإسرائيلي في سماء القاهرة انعكاساً لا مثيل لها ، قابلها الشعب العربي في مصر بالشجب والاستنكار ، وكان يعبر من خلال ذلك عن أصالة انتمائه العربي ، هذا الانتماء الذي تمكنت قيادة عبد الناصر أن تجيره لصالح انضاج الوعي القومي في العالم العربي ، الذي عبر عن نفسه بشكل جماهيري في العديد من المناسبات القومية . لقد كانت ردود الفعل المصرية ، في الجانب الجماهيري ، تثبت أن هذا التطبيع أمر يخالف المجرى الطبيعي لحركة التاريخ العربي ، وهو أمر لا يمكن أن يعترف به الوجودان المصري ، إيا كان حجم التآمر ، والكيفية التي يحاولون أن يتسللوا من خلالها ، لاشاعة ثقافة الاوطنية بين الجماهير العربية في مصر ، وقد كانت ردة الفعل الجماهيرية مضادة وعنيفة :

■ ووزع حزب العمل الاشتراكي الاعلام الفلسطينية على عناصره ، في مختلف المحافظات المصرية ، ورفع شعار « مليون علم فلسطيني مقابل كل علم اسرائيلي » . وبالفضل ، قام أعضاء الحزب وانصاره والمواطنون المصريون من مختلف الفئات والطوائف ، بالصاق الاعلام الفلسطينية على الجدران ، وورفعتها في الساحات والميادين ، في عمل جماهيري ، يدل على أن حركة التاريخ لا يمكن أن تتمكن قوة مهما كان حجمها ، أن تلوي عنقها .

■ « لا تتعاملوا مع الاسرائيليين » . كان عنوان البيان الذي وزعته السكرتارية العامة لحزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي ، يوم ١٧ فبراير ١٩٨٠ ، قبل تبادل السفراء بأيام قليلة . وقد طرح الحزب في هذا البيان عملية التزييف والخيانة التي تتم باسم السلام ، موجهة النداء للجماهير المصرية ، كي تتوقف عن كافة أشكال التعامل مع العدو الاسرائيلي .. « .. في هذه الظروف يفتح الباب للسياسة الاسرائيلية للدخول الى سوقنا ومعها الثقافة الصهيونية المدعومة في ذلك كله بالاحتلال الاسرائيلي للارض المصرية والعربية ، في الوقت الذي تتخلى فيه اجهزة

الثقافة الرسمية عن مواجهة الغزوة الصهيونية القادمة التي تعلن صراحة عداءها لمقدساتنا الروحية والدينية . . كل هذا يتم وبلدنا مقطوعة علاقاتها مع امتنا العربية ، ونحن في شبه عزلة عنها وعن الشعوب الاسلامية وبلدان عدم الانحياز ، وهذا يفتح الطريق ليجعلنا تحت رحمة القوة الامريكية والاسرائيلية ، وانهاء دور مصر التاريخي القيادي في المنطقة ، ويهدد امن مصر المستقبلي . . . ان هذا لن يقبله شعب مصر ، لانه يمس مستقبله ومصيره ومصير الاجيال القادمة ، وسوف يرفضه ويقاطعه . فلنوقف التعامل مع كل ما هو اسرائيلي : السفارة الاسرائيلية ، البضائع الاسرائيلية ، السياحة الاسرائيلية ، الصحف والكتيب الاسرائيلية . . وكل اوجه التعامل مع اسرائيل . ولنوقف التعامل مع كل من يتعامل مع الاسرائيليين من المصريين ، ولنعتبرهم خارجين عن الاجماع الوطني القومي اذا لم يستمعوا الى صوت الضمير والعقل . . انها قضية مصر وضمير لكل المصريين اجمعين . . فلنوقف التعامل مع كل ما هو اسرائيلي » - من بيان حزب التجمع في ١٧ فبراير ١٩٨٠ .

ازاء ردات الفعل هذه ، ادرك العدو الصهيوني ، ان ابواب المواطن المصري لن تكون مشرعة امام افكاره وثقافته ، فكان لابد من سياسة النفس الطويل ، واللجوء الى سلطة النظام الحاكم ، كي يفرض بقوة القوانين ، والاجراءات التعسفية ، ما يفهمه من امور التطبيع ، وكان دوما يذكر بما نصت عليه اتفاقيات كامب ديفيد ، خاصة في المادة الثالثة تحت عنوان « العلاقات الثقافية » :

١ - يتفق الطرفان على اقامة علاقات ثقافية عادية بعد اتمام الانسحاب المرحلي .

٢ - يتفق الطرفان على ان التبادل الثقافي في كافة الميادين امر مرغوب فيه ، وعلى ان يدخل في مفاوضات في اقرب وقت ممكن ، وفي موعد لا يتجاوز ستة أشهر بعد الانسحاب المرحلي ، بغية عقد اتفاق ثقافي .

كما نصت المادة الخامسة ، في البند الثالث على ان « يعمل الطرفان على تشجيع التفاهم المتبادل والتسامح ، ويمتنع كل طرف عن الدعاية الممادية تجاه الطرف الاخر . . . » . ويتضح حجم الاحفاف ، بحق المواطن المصري ، الذي تنص عليه هذه البنود ، اذ انه من الامور غير المنطقية ان تقام علاقات ثقافية ، وتمثيل دبلوماسي بين قطرين ، يحتل احدهما اراضي القطر الاخر ، في حين ان القطر الذي يقوم بالاحتلال ، وهو الكيان الاسرائيلي ، لا يتمتع بمشروعية قانونية او تاريخية ، في وجوده المزروع عنوة في داخل الوطن العربي .

ورغم مرور اكثر من عام على فتح السفارة الاسرائيلية في القاهرة ، الا ان هذا التطبيع في العلاقات الثقافية بالذات ، ما يزال يواجه بالرغم الكامل من المثقفين المصريين ، اذ يتولى المثقفون الديمقراطيون الوطنيون ، من خلال « لجنة الدفاع عن الثقافة الوطنية » التصدي لكافة محاولات التسلل الثقافي التي يقوم بها العدو الصهيوني ، وقد استطاعوا اقامة حركة تنوير ووعي حقيقيين ، ازاء اخطار الغزو الثقافي الاسرائيلي ، التي تهدد المستقبل الثقافي الوطني في مصر .

التطبيع الثقافي . . لماذا ؟

ان اصرار العدو الصهيوني على التطبيع في المجالات الثقافية بالذات ، ينبع من ادراكه ان المجال الثقافي ، هو المؤهل والقادر على غسل دماغ المواطن ، وتسريب الافكار والثقافة اللاوطنية الى عقله ونفسه . لذلك لا نستغرب ان يكون العمل الاول الذي قام به السفير الاسرائيلي ، عقب تسلم عمله في ١٧ فبراير ١٩٨٠ ، ان قدم شيكا لتوفيق الحكيم ، على انه قيمة حقوقه المادية العائدة اليه ، من ترجمة كتبه وطبعها في دولة الكيان الاسرائيلي ، محاولا من خلال هذا العمل فتح ثغرة في صفوف الكتاب المصريين . ورغم ذلك ، فان هذه المحاولات لم تسفر عن كسب الا توفيق وحفنة قليلة جدا من الكتاب الانتهازيين الذي عرفوا دوما بالوقوف مع

المواقف الارتزاقية ، والذين لهم ماض طويل في الانحرافات الفكرية امثال حسين فوزي ، والقليل من صفار الصحفيين الذين وجدوا ان هذا الظرف هو الوحيد الذي يوصلهم الى المناصب العليا ، من خلال التطبيل الاعمى لسياسة النظام ، امثال ابراهيم سعده ، الذي كان محررا مجهولا في جريدة « اخبار اليوم » فاذا هو رئيس لتحرير جريدة « مايو » ، التي اصدرها السادات لتتطرق باسم حزبه المسمى « الحزب الوطني الديمقراطي » .

ان التطبيع في الميدان الثقافي ، كما تفهمه دولة الكيان الاسرائيلي ، وانسجاما مع البنود السابقة من اتفاقيات كامب ديفيد ، تعني في التطبيق العملي :

١ - اعادة كتابة التاريخ العربي ، لتزييف العديد من الحقائق والبدهييات التاريخية المتعلقة بالطريقة الاستعمارية الاستيطانية التي اقحمت الكيان الصهيوني في الوطن العربي ، حيث اقامت دولته اسرائيل على الارض العربية في فلسطين ، بعد تشريد اغلبية شعبها .

٢ - التوقف عن تدريس الادبيات والوثائق والنصوص المعادية لليهود والصهيونية ودولة اسرائيل ، حتى الوارد منها في بعض الكتب المقدسة كالقرآن الكريم ، وذلك انسجاما مع المادة الخامسة من مواد اتفاقيات كامب ديفيد ، التي تنص في بندها الثالث على ان « يسعى الطرفان الى تطوير تفاهم وتسامح متبادلين ووفقا لذلك يمتنعان عن تقديم الاعلام المعادي كل للاخر » .

ان هذه الامور تبدو من وجهة النظر الاسرائيلية في غاية الاهمية ، ويجب البدء بتنفيذها فورا ، لانها ترتبط بمواد اخرى من الاتفاقية ، سبق الاشارة اليها ، وهي المتعلقة بابرام معاهدات ثقافية ، واقامة تبادل ثقافي بينهما . اذ من غير المعقول ان يقوم تبادل ثقافي بين ثقافتين ، تنظر احدهما للاخرى على انها ثقافة تخريرية ومعادية . لذلك يتوقع - في حال

استمرار هذه الظروف التطبيعية - ان يبدأ النظام المصري ، حملة تمشيط لكافة البرامج التعليمية ، والمؤلفات المدرسية والجامعية ، كي يعاد توليفها بطريقة تصبح منسجمة مع روح اتفاقية الكامب اللاوطنية، وقد بدأت أجهزة الاعلام الرسمية بالكف عن استعمال كلمتي « العدو الصهيوني » و « العدو الاسرائيلي » ، وحل محلها ما يسمى « دولة اسرائيل » و « حكومة اسرائيل » . كما بدأت الصحف والمطبوعات الاسرائيلية ، تدخل القاهرة ، وتوزع يوميا في اغلب المحافظات ، خاصة الاسكندرية والقاهرة .

الخطورة المستقبلية

ان هذه الامور الطارئة في الساحة المصرية ، تشكل - في مجمل توجهاتها - خطورة كبيرة ، وهي لذلك تحتاج الى دراسات اجتماعية ونفسية ، لانها ليست من الامور السطحية العابرة ، ولكنها تتعلق بكيفية تشكيل وجدان الطفل والطالب المصري ، وتحديد بالتالي انتماءاته وتوجهاته . ان دراسة اولية لهذه الترتيبات الطارئة ، تنفيذها للاتفاقيات المقفودة ، تشير الى امور خطيرة ، اذا ما استمرت سياسة التطبيع ، وفق المفاهيم الاسرائيلية ، التي تضغط بكل قواها ، وبشكل ابتزازي .

١ - البدء بتلقين الاطفال والطلاب المصريين ثقافة لا وطنية ، تتعامل مع العدو الصهيوني ، على اعتبار كونه جارا طبيعيا ، وهذا يعني انه يتمتع بوجود شرعي في المنطقة العربية ، سكانا وارضا ، له ما للجار من حقوق وواجبات . ان هذا الامر يعني ظهور جيل عربي - في مصر - ممسوخ الهوية ، فاقد الانتماء الحقيقي ، مضلل الاراء والتوجهات .

٢ - ظهور الانقسام في الراي ، والازدواجية في الموقف ، بين هذا الجيل من الاطفال والطلاب المصريين ، والجيل السابق له الذي تربى وترعرع في ظل المد الناصري ، حيث تشبع بالمفاهيم القومية التي كان

المحور الاساس في استراتيجيتها يقوم على تحرير الوطن العربي من كافة اشكال النفوذ الاجنبي ، بما فيه الاستعمار الاستيطاني الصهيوني في فلسطين . كيف يتعايش هذا الجيلان ، وهما يحملان فكرا متناقضا ؟ . الجيل الحالي الذي يتلقى تربيته وتعليمه في ظل المفاهيم اللاوطنية ، سوف يتعلم النظر الى دولة اسرائيل على أنها جارة طبيعية ، لها شرعية باقى دول المنطقة ، في حين ان الجيل الذي سبقه ، وما يزال يعيش معه ، تلقى ثقافة وتربية وطنيتين ، ينظر من خلالها لهذه الدولة على أنها غازية محتلة ، يجب اقتلاعها وتصفية وجودها الاستيطاني .

٣ - ان خطر هذه المفاهيم اللاوطنية ، لا يقتصر على القطر المصري وحده ، بل ان بقية الساحات العربية مهددة بتسلل هذه المفاهيم ، وما تبعها من ممارسات ومواقف ، وذلك من خلال الاحتكاك والتعايش مع المواطنين المصريين في الساحة المصرية ، عبر الزيارات وحركة السياحة الى مصر . ان السائح العربي ، سوف يالف مرة واخرى منظر اليهودي في القاهرة ، ويبدو الامر عاديا مع تكراره ، وهذا من شأنه تخفيف حدة التعتبة الممنونة التي تحفز لتوجيه الطاقات العربية نحو خدمة القضية المركزية للامة العربية . ان هذا الامر تعيه الادارة الاسرائيلية ، لذلك حظيت حركة السياحة والانتقال بين مصر ودولة اسرائيل ، بقسط ملموس من بنود اتفاقيتي كامب ديفيد ، وهي بنود تسمى الى تحقيق التعايش الطبيعي ، والنظرة العادية للمواطن الاسرائيلي في مصر ... فقد نصت بعض هذه البنود على ما يلي :

■ الفقرة (ج) من البند الثالث :

« يتفق الطرفان بان شبكة العلاقات العادية التي سوف تقوم بينهما ، ستتضمن اعترافا كاملا ، وعلاقات دبلوماسية واقتصادية وثقافية ، ووضع حد للمقاطعات الاقتصادية ولحواجز التفرقة والتمييز ، التي تعترض تنقل الاشخاص والبضائع ، وتضمن التنفيذ المتبادل لاجراءات قانونية منطقية لمواطنيها ولرعايا الجانب الثاني ، والمسيرة التي بواسطتها يتعهد الطرفان بتطبيق شبكة العلاقات هذه » .

■ البند الرابع من الملحق رقم (٣) - الفقرة (أ)

« مع استكمال الانسحاب المرحلي ، يسمح كل طرف بحركة تنقل حرة لرعايا وآليات التطرف الثاني الى اراضيه وفي اراضيه وفقا للقوانين المرعية ازاء رعايا وآليات الدول الاخرى . ولا يقوم اي طرف بفرض قيود مميزة على حرية تنقل الاشخاص والآليات من اراضيه الى اراضي الجانب الاخر » .

■ البند السادس من الملحق (٣) - الفقرة (هـ)

« يفتح الطرفان من جديد ويشقان طرقا وسككا حديدية بين بلديهما ، ويفحصان امكانية اقامة اتصالات طرق وسكك حديدية اضافية بينهما .

■ البند السادس من الملحق رقم (٣) - الفقرة (و)

« مع استكمال الانسحاب المرحلي تقام بين الاطراف اتصالات عادية بريدية وهاتفية وتلكس ، ولتنقل معطيات وخدمات لاسلكية وكابلات ، ومحطات ارسال تلفزيوني بواسطة كابلات وراديو واقمار صناعية . وفقا للمعاهدات والقوانين الدولية ذات العلاقة بالامر » .

هذا بالاضافة الى بنود فقرات اخرى ، تضمنتها الاتفاقية وملاحقها تهدف الى تسهيل وتسريع التسلل الى الشارع العربي في مصر ، بشكل يجعل الوجود اليهودي في المنطقة طبيعيا وشرعيا ، ومألوفاً من المواطن المصري ، ومن بعده المواطن العربي القادم للسياحة او الإقامة في مصر .

جدوى المقاطعة العربية

ان هذه الامور ، تطرح للمناقشة بشكل جدي ، موضوع المقاطعة العربية لمصر ، تلك المقاطعة التي صدرت بشأنها قرارات من مؤتمر قمة بغداد عام ١٩٧٩ . لقد اتفق على مقاطعة النظام المصري ، بسبب اعترافه

بالمعدو الاسرائيلي ، وبالتالي مقاطعة الشركات والافراد الذين يتعاملون معه . ان للمقاطعة وعدمها من السلبيات ، ما يجعلها بحاجة لدراسة متأنية للاخذ بالجانب الاقل في السلبيات . ان عدم مقاطعة النظام جريمة لا يمكن البسكوت عليها ، لانها تسوغ العمل الخياني الذي قام به ، وهذا من شأنه أن يشجع انظمة اخرى ، للاتحاق بنفس المسيرة الخيانية ، ويؤيد هذا الافتراض ان بعض الانظمة العربية قد ايدت النظام المصري في هذه الخطوات ، ودافعت عنه ، وسارت عمليا في نفس المسار ، خاصة . فيما يتعلق باعطاء التسهيلات للوجود العسكري الامريكى في المنطقة العربية

اما المقاطعة الشاملة للنظام المصري ، فهي تحمل بعض السلبيات التي تخدم المخطط الامبريالي المرسوم لمستقبل مصر ، لان هذه المقاطعة تعني ترك الساحة المصرية تعيش في فراغ عربي ، وتصبح مرتعا اقتصاديا وثقافيا للادوات الامبريالية ، التي تحلم بسلخ مصر - بشكل نهائي - عن امتدادها العربي . ان خلو الساحة المصرية من الوجود العربي ، بأشكاله المختلفة ، يخدم هذا المخطط ، ويترك المواطن المصري تحت تأثير وجهة نظر واحدة ، في وقت تسيطر اجهزة الاعلام الرسمية ، على كل القنوات الاعلامية والثقافية . انه من الخطورة ان يترك المواطن المصري لتأثيرات اكاذيب وتضليلات الصحافة الرسمية كجريدتي « الاهرام » و « مايو » وجريدة « الانباء » الاسرائيلية بالعربية ، رغم ان كافة المصادر الوطنية تؤكد - حتى الان - العزوف الكامل للقارىء المصري عن شرائها .

دور القوانين والتشريعات التصفية

ان البنود والفقرات التي سبق ذكرها . من اتفاقتي كامب ديفيد وملاحقهما ، ليس من السهل تطبيقها وتحديثها في الشارع المصري ، لان عمق الوجود العربي والانتماء القومي لدى المواطن المصري ، وبالذات طلائعه المثقفة ، لا يمكن التغلب عليه ونقله الى النقيض بسهولة . لذلك بلجأ النظام المصري الى سن القوانين والتشريعات التصفية الجائرة ، التي تسهم في خدمة هذا المخطط . عن طريق تقييد حرية الصحافة والحد

من الاعمال الجماهيرية والنشاطات السياسية المعارضة ، ويتم ذلك بقوانين تشرع باسم « الديمقراطية » ، وتطبق بطريقة تجعلها ديمقراطية النظام ورموزه ، ومن يدور في جاذبيتهم ، أما اشخاص المعارضة ، فعند تطبيق هذه الديمقراطية عليهم ، يتضح لنا ان الامر مختلف ، واذا بها ديمقراطية « المفرمة » كما يقولون . ان مناقشة هذه القوانين امر ضروري ، كي ندرك صعوبة الاوضاع التي يعيشها المواطن المصري ، وحجم المعاناة والتضييق اللذين تتحرك من خلالهما حركة المعارضة بشقيها السياسي والثقافي .

١ - القرار الجمهوري رقم (٢) لسنة ١٩٧٧ :

وهو القرار الذي صدر في ٣ فبراير ١٩٧٧ ، في اعقاب الانتفاضة الجماهيرية التي شهدتها مصر في ١٨ و ١٩ يناير ١٩٧٧ (١) . وهذا يعني انه جاء ليحاكم الحالات المشابهة لتلك الانتفاضة ، والحد منها ، عن

(١) من المفيد ان نذكر ان النظام المصري اطلق على هذه الانتفاضة الجماهيرية اسم « انتفاضة الحرامية » مذكرا بما صاحبها من عمليات تخريب وحرائق ، اثبتت تحريات المعارضة ، انها كانت من فعل اجهزة النظام ، كي يجد المبرر لقمع هذه الانتفاضة . وقد جاء حكم محكمة امن الدولة الصادر في ١٩ ابريل سنة ١٩٨٠ [امن الدائرة التي يرأسها المستشار منير صليب] ليكذب اقاويل وتسميات النظام ، فقد تحدث هذا الحكم بالتفصيل عن المتاعب والمعاناة التي كانت تطحن الشعب ، وشكلت - في رأي المحكمة - السبب المباشر لحوادث هذين اليومين . لذلك قضى الحكم ببراءة كل المتهمين في القضية ، فيما عدا (١٩) منهم ، تراوحت الاحكام الصادرة بحقهم بين سنة وثلاث سنوات . وقد شملت احكام البراءة الكتاب والشعراء والصحفيين المتهمين في القضية وهم : عزت عامر ، محمود الشاذلي ، فريد زهران ، هشام عبد الفتاح ، محمود توفيق ، عبد القادر شبيب ، رشدي ابو الحسن ، عريان نصيف ، زهدي العدوي ، سمير عبد الباقي ، حسين عبد الرازق ، زين العابدين فؤاد ، صلاح عيسى ، احمد فؤاد نجم ، وحكم على الشاعر حمدي عبيد بالحبس لمدة سنة . وقد تضمنت اسباب الحكم عددا من المبادئ القانونية الهامة ،

طريق العقوبات الصارمة المشددة، وكي يعطى هذا الرقار طابعا جماهيريا، اجري حوله لاستفتاء المشهور في ١٠ فبراير ١٩٧٧ ، الذي كان فاتحة سلسلة من الاستفتاءات ، ما افك النظام يلققها ، كلما وجد نفسه امام

→

كما تضمنت تقييما لاحداث ١٨ و ١٩ يناير ١٩٧٧ ، حيث خلصت المحكمة من دراسة الظروف التي احاطت بهذه الاحداث ، الى انها كانت نتيجة مباشرة لقرارات رفع الاسعار ، وحدثت بصورة تلقائية دون تحريف او استغلال للموقف . كما استندت المحكمة الى عدم توافر ركن المنف ، للحكم ببراءة كل المتهمين بعضوية التنظيمين السريين اللذين كانا موضع الاتهام وهما : الحزب الشيوعي المصري وحزب العمال الشيوعي . وقد وجهت المحكمة في اسباب حكمها ننذا حادا لاجهزة جمع الاستدلالات ، لا شاب عملها من قصور ، وقال ان التحريات المتقدمة من مباحث أمن الدولة تنمي الى مصادر مجهولة ، مما يجعلها موصفا للظن . وأشارت أسباب الحكم أيضا ، الى أن محاضر تحريات المباحث قد طلبت الإذن بالقبض على اشخاص باعتبارهم مشاركين في الاحداث المذكورة ، ثم اتضح انهم توفوا او بالخارج ، بل استصدرت اوامر بالقبض على اشخاص ثم طلبت الافراج عنهم ، بعد أن اتضح لها أنهم من مصادرها السرية .

ومن الامور الطريفة في هذا الحكم تلك الحثيات التي استندت اليها المحكمة لتبرئة الشاعر احمد فؤاد نجم ، فقد ذكر الحكم أنه لم يقم دليل من الاوراق تطمئن اليه المحكمة على أن الأقوال التي ردها المتهم قد تضمنت أخبارا كاذبة او اشاعات مفرضة ، أو حضا على كراهية النظام القائم أو الإزدراء به ، فضلا عن ذلك فان كلمات القصائد المنسوبة الى المتهم ، وطبقا لما هو وارد في اوراق الدعوى ، حافلة بالتنسيهات والرمزيات لدرجة أن النيابة العامة تد وصفت واحدة من هذه القصائد بالفموض ... وما دامت قصائد المتهم على هذا الحال من النسيج اللفظي ، فلا ينبغي بحال اعتصار كلماتها لانتزاع دليل منها على مناهضة النظام القائم وعلى قيام المتهم بالتحريف على كراهيته والازدراء به ، وينبغي جعلها على حقيقتها باعتبارها كلمات لشاعر اتسم بجموح الخيال ، ولاعجب في ذلك ، فالشعراء في كل واد يهيومن ، والظاهر أن المتهم من قبيل هؤلاء الشعراء ، مما يجعل المحكمة تقرب الذكر صفحا عما اسند اليه ، اذ لا جريمة فيه .

راجع مناقشة بعض فقرات هذا الحكم في مجلة « الثقافة الوطنية » المصرية ،

الجزء الثاني ، يناير ١٩٨١ .

مأزق معين ، وانقراض الجماهير من حونه (٢). وقد أطلق على هذا القرار اسم « قانون حماية أمن الوطن والمواطنين » ، وجاء متضمنا من المواد ما يعطي الدولة وأجهزتها حق القمع باسم « حماية الوطن » . وأخطر ما فيه المواد التالية التي تشكل العرض الذي جاء القانون من أجله ، وهو ضمان عدم تكرار الانتفاضة الجماهيرية المذكورة ، وردع القائمين بها اذا تكرر حدوثها . . . هذه المواد هي :

المادة (٦) : يعاقب بالاشغال الشاقة المؤبدة كل من دبر او شارك في تجمهر يؤدي الى اثاره الجماهير بدعواتهم الى تعطيل تنفيذ القوانين واللوائح ، بهدف التأثير على ممارسة السلطات الدستورية لاعمالها او منع الهيئات الحكومية او مؤسسات القطاع العام او الخاص او معاهد العلم من ممارسة عملها باستعمال القوة او التهديد باستعمالها . وتطبق العقوبة على مدبري التجمهر ، ولو لم يكونوا مشتركين فيه وعلى المحرضين والمشجعين .

المادة (٧) : يعاقب بالاشغال الشاقة المؤبدة العاملون الذين يضربون عن عملهم عمدا متفقين في ذلك او مبتغين تحقيق غرض مشترك ، اذا كان من شأن هذا الاضراب تهديد الاقتصاد القومي .

(٢) « رغم ان الاستفتاء مفروض فيه ان يكون ارقى شكل من اشكال المشاركة الشعبية ، الا انه بالطريقة التي يتم بها في مصر ، عدوان سافر على حق الشعب في المشاركة الديمقراطية . . . هيبالاضافة الى التدخل الاداري السافر ، فالاستفتاءات تتم في كل مرة حول موضوعات مختلفة متناقضة يستحيل الاجابة عليها كلها بنعم او لا . . . وتم دون اي حوار حولها ، بل تكرر اجهزة الدعاية والاعلام لفرض رأي الحكومة واجبار المواطنين على التصويت بنعم » جريدة الوطن الكويتية ١/٦/١٩٨٠ . كما ان « العالم كله - وليس المصريين وحدهم - اصبح يعرف كيف يزور الاستفتاءات بطريقة فجحة ومفضوحة ، فنسبة الذين يدلون بأصواتهم عادة لا يتجاوز ١٢٪ من الذين يحق لهم التصويت . والصناديق تملأ بالأصوات المزورة علنا ، والنتيجة دائما ٩٩٩٪ » مجلة دراسات عربية ، العدد (١١) سبتمبر ١٩٨٠ ص ٥٢ .

المادة (٨) : يعاقب بالأشغال الشاقة المؤبدة كل من دبر أو شارك في تجمهر أو اعتصام من شأنه أن يعرض السلم العام للخطر .

ان هذه المواد الثلاث ، لا تحتاج الى مناقشة ، فنصوصها تكشف المراد منها ، رغم الصياغة الضبابية التي توهم انها جاءت من أجل الصالح العام ، في حين انها جاءت لتكبح ولتحاكم جماح الصالح العام (الجماهير) اذا ما فكرت في التحرك ضد النظام الذي يصادر حريتها ويستولي على مصالحها لحساب رموزه .

٢ - قانون العيب :

لم يثر قانون أو قرار في مصر ، ما أثاره قانون « حماية القيم من العيب » من مناقشات حامية ، اتفقت في مجملها - على اختلاف مواقف اصحابها وانتماءاتهم - على رفض هذا القانون ، وقد كان هذا الرفض الجماعي دليلا واضحا على ما شعر به الجميع من خطورة هذا القانون ، وبالذات لانه جاء في فترة يعاني فيها النظام من مآزق متعددة في المجالات الداخلية والخارجية . من الداخل ، تفاقمت الازمة الاقتصادية بشكل واضح ، ادرك معه الشعب استحالة الوصول الى الرخاء المزوم ، الذي يعد به النظام ، رغم توفر دخول مالية جديدة ، وظروء ظروف تمكنه من تحقيق هذا الرخاء ، واهمها :

١ - توقف الحرب منذ تسع سنوات تقريبا ، بمعنى ان النظام لم ينفق خلال هذه الفترة اية اموال على التسليح ، ولم تتحمل الخزينة مصاريف حربية طارئة ، دون ان تتحسن ظروف المواطن الحياتية . وتعود اهمية هذا الظرف الى ان النظام كان يدعي دوما ان سوء الوضع الاقتصادي في البلاد ، يعود الى الحرب المتصلة ضد اسرائيل طيلة ثلاثين عاما ، واهم الجماهير المصرية ان السلام مع اسرائيل هو المدخل للرخاء الاقتصادي والاجتماعي ، انما اكا منه للضغوطات التي يشكلها العامل الاقتصادي على نفسية المواطن المصري . ان مرور تسع سنوات على توقف الحرب مع

اسرائيل ، واربع سنوات على قيام الصلح والسلام معها ، دون تحسن الوضع الاقتصادي للمواطن ، في فترة ما سمي « الانفتاح » بالذات ، جعله يدرك عمليا كذب وعود النظام ، خاصة رؤيته لظهور طبقات طفيلية جديدة، تمكنت من تكوين ثروات طائلة على حساب القوت اليومي للمواطن والبناء الاقتصادي العام للدولة ، وهي الطبقة التي اطلقت عليها الصحافة « القطط السمان » .

٢ - اعادة فتح قناة السويس منذ تسع سنوات ، واصبح دخلها الذي يزيد عن الف مليون دولار سنويا ، مبلغا مضافا للدخل القومي العام، وهو مبلغ لا يستهان به في خطط التنمية الاقتصادية .

٣ - عودة آبار النفط المصرية في سيناء الى الملكية المصرية ، بعد توقيع معاهدتي كامب ديفيد ، وهذا يعني ان هذه الابار العائدة ، اراحت الخزينة المصرية من الاموال التي كانت تنفق لاستيراد الحاجات النفطية ، وبدأت توفير كميات للتصدير ، نصت ملاحق الاتفاقيات المذكورة ، على اولوية اسرائيل في شرائها بالاسعار التجارية (٢) .

ان توفر هذه الظروف الثلاثة ، كان يجب ان يسهم بشكل سريع وواضح في تحسين احوال الاقتصاد المصري بشكل ينعكس على الحياة اليومية للمواطن ، الا انه لاحظ الارتفاع الهائل لاسعار كافة المواد التموينية ورفع الدعم الحكومي عن اغلبها ، مما جعله يتأكد ان مايقال في اجهزة

(٢) نصت مذكرة ملحقة باتفاقيتي كامب ديفيد على انه وفقا للعلاقات الاقتصادية المنصوص عليها في الملحق رقم (٣) .. « يتفق الطرفان على ان هذه العلاقات تتضمن مبيعات تجارية عادية للنفط من جانب مصر لاسرائيل ، ويكون لاسرائيل الحق بان تقدم عروض شراء نفط مصدرة من مصر ، على ان لا يكون مطلوبا لاستهلاك داخلي في مصر ، ويمكن لمصر ولأصحاب امتيازات النفط في مصر ان يدرسوا الاقتراحات التي تقدمها اسرائيل ، على نفس الاساس وبنفس الشروط التي تنطبق على اصحاب العروض الاخرين لشراء نفس النفط » .

الإعلام الرسمية ، وعلى السنة المسؤولين الحكوميين ، عن الرخاء القادم ، مجرد اكاذيب للاستهلاك المحلي ، يقصد منها تخدير المواطن ، ونزع فتيل الغضب والانفجار من نفسيته التي بدأ نقدها واحتجاجها ، يصل الى الشارع عبر النكتة المشهورة بأنها التعبير الجماهيري عن احوال البلاد ، من نواحيها كافة ، ومن خلال عشرات الدوريات والنشرات التي بدأت تجمعات الشباب ، تصدرها في اغلب المحافظات (٤) ، لذلك كان رئيس النظام السادات [تم اغتياله في ٦ أكتوبر ١٩٨١] يؤجل موعد الرخاء المنتظر من عام الى آخر .

أما في الخارج ، فقد وقع النظام المصري في عزلة عربية واسلامية ، وانتقادات عديدة من اطراف دولية ، لان اقدامه على توقيع الاتفاقية الاستسلامية مع العدو الصهيوني ، ثم على حساب التفريط بحقوق الشعب الفلسطيني . وبدأ للجميع في مصر وخارجها ، ان النظام الحاكم قد اعطى للحركة الصهيونية اكثر مما كانت تتوقعه ، لان ماحدث كان مفيرا لمجرى حركة التاريخ ، ايا كانت وجهة النظر التي يتبناها المحلل والدارس . وقد تمثلت عزلة النظام ، وفداحة الجريمة التي ارتكبتها ، عندما تم طرده من الجامعة العربية ، ونقل مقرها الي تونس ، وطرده من منظمة المؤتمر الاسلامي ، ورفض وصول وفده الي مؤتمرها الاول الذي عقد بعد توقيع الاتفاقيات الخيانية ، ذلك المؤتمر الذي انعقد في المغرب في بداية العام ١٩٧٨ ، وقد حاول النظام التسلل الى اوساط المؤتمر عبر ممثله حسن التهامي ، الذي اثبتت الوقائع انه كان وراء اغلب الاتصالات التمهيدية ، التي ادت الي زيارة السادات لفلسطين المحتلة ، وما اعقبها من صفقات خيانية .

لقد وضعت هذه الظروف الداخلية والخارجية ، في موقف حرج ، جعله يقدم منذ فبراير ١٩٧٧ على سن مجموعة من القوانين والقرارات ،

(٤) تحتاج دراسة هذه الظاهرة وقفة اخرى طويلة ، نأمل ان نقدم خلالها وجهها وطنيا مشرفا للثقافة المصرية غير الرسمية .

تهدف اساسا الى تضيق نطاق الحريات ، وقمع الاصوات المعارضة ، سواء كانت لافراد ام لنقابات ام لاحزاب سياسية . وقد كان اخطرها « قانون العيب » الذي يتكون من (٤٤) مادة ، تتعلق بمسؤولية المدعى الاشتراكي عن تأمين حقوق الشعب وسلامة المجتمع ونظامه السياسي ، وامور اخرى ، تدور كلها حول كيفية حماية نظام الحكم واطالة عمره ، عن طريق خنق المعارضة بكافة اشكالها ، وتجريم اعمالها ومواقفها باسم القانون . والقد تعمد واضعو القانون ان تأتي صياغته في عبارات غامضة ، والفاظ مطاطية ، بحيث تسمح بنوده باستيعاب كافة الامور والحالات المعارضة لسياسة النظام ، ووضعها تحت طائلة العقوبة الصارمة . كما ان العديد من هذه الامور والحالات التي حددها القانون ، هي نسبية ، تختلف النظرة اليها من فرد الى آخر ، لانها تتعلق بالقيم والاخلاق ، التي هي في الاساس - ومنذ القديم - امور تختلف مقاييسها باختلاف نزعات الافراد وميولهم ومعتقداتهم ، بالاضافة الى عوامل الزمان والمكان ، المتغيرة دوما .

ان المادة الثالثة من هذا القانون ، تبين سوء النية المسبق لدى واضعه وقصده المتعمد في صياغة ضبابية فضفاضة ، تكون قادرة على استيعاب ومحاکمة كل اقوال المعارضة وافعالها . فقد نصت هذه المادة على مايلي :

« يسأل كل مواطن ارتكب احد الافعال الاتية :

١ - الدعوة الى اي من المذاهب التي تنطوي على انكار للشرائع السماوية او تتنافى مع احكامها .

٢ - الدعوة الى مناهضة قيم الدولة السياسية او الاجتماعية او الاقتصادية او الى كراهيتها او الازدراء بها او الى سيطرة طبقة اجتماعية على غيرها من الطبقات او الى القضاء على طبقة اجتماعية .

٣ - تحريض النشء او الشباب للانحراف نتيجة للدعوة الى التخلي عن القيم الدينية او الخلقية او الوطنية او القدرة السيئة في المجالات العامة .

٤ - اذاعة أو نشر أخبار أو بيانات كاذبة أو محرضة من شأنها إثارة الرأي العام أو بث التحقذ والكراهية أو تهديد الوحدة الوطنية أو السلام الاجتماعي .

٥ - اذاعة أو نشر عبارات أو رسوم شائنة أو متطرفة من شأنها خدش الشعور العام أو النيل من هيبة الدولة أو مؤسساتها الدستورية

٦ - تكوين تنظيم غير مصرح به قانونا أو الدعوة له أو الانضمام اليه أو التخفي وراء تنظيم متى كان الهدف من ذلك كله تهديد الوحدة الوطنية أو السلام الاجتماعي .

٧ - الاذاعة أو النشر في الخارج لأخبار أو بيانات كاذبة أو مفرضة من شأنها الاساءة الى النظام السياسي للدولة أو وضعها الاقتصادي أو التأثير في علاقاتها بغيرها من الدول « .

ويتضح من هذه البنود الواردة في المادة الثالثة ، عدم تحديدها للدقيق الواضح للامور التي يسأل عنها المواطن ، ويحاسب عليها ، بالإضافة الى عموميتها ، التي يمكن ان تحشر فيها كافة الاعمال المعارضة تحت طائلة هذا القانون . فاذا توقفنا امام البند الثاني فقط ، ظهر لنا سوء القصد المسبق من وضع هذا القانون . يقول هذا البند عن امر من الامور التي يعاقب عليها المواطن : « الدعوة الى مناهضة قيم الدولة السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو الى كراهيتها أو الازدراء بها . . . » . ان هذا يعني تجريم أي نقد لسياسة الدولة في المجالات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، لان أي نقد أو تفنيد لاوجه الاهمال والتقصير والتبديد الحكومي غير المشروع ، ينطبق عليه هذا البند . وفي المستوى التطبيقي العملي ، تعني هذه المادة بنصها الوارد في القانون ، انه ليس من حق أي مواطن أو هيئة نقابية أو تجمع حزبي ، ان يرد على بيانات الحكومة ، ويفند مواقفها واعمالها ، لان هذا معناه « مناهضة قيم الدولة » و « ازدراءها » . ان بنود المادة

الثالثة منافية للقيم كافة ، وعدوان صارخ على الحقوق الاساسية للمواطن .

ما العقوبات التي وضعها قانون العيب ، لمن يقع تحت طائلة بنوده ، فهي عقوبات تعيد الى الازهان احكام القرون الوسطى ، وقوانين الاحتلال البريطاني . فقد نصت المادة التاسعة ، على ان من تثبت مسؤوليته وفقا لمادة من مواد هذا القانون ، يحكم عليه بتدبير او اكثر من التدابير التالية :

١ - الحرمان مدة لا تجاوز خمس سنوات من كل او بعض الحقوق الآتية :

أ - الترشيح لعضوية المجالس النيابية العامة او الشعبية او المحلية
ب - الترشيح لرئاسة او عضوية مجالس ادارة التنظيمات النقابية او الاتحادات او الاندية او الهيئات او الشركات المساهمة او المؤسسات الصحفية او الجمعيات التعاونية او الاستمرار فيها .
ج - تأسيس الاحزاب السياسية او الاشتراك في ادارتها او عضويتها .
د - مزاوله النشاط الاقتصادي الذي وقع الفعل بمناسبته ، او الاشتغال بالمهنة الحرة المنظمة بقوانين ، والتي لها تأثير في تكوين الرأي العام او تربية النشء او الاقتصاد القومي .

١ - المنع من الوظيفة العامة مدة لا تجاوز خمس سنوات .

٢ - المنع من مغادرة البلاد مدة لا تجاوز خمس سنوات .

٤ - الزام الشخص بالاقامة في مكان معين او جهة معينة او حصر اقامته او تواجده بها مدة لا تجاوز خمس سنوات .

٥ - منع الشخص من التصرف في امواله كلها او بعضها او ادارتها مدة لا تجاوز خمس سنوات .

ان هذه الاجراءات والعقوبات التي جاء بها قانون العيب ، رغم مخالفتها الاولية الواضحة ، لابسط مبادئ حقوق الانسان ، إلا انها تصر على الامعان في القمع والاضطهاد وكبت الحريات ، خدمة لمصالح النظام الحاكم وبقائه ، فهي تضيف الى ما سبق جواز « مضاعفة الحد الأقصى لمدة التدابير المنصوص عليها في البنود السابقة ، وذلك في حالة العود او اذا ترتب على الفعل الموجب للمسؤولية إضرار بمصلحة قومية للبلاد ، ويعتبر عائدا كل من ارتكب فعلا مما يترتب المسؤولية لاحكام هذا القانون بعد الحكم عليه في المرة الاولى » . ويكفي لبيان ارهاب هذا القانون ، ان نتوقف امام ما يسميه « الاضرار بمصلحة قومية للبلاد » والذي يستوجب مضاعفة العقوبة المذكورة . ما الموقف من قضية « الصلح مع العدو الاسرائيلي » ؟ . يرى النظام الحاكم ، ان هذا الصلح يحقق المصلحة القومية للبلاد ، في حين ان افراد وهيئات واحزاب المعارضة ، ترى في هذا الصلح تفريطا بالحقوق والسيادة المصرية ، وتنكرا للحقوق التاريخية المشروعة للشعب الفلسطيني ، لذلك فهي ترفضه وتقاومه . ان هذا يعني - في مفهوم القانون المذكور - ان كل من يخالف ويتناوىء الصلح مع العدو الاسرائيلي ، سيجد نفسه تحت طائلة عقوبات هذا القانون المشددة والمضاعفة . انه قانون يجرم ويحرم ويمنع ويقمع كل انواع النشاط ، وكما قال بيان حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي: « ان الافعال المحرمة في مشروع هذا القانون ، حسب النصوص الفضاضة الواردة فيه ، يندرج تحتها كل نشاط فكري وفني وادبي وعلمي وسياسي ، يقوم به المواطنون المهتمون بالشؤون العامة . والهدف منه هو قتل كل تحرك ومبادرة لا يوافق عليها الحزب الحاكم (النظام) . كما ان العقوبات الواردة بمشروع هذا القانون تحرم المواطن من اهليته السياسية بمنعه من الانضمام للاحزاب وحق الترشيح للمجالس النيابية والمحلية والنقابات والهيئات وتحرم المواطن من اهليته المدنية وحقه في ادارة امواله وفي بعض الاحوال مصادرتها ، ثم حرمان المواطن من حقوق الانسان الطبيعية بمنعه من السفر الى خارج البلاد وتحديد اقامته في منطقة معينة او منعه من

الإقامة في منطقة معينة . . . وكل هذه العقوبات تخالف الشرائع السماوية والميثاق العالمي لحقوق الإنسان ودستور ١٩٧١ . وهذه العقوبات موجهة ليس فقط للمعارضين السياسيين ، بل موجهة ضد كل من تتعارض مصالحه الاقتصادية وششاطه الاقتصادي مع رجال الحزب الحاكم وقيادته « - من بيان حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي حول هذا القانون - .

لذلك قوبل هذا القانون بمقاومة شديدة من الافراد والهيئات النقابية وغالبية أعضاء مجلس الشعب ، ومن بينهم أعضاء من حزب الحكومة ، اذ ادرك الجميع خطورة هذا القانون ، وقصده المسبق المتعمد خنق الحريات وارهاب كل الاصوات المعارضة لسياسة النظام الحاكم ، وهذا دليل واضح على مأزق النظام الخائق ، وعزلته داخليا وعربيا ، ومدى تخوف الافراد والهيئات والنقابات والاحزاب المصرية من جور هذا القانون وظلمه الواضحين :

■ كان اشد هجوم عليه ، وتفنيده له ، تلك الحملة الواسعة في الصحافة وبين الجماهير ، التي نظمها وقام بها « حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي » . . . ومما جاء في بيان الحزب السابق الذكر . . « ان الحكومة كلما اشتدت عزلتها عربيا وعالميا ، وكلما تعقدت امامها المشاكل الداخلية - نتيجة ما تتبعه من سياسات اقتصادية - لجأت الى مزيد من التشريعات المقيدة للحرية . وقد ازدادت عزلة مصر عربيا واسلاميا وفي العالم الثالث ، بعد ان انتهجت السياسة الجديدة التي جعلتها منحازة تماما الى المعسكر الامريكي والصهيونية العالمية . وقد بدأت في الداخل ايضا موجة التأييد لسياسة الحكم فيما يقال له السلام مع اسرائيل تنحصر ، وبدأت الشكوك حول نتائج هذه السياسة تتزايد ، وبدأت الاصوات المعارضة من اتجاهات كثيرة تتصاعد ، في الوقت الذي تستمر فيه الحكومة وباصرار في دفع ما يقال له تطبيع العلاقات مع اسرائيل دفعا الى مراحل من التنفيذ غير المتأني ، على حين ان اجزاء

من ارض الوطن مازالت محتلة وما تم عنه الجلاء من سناء مازال عاريا من الحماية الحقيقية ، ومازالت السيادة عليه منقوصة . وفي مواجهة ذلك كله وجدت الحكومة نفسها مرغمة على مزيد من اجراءات قمع الحريات وتكميم الافواه ، بل والتفتيش في المعتقدات والاراء والضمانر بنية تجريمها . . . ومن ثم تفتق ذهنها عن مشروع القانون الذي اطلق عليه اسم « حماية القيم من العيب » .

■ الدكتور حلمي مراد(٤) ، كتب مقالا في صحيفة « الشعب » الناطقة باسم حزب العمل الاشتراكي ، فند فيه القانون ، واعتبر الاساس الذي يقوم عليه مشروع القانون ، هو مؤاخذة المواطنين عن قيم غير محددة ، كاتيان افعال ماسة بالمصالح القومية العليا او بالوحدة الوطنية او السلام الاجتماعي . . . وهي عبارات مطاطية هلامية، يمكن تطويع كلام اي انسان لاختضاعه لها . . . فأى بحث عن المتاعب الاقتصادية التي يشكو منها المواطن ، يمكن اعتباره ضارا بسمعة البلاد الاقتصادية او متاجرة بمعاناة المواطنين . . . واي مقارنة بين اوضاع سكان القاهرة واهل الريف ، يمكن ان يعتبر مخلا بالسلام الاجتماعي ، لما يمكن ان يؤدي اليه من اثاره الريفيين ضد المثقفين في في العاصمة . . الخ » .

■ اما كامل زهيري نقيب الصحفيين السابق(٥) ، فقد اعتبر القانون مخلابكل القيم والمبادئ ، لان ما يقال « من ان العقوبات التي ينص عليها القانون لن تكون سوى تدابير مثل الحرمان من الحقوق السياسية او الترشيح الى مجلس الشعب او النقابات ، وكان هذه العقوبة مسألة يمكن التفاضي عنها . . . مع ان الشخصيات العامة ليس لها من راسمال في حياتها سوى سمعتها في المجتمع . وقد يكون الحرمان من الحقوق

(٤) كان ممن شملتهم حملة الاعتقالات الاخيرة قبل اغتيال السادات بايام قليلة .

(٥) كان ايضا من بين المعتقلين في الحملة الاخيرة .

السياسية أشد من السجن الانفرادي ، لانها نوع من السجن المعنوي،
الذي لا يقل ايلاما عن السجن المادي . . . ان سجن الازدهان لا يقل خطرا
عن سجن الابدان » .

■ اما نقابة المحامين ، فقد عقدت ندوة ، تحدث فيها الدكتور محمد
حلمي مراد والدكتور محمد عصفور والاستاذ احمد الخواجة نقيب
المحامين السابق (٦) ، فندوا فيها القانون مادة مادة . كما عقد مجلس
النقابة - قبل حله الاخير (٧) - اجتماعا اتخذ فيه عدة قرارات مترابطة ،
تبدا بمقاطعة التطبيع حتى رفض مشروع القانون ، لما يتضمنه من
عدوان على الحقوق الاساسية للانسان المصري ومخالفة للدستور القائم .
كما عقد مجلس النقابة - قبل حله - اجتماعا طارئا ، اتخذ فيه عدة
قرارات حول الوضع الديموقراطي في مصر ، ودارت اغلب القرارات
حول قانون العيب والقوانين الاخرى المقيدة للحريات ، ومن هذه
القرارات ما يلي :

- ١ - تعديل الدستور بالغاء منصب المدعي العام الاشتراكي .
- ٢ - رفض مشروع قانون حماية القيم لما يتضمنه من عدوان على
الحقوق الاساسية للانسان المصري ومخالفا لنصوص الدستور
القائم .
- ٣ - المطالبة بالغاء حالة الطوارئ لزوال اسبابها .
- ٤ - المطالبة باقامة ديمقراطية سليمة واطلاق حرية تكوين الاحزاب
دون قيود وموانع ، والغاء العزل السياسي .

(٦) كانوا كذلك من بين المعتقلين في الحملة الاخرى .

(٧) ان الطريقة التي التف بها النظام ضد مجلس نقابة المحامين برئاسة احمد الخواجة،
وتعيين مجلس من صفار المحامين الموالين ، يستحق التسع بكامل وقائمه ، لانه
يبين الطريقة القمعية اللاقانونية التي يتعامل بها النظام مع حركة الممارسة .

- ٥ - إلغاء كافة التشريعات المقيدة للحريات .
- ٦ - تشكيل لجنة لاعتماد بيان في القضايا العامة للعمل الوطني ، وينشر بمجلة المحاماة ويتم توزيعه .
- ٧ - اتخاذ موقف وطني صلب في هذه القضايا .



من الامور الخطيرة التي تضمنها قانون العيب محاولته الالتفاف على القضاء المصري ، الذي اثبت نزاهة وصلابة منقطعة النظير ، وكان في حالات عديدة سنداً شرعياً ، يلجأ اليه كل من تزج بهم اجهزة الدولة في قضايا باطلة ، كما لاحظنا موقفه الصلب ، الوطني الواضح ، في قضية المتهمين بأحداث يومي ١٨ و ١٩ يناير ١٩٧٧ ، فمن المؤكد ان حكم محكمة امن الدولة الذي سبقت الاشارة اليه ، شكل صدمة كبيرة ، لاجهزة النظام التي لفتت هذه القضية ، وتوقعت ان تحصل من المحكمة على ادانة للاشخاص الذين تم ضبطهم في هذه الاحداث ، وقد بلغ عددهم (١٧٦) شخصا . وقد جاءت محاولة الالتفاف على القضاء المصري ، عن طريق سلبه بعض صلاحياته ، واحالتها الى ما عرف في القانون باسم « محكمة القيم » ، وبالذات القضايا التي يرى المدعي العام الاشتراكي انها مخالفة للقيم . وموضوعة القيم - كما قلنا - نسبية ، وبامكان المدعي العام الاشتراكي ان يحشر فيها كافة الامور التي تتعرض لنقد خطط النظام ومواقفه .

لقد نصت المادة (٥٦) من القانون المذكور على تشكيل هذه المحكمة من سبعة اعضاء : اربعة من اعضاء مجلس الشعب ، وثلاثة من مستشاري محكمة النقض ، وتصدر المحكمة احكامها بالاغلبية المطلقة ، ويكون الحكم نهائياً غير قابل للطعن بأي طريقة من طرق الطعن . وقد شكك الدكتور حلمي مراد في شرعيتها القضائية لانها تضم افراداً من خارج الهيئة القضائية ، وهم افراد مجلس الشعب ، لذلك فهي لا تعتبر

هيئة قضائية ، انما تعتبر من الناحية القانونية لجنة ادارية ذات اختصاص قضائي ، يجوز الطعن في قراراتها امام القضاء الاداري . . . بل انها هيئة غير دستورية ، لان مجلس الشعب ليس له ولاية قضائية طبقا للدستور الذي حدد اختصاصاته ، وليس من بينها اصدار قرارات جزائية على المواطنين ، ويعتبر هذا عدوانا على اختصاص السلطة القضائية وهي سلطة مستقلة . . فضلا عن ان اعضاء مجلس الشعب الذين سيجلسون بمجلس القضاء ، في هذه المحكمة الخاصة ، سيختارون في غالبيتهم ان لم يكونوا كلهم من حزب الاغلبية الحاكم ، فكيف يتولون محاكمة المواطنين من خصومهم السياسيين ، فيكونون بذلك خصما وحكما ، وهو ما يخالف الاصول المرعية في المحاكمات ، بل يعد انتهاكا لحقوق الانسان التي نص عليها الاعلان العالمي الصادر عن الامم المتحدة ، والذي يقضي بأن من حق كل انسان ان توفر له محاكمة محايدة نزيهة . اما بيان حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي ، فقد اعتبر تشكيل المحكمة ، بهذه الطريقة ، التي احوالت اليها بعض اختصاصات القضاء ، عقابا للقضاء المصري ، لانه وقف في جملة مواقف تحمي الحرية وتحافظ على الدستور وترعى حدود القانون ، لذلك يراد له ان يعاقب وان يحرم من بعض وظائفه في اخطر مجالاتها وهو مجال حماية حريات الناس وحقوقهم الدستوري في التعبير .

ان المتتبع لمسيرة النظام الحاكم في مصر ، يلاحظ انه منذ وصوله للسلطة في مايو ١٩٧١ ، كان يعمد دوما الى سن القوانين والتشريعات ، التي تحاكم وتضبط الاتجاهات المناوئة له ولمواقفه . بمعنى انه يضيق على الحريات ، ويقمع الاتجاهات الكاشفة لفساده واخطائه ، باسم القانون ، وفي مرات عديدة ، يضيف على هذه القوانين ، صفة الجماهيرية عن طريق الاستفتاءات الشعبية ، مع « تجاهل كل الاصول الدستورية والفنية التي ولا بد ان تصاحب الاستفتاءات سواء من حيث الموضوع او من حيث الشكل » ، كما لاحظ بيان لحزب التجمع . ويكفي في مجال مصادرة الحريات وأشكال التعبير باسم القانون ، ان نذكر المسلسل

الامني - القضائي ، الذي اتبعته اجهزة الحكم عام ١٩٧٨ مع جريدة « الاهالي » الناطقة باسم حزب التجمع ، حيث كان يتم ضبط العدد المطبوع ، وهو ما يزال في المطبعة ، بناء على ما يسمى « بلاغ من احد العاملين في المطبعة » يخبر ان العدد المطبوع ، يتضمن مقالات تخل بأمن الدولة ، فتتحرك اجهزة الامن لضبط العدد ، والاستيلاء عليه ، ثم تتقدم بمذكرة لنيابة ، تطلب اقرار اجراءات الضبط ، واحالة الجريدة للمحكمة ... وخلال هذه العملية وما يصاحبها من اجراءات ، يحال دون توزيع العدد ، وبوصوله الى المواطنين . وقد تكررت هذه المسرحية - الامنية ، مع ما يزيد على عشرة اعداد من الجريدة ، حتى اضطر الحزب لوقفها عن الصدور ، بعد ان تأكد ان هذه المسرحية ستستمر مع كل الاعداد ، ويدعي النظام بعد كل ذلك انه لم يوقف الجريدة ، بل ان الحزب هو الذي اوقف صدورها . وأوضح ان هذه الاجراءات تقوم على تجاوز اجهزة الامن ونيابة امن الدولة للتطبيق القانوني الصحيح للمواد التي استندوا اليها من اجراءات الضبط ، اذ تشترط هذه المواد « ركن العلانية » ، في حين ان الجريدة كانت تصدر في المطبعة قبل ان توزع او تطرح للبيع ، اي قبل تحقق العلانية التي يشترطها القاسون .

٣ - قانون الصحافة الجديد

هذا القانون ، هو آخر القوانين التي الحققت بترسانة القوانين والتشريعات ، التي سلح بها السادات اجهزة نظامه ، لتطويق مرحلة ما بعد كامب ديفيد . ان لجوء النظام الى هذا التطويق المسلح بقرارات تصفية غير قانونية ولا شرعية ، يدل على تأكد النظام من ان اتفاقيتي كامب ديفيد ، لا تحظيان بهوافقة وتأييد الشعب المصري ، رغم الاستفتاء المزعوم الذي جرى حولهما . ان قانون الصحافة الجديد ، دائل اخر ، على ان النظام يخشى الكلمة الملزمة ، المعبرة عن طموحات الجماهير وتطلعاتها . ان النظام الذي يحسب حساب الكلمة المعارضة ، فيسن

القوانين والقرارات لشاها ، يدلل على ان خطواته ومواقفه تسير بشكل معارض للمواقف التي يؤيدها شعبه ، كما ان هذا النظام يكون قد وصل الى قمة ضعفه ، بحيث اصبحت الكلمة تؤثر في جداره ، وتندو بانها سلاح فعال من اسلحة هدمه وتقويضه . ويبدو ذلك من دراسة بعض النواحي في قانون الصحافة الجديد :

اولا : يهدف قانون الصحافة الجديد الى تطبيق كافة انواع النقد لسياسة النظام عن طريق وضع الصحافة في قيود لا تمكنها من القيام بدور الناقد والمفند لخطوات النظام وسياساته ، وذلك بتضييق حاسم محدد على حرية الصحفي . لذلك فان اول ما يلاحظ على القانون ، هو انتهاء حرية الصحافة ، وضعها في القالب الذي يناسب سياسة النظام . وقد قيد حرية الصحافة ، بوسائل متعددة ، عبر مواد مختلفة تضمنها . فقد نصت المادة الثالثة منه على . . . « الصحفيون مستقلون ولا سلطان عليهم في اعمالهم لغير القانون » . ان الاستقلال الذي نص عليه في هذه المادة استقلال شكلي ، لان القانون الذي اعتبرته المادة السلطان الوحيد على هذا الاستقلال ، يقيد الحرية الصحفية ، وهي السمة الاساسية للاستقلالية المنصوص عليها . فحسب المادة المذكورة ، يتوجب على الصحفي المصري ان يمارس استقلالية في حدود القانون ، وقد كان النظام يعرف ان القوانين القديمة والجديدة كفيلة بان تضيق الخناق على حريته ، وتحد من هذه الحرية بطريقة تجعله لا يجرؤ على نقد النظام وممارساته والا فسوف يقع تحت طائلة هذه القوانين ، التي درسنا بعضها ، وراينا ما فيها من جبروت وطقيان . ويكفي لبيان هذه الاستقلالية المزعومة ، التي تقيد القوانين ، وتقمع صاحبها القرارات ، ان نذكر بعض مواد هذه القوانين ، التي ترتبص بالصحفي ، ان هو فكر في استخدام حقه في « الاستقلالية » .

■ تنص المادة الرابعة من قانون رقم (٣٤) لسنة ١٩٧٢ بشأن الوحدة الوطنية على ان « يعاقب بالحبس كل من عرض الوحدة الوطنية للخطر » ، بان لجأ الى العنف ، او التهديد ، او اية وسيلة اخرى غير مشروعة

مناهضة السياسة العامة المعلنة للدولة ، أو للتأثير على مؤسساتها السياسية والدستورية في اتخاذ قرار بشأنها » .

ان هذه المادة تعني ان اي انتقاد لاتفاقيتي كامب ديفيد ، اللتين وقعهما السادات ونظامه مع العدو الصهيوني ، يعتبر مناهضة لسياسة الدولة العامة المعلنة ، وهو بالتالي يهدد الوحدة الوطنية ، ويعرضها للخطر . لان مجرد النقد والهجوم على هذه الصفقات غير المشروعة الممتدة من محادثات الكيلو (١٠١) حتى الاتفاقيات الاخيرة ، يعتبر من الوسائل التي يقع صاحبها تحت طائلة المادة السابقة .

■ اكد قانون الجبهة الداخلية والسلام الاجتماعي (قانون رقم ٣٣ لسنة ١٩٧٨) ما سبق ان ادانته المادة السابقة ، فقد تناولت المادة التاسعة منه العقوبات الخاصة بالجنح التي تقع بواسطة الصحفي على ما ينشره او يذيعه اي مصري في الخارج ، اذا كان من شأنه المساس بالمصالح القومية العليا للبلاد ، او فساد الحياة السياسية ، او تعريض الوحدة الوطنية والسلام الاجتماعي للخطر .

ان هذه المادة من قانون (٣٣) لسنة ١٩٧٨ ، بالاضافة الى تأكيدها على ما تدينه مواد قانون رقم (٣٤) لسنة ١٩٧٢ ، فانها تأتي في صياغة ضابطة غير محددة ، كي تتمكن اجهزة النظام من حشر كافة اعمال المعارضة وأقوالها ، تحت طائلة العقوبات المنصوص عليها ، فهي لم تحدد المقصود ب « المصالح القومية العليا للبلاد » ، وبالتالي فان هذه العمومية غير المحددة ، تفرض تساؤلات عديدة ، منها :

١ - هل اعطاء الولايات المتحدة الامريكية تسهيلات عسكرية في الاراضي المصرية ، يتسجم مع المصالح القومية العليا للبلاد ؟

٢ - هل كشف الطبقات الطفيلية التي افرزتها مرحلة الانفتاح عقب حزب أكتوبر ، وبيان كيفية ثرائها غير المشروع ، يعرض الوحدة الوطنية والسلام الاجتماعي للخطر ؟

ج - هل عزل بعض الافراد المعارضين للسلطة من العمل السياسي
 ينسجم مع مفهوم الوحدة الوطنية ؟ الا يعرض هذا العزل السلام
 الاجتماعي للخطر ؟ .

وتساؤلات أخرى عديدة ، تبين بوضوح أن كافة الامور التي هي من
 صميم عمل الصحفي ومسؤوليته تجاه وطنه ومواطنيه ، لا يمكن له
 بحال من الاحوال ، ان يعطي رايه فيها ، لان مواد القوانين ، تجرمه ،
 وتضعه في موقف مناوئ لمصلحة البلاد العليا . وهكذا فان ما يمثل
 مصلحة البلاد من وجهة نظر الصحفي الوطني ، يعتبر من وجهة نظر
 النظام واجهزته ، اخلاا وتفريطا بهذه المصلحة ، يستحق عليها
 العقوبات الشديدة . لذلك ، فان حرية الصحفي واستقلالته مرهونة
 بأفق النظام وقوانينه .

ثانيا : يتناول قانون الصحافة الجديدة ناحية مهمة ، تتعلق
 بحياة المواطن والضمانات المتوفرة له ، فيضعها ضمن المحظورات التي
 لا يسمح للصحافة بتناولها . فقد نصت المادة الثامنة على انه « يحظر
 على الصحيفة تناول ماتتواه سلطات التحقيق او المحاكمة بما يؤثر على
 صالح التحقيق او المحاكمة او بما يؤثر على مراكز من يتناولهم التحقيق
 او المحاكمة » . يتضح من هذه المادة ، أن النظام الحاكم قصد منها عدم
 تدخل الصحافة في معالجة القضايا ذات الطابع السياسي والجماهيري ،
 التي تكون قيد التحقيق او في المحكمة ، بحجة عدم التأثير في سير المحاكمة ،
 في حين أن الفرض هو ضمان عدم تاليب الجماهير وتوعيتها ازاء مثل
 هذه القضايا ، خاصة ان المعارضة السياسية ، تحاول دوما اللجوء الى
 القضاء المصري ، ازاء مخالفات النظام ، وما يلحق عناصرها من غبن
 وظلم . بالاضافة الى هذا تنص المادة المذكورة على « تلتزم الصحيفة
 بنشر بيانات النيابة العامة » . والمعروف ان بيانات النيابة العامة لا ترقى
 الى مستوى الاحكام القضائية . ما الذي قصده النظام من حظره على
 الصحف تناول القضايا التي قيد التحقيق او في المحكمة ، مع الزام
 الصحف بنشر بيانات النيابة العامة ؟ . ان هذا يعني نشر الراي الذي

تبناه الحكومة وأجهزتها الامنية ، فالنيابة العامة تمثل تصور الدولة وبياناتها تعكس رأيها في القضايا المطروحة ، في حين ان الصحافة الحرة مفتوحة لكافة الآراء ، وبالذات الاشخاص أو الهيئات التي لها علاقة بالقضايا المطروحة في المحاكم . وبالامكان تصور الفرق الكبير بين رأي النيابة العامة ورأي الصحافة الحرة في قضية محددة ، هي انتفاضة ١٨ و ١٩ يناير ١٩٧٧ . لقد تم اللقاء القبض على (١٧٦) شخصا ، اتهمتهم نيابة أمن الدولة بأنهم كانوا وراء حوادث هذه الانتفاضة ، من خلال انتماء غالبيتهم الى الحزب الشيوعي المصري وحزب العمال الشيوعي ، وتوالت بيانات النيابة العامة ، تزج بالعديد من التهم حولهم ، وتحرض الرأي العام ضدهم ، مؤكدة أنها أمسكت معهم الاوراق والمنشورات التي تثبت ادانتهم بافتعال الحوادث خدمة لمصالح جهات اجنبية . هذا في حين تصدت صحيفة « الاهالي » الناطقة بلسان حزب التجمع التقدمي الوحدوي (٨) ، لتلك الافتراءات ، مركزة على الاسباب الاقتصادية التي حركت انتفاضة الجماهير بشكل عفوي ، بعيدا عن أي تخطيط مسبق ، وقد اثبتت افتعال أجهزة أمن الدولة للعديد من حوادث التخريب ، لتبرر قمع الانتفاضة بالقوة . وقد استمر الحال على هذا الوضع : النيابة العامة تصر على التهم المنسوبة للمعتقلين ، وحركة المعارضة تؤكد براءتهم ، حتى جاء حكم المحكمة في ١٩ ابريل ١٩٨٠ ، وقضى ببراءة كل المتهمين ما عدا (١٩) منهم ، تراوحت الاحكام الصادرة بحقهم بين سنة وثلاث سنوات .

ان هذه البراءة الجماعية للمعتقلين في هذه القضية ، يثبت خطورة الامر ، عندما يقتصر في بيان حقيقة قضية ما ، على بيانات النيابة العامة ، لانها تعرض الموقف والرأي الذي يخدم سياسة الدولة ووجهة نظرها ، حتى لو كان ذلك على حساب تزييف الوقائع والحوادث . في هذه القضية ، نرى انه لو اقتصر في بيان الحقيقة على بيانات النيابة

العامة ، دون الرد عليها وتفنيدها ، في صحف المعارضة ، لكان الحكم مختلفا ، لان وجهة النظر الاخرى التي بسطتها المعارضة ، واصرارها على التحري الدقيق ، والتحقيق العادل ، هما اللذان اوحيا الى هيئة المحكمة بسماع أكبر عدد من الشهود ، والتدقيق في اقوالهم بشكل يخدم معرفة الحقيقة ، وقد اواصل هذا الامر هيئة المحكمة الى حقائق وحيثيات لا تختلف كثيرا عما كانت تعرضه حركة المعارضة ، فقد أكد الحكم المذكور عدة امور :

أ - انتهاء المحكمة من دراسة الظروف التي أحاطت باحداث هذين اليومين الى انها كانت نتيجة مباشرة لقرارات رفع الاسعار ، وحدثت بصورة تلقائية دون تحريض أو استفلال للموقف .

ب - تعتمد أجهزة الدولة المباحية التضييل والزج بالعشرات في هذه القضية ، دون الاعتماد على معلومات دقيقة محصنة ، كما أكد حكم المحكمة على أن التحريات المقدمة من مباحث أمن الدولة ، تنتمي الى مصادر مجهولة مما يجعلها موضعاً للظن ، وقد اتسمت بطابع العجلة التي أفقدتها ما ينبغي لها من دقة وتمحيص ، ثم أنه قد عراها التناقض والتضارب والغموض ، بدليل أن أذون الضبط والتفتيش شملت المئات من الاشخاص ، واذا بالنيابة العامة تستبعد جل هؤلاء الاشخاص ، فلم تستبق منهم في مجال الاتهام الا (١٧٦) شخصا .

ح - وجهت حيثيات الحكم نقداً حاداً للنيابة العامة لقيامها في كثير من الاحيان باجراء التحقيق خارج مبنى النيابة ، سواء في مبنى هيئة الامن القومي أو في مبنى مباحث أمن الدولة أو في سجن القلعة وغيره من السجون ، مما لا يشعر المتهمين بالطمأنينة عند مباشرة التحقيق معهم .

د - أشارت حيثيات الحكم الى ان الكمية الهائلة من الكتب والصحف والنشرات المضبوطة مع المتهمين ، والمقدمة على انها وثائق إدانة لهم ،

اسفر فحصها عن انها كتب يتم عرضها للبيع والشراء بالاسواق ، كما يتم تداولها بين الناس ، فهي اذن كتب مباح شراؤها واقتناؤها لمن يريد من الافراد دون قيود ، اذ ليس بالاوراق دليل على منعها من التداول ، وبالتالي فان جيازتها لا تشكل جريمة .

هـ - هاجمت حيثيات الحكم شاهد الاتهام الرئيسي محمد حاتم زهران ، رئيس قسم الحركة بـسنترال شبرا ، ووصفته بأنه شاهد متلون ، لا يستقر على حال ولا يثبت على رأي ، واستعرضت تناقض اقواله وعدوله المستمر عنها ، وقالت ان ما فعله (اجترأ على اخلاقيات الشهادة امام جهات التحقيق) ووصفت موقفه بأنه (مثال للعبث وصورة شائنة لمن يتجرد مما تفرضه آداب واخلاقيات ونزاهة الشهادة امام جهات القضاء ..) .

ان هذه الحيثيات الواردة في حكم محكمة امن الدولة العليا ، بصدد قضية المتهمين في أحداث انتفاضة ١٨ و ١٩ يناير ١٩٧٧ ، وأغلبها يفند ما جاء في بيانات النيابة العامة وتحريات مباحث امن الدولة ، ويتطابق تماما وجهة نظر المعارضة ، يوضح خطورة الاقتصار في مثل هذه القضايا على بيانات النيابة العامة . لذلك فان قانون الصحافة الجديد ، عندما حظر على « الصحافة تناول ما تتولاه سلطات التحقيق » قد كان يقصد خدمة الحيثيات التي تقدمها أجهزة الدولة في القضايا المعروضة على سلطات التحقيق والمحاكم ، وحرمان الراي العام المحلي من سماع وجهات النظر المعارضة لراي الحكومة ونيابتها .

ثالثا : يتولى قانون الصحافة الجديد التطويق المسبق لصحافة المعارضة ، اذ يضع القيود التي تحول دون تمكن المعارضة السياسية من اصدار الصحف المعبرة عن وجهة نظرها ، وذلك من خلال وضع العوائق المالية والاعتبارية . فقد نصت المادة (٩١) على « الا يقل رأسمال الشركة المدفوع عن مائتين وخمسين الف جنيه اذا كانت (الصحيفة) يومية ومائة الف جنيه اذا كانت اسبوعية ، يودع بالكامل قبل اصدار

الصحيفة في احد البنوك المصرية « . ان هذا الشرط المالي ، يعتبر في اغلب الاحوال تعجيزيا لا يتوفر لافراد المعارضة ، في حين ان القانون يعتبره شرطا أساسيا لاصدار الصحيفة . اما الناحية الثانية من التطويق المسبق ، فهي الجانب الاعتباري - الشخصي ، الذي حددت المادة (١٨) من خلاله الفئات التي يحظر عليها اصدار الصحف او الاشتراك في اصدارها او ملكيتها بأية صورة من الصور ، وهي :

- ا - المنوعون عن مزاوله الحقوق السياسية .
- ب - المنوعون من تشكيل الاحزاب السياسية او الاشتراك فيها .
- ج - الذين ينادون بمبادئ تنطوي على انكار للشرائع السماوية .
- د - المحكوم عليهم من محكمة القيم .

فالشرطان الاول والثاني ، يعزلان كافة افراد وجهات المعارضة ، ويحولان دون اصدارهما او اشتراكهما في اصدار وملكية الصحف . اما الشرط الثالث فهو للاستهلاك المحلي ، ولبيان غير النظام على الدين ، اذ ليس هناك من ينادي بانكار الشرائع السماوية ، ومنذ عرفت مصر الطباعة والصحافة لم نسمع عن صحيفة تصدر لتنادي بانكار الشرائع السماوية ، لان الجميع - وبالذات الكتاب والصحفيون - يدركون ان مجتمعنا العربي ، لا يتقبل هذه الدعوات ، ولا يرحب بأصحابها . اما الشرط الرابع فهو لزيادة المساحة التي يشملها حظر اصدار الصحف ، لان الاشخاص المحكوم عليهم من محكمة القيم ، هم الاشخاص الذين جاء (قانون العيب) لمحاصرة اقوالهم وافعالهم ، وراينا مدى تصسف هذا القانون ، واتعمده المسبق لسد كل الثغرات التي يمكن النفاذ منها لنقد سياسة الحكم ومواقفه ، وبالذات في مرحلة ما بعد كامب ديفيد .

رابعا : أما فيما يتعلق بالصحف القائمة فعلا ، والتي اسمها قانون الصحافة الجديد (الصحف القومية) و « يقصد بها المؤسسات الصحفية المملوكة ملكية عامة » وهي « الجمهورية والساء والايخبار

والاهرام » ، فقد نقل القانون ملكيتها من الاتحاد الاشتراكي الى مجلس الشورى ، الذي تشكل ليتولى الاشراف على الصحافة القومية ، حسب المادة (٢٣) التي نصت على « أن المؤسسة الصحفية القومية مملوكة ملكية عامة ويمارس حقوق الملكية عليها مجلس الشورى » . ويضمن النظام ، بهذه الملكية الجديدة ، السيطرة الكاملة على هذه الصحف ، وتجييرها لخدمة وجهات نظره ، لان مجلس الشورى تم تشكيله عن طريق انتخاب ثلثي أعضائه وتعيين الثلث الآخر ، وهو « بحكم هذا الوضع مجلس تابع للحزب الحاكم - وهو منشأ بالاساس حيث لا قرار له ليتولى ملكية الصحافة القومية » (٩) . ومن المفيد أن نذكر أن بعض احزاب المعارضة قاطعت انتخابات هذا المجلس . والضمان السيطرة الحكومية الكاملة على هذه الصحف ، حدد القانون الجديد تشكيل مجلس ادارة الصحيفة القومية ، بطريقة تجعل للدولة الاشراف الكامل على كل ما يجري في (الادارة والتحرير) ، اذ نصت المادة (٣٠) على أن يشكل مجلس الادارة من (١٥) عضواً على الوجه التالي :

- ١ - رئيس مجلس الادارة ويختاره مجلس الشورى .
 - ب - ستة من العاملين بالمؤسسة يتم انتخابهم بالاقتراع السري المباشر على أن يكون اثنان من الصحفيين واثنان من الاداريين واثنان من العمال ، وتنتخب كل فئة ممثلها .
 - ج - ثمانية أعضاء يختارهم مجلس الشورى على أن يكون من بينهم أربعة أعضاء على الاقل من ذات المؤسسة الصحفية .
- ويتضح من هذا ، أن تسعة أعضاء من مجلس ادارة الصحيفة المكونة من خمسة عشر عضواً ، يختارهم مجلس الشورى ، في الوقت الذي

(٩) عبد المنعم الغزالي - قانون صحافة كاسب ديفيد ، بحث من بحوث المؤتمر التضامني مع الصحفيين المصريين الذي عقد في باريس في اغسطس ١٩٨٠ ، ونشرت بحونه الأمانة العامة لاتحاد الصحفيين العرب .

تنص فيه المادة المذكورة على ان « تصدر القرارات بأغلبية آراء الحاضرين ، وعند التساوي يرجح الجانب الذي من بينه الرئيس » .

ان هذا يعني - في التطبيق العملي - تحول الصحف القومية الى وسائل مجرة بالكامل لخدمة الدولة وسياساتها ، في وقت أصبح - تبعا للقانون الجديد - ليس من السهل على المعارضة السياسية أن تصدر صحفها الخاصة ، التي تستطيع من خلالها طرح وجهات نظرها ، وهذا من شأنه أن يترك الراي العام المصري تحت تأثير اعلام السلطة ، التي تسيطر أيضا على الاذاعة والتلفزيون . هذا بالاضافة الى العديد من نواحي التقييد والحظر وضرب الحريات ، تضمنها القانون الجديد ، خدمة لسياسة الدولة وتوجهاتها في هذه المرحلة ، لان النظام يعي تماما أنها توجهات معادية لارادة الجماهير ، لذلك لا بد من كبت كافة اصوات المعارضة .

ردود فعل الثقافة الوطنية :

ان الظروف السابقة ، التي بدأت تحكم الحصار على الصحافة والثقافة في مصر ، اثارت العديد من مواقف الكتاب الوطنيين ، الذين ادركوا خطورة هذا النهج السياسي ، وتنظيراته الاعلامية ، فكان أن عمدوا لمواجهة هذه الردة الخيانية ، الى تشكيل « لجنة الدفاع عن الثقافة القومية » ، التي تكونت بمبادرة من حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي ، واتضم في عضويتها غالبية مثقفي مصر الوطنيين ، على اختلاف انتماءاتهم الفكرية والسياسية ، وذلك إثر اجتماع عقده في ٣١ مارس ١٩٧٩ . لقد ادرك هؤلاء المثقفون حجم الخطر المحدق بالثقافة العربية في مصر ، لذلك يؤكد برنامج اللجنة على ضرورة التصدي للمنطلقات الفكرية المعادية ، ويرصد البرنامج المنطلقات التي تهدد مقومات الشخصية العربية في مصر ، وذلك بقصد اقامة جدار متين من الثقافة الوطنية ، يتصدى لحركة الجزر والثقافة المستسلمة للاوطنية ، لان الاقلام التي تنظر لخدمة الخط المستسلم ، في اوساط الكتاب المصريين ، تمثل

خطرا حقيقيا ، فتأثيرها في الشارع المصري ، أكثر من تأثير الاقلام الوطنية ، بحكم أن الاولى (المستسلمة) تسيطر على كافة الصحف القومية ، وفي خدمتها الاذاعة والتلفزيون أيضا ، وهما جهازان خطيران في غالبية دول العالم الثالث ، حيث يتضاعف تأثيرهما بحكم نسبة الامية العالية .

ان تكثيف العمل في داخل مصر ، لمواجهة خطر انتشار مفاهيم الاستسلام في صفوف الكتاب والمثقفين ، أمر له أهمية خاصة ، إذ « ما من ثقافة قومية عانت الهزيمة الا اذا استشمرت هذه الهزيمة في أعماقها ، ومن داخلها ، أو اقرت بتفوق الثقافة الغازية عليها، واستسلمت لهذا التفوق . وما من شخصية قومية تنهزم الا اذا بذرت بذور الهزيمة فيها مفكروها ومثقفوها وذوو الرأي فيها ، ورسخوا في وعيها الاحساس بالدونية » (١٠) . ان الراصد لافكار الثقافة اللاوطنية المستسلمة ، يدرك ان هذه الثقافة حددت المنطلقات التي تنطلق منها الثقافة الوطنية ، وأهم هذه الافكار والمنطلقات التي تصدت لها الثقافة الوطنية ، مجموعة من الاكاذيب تشكل محور تحرك الاعلام الرسمي اللاوطني ، وأهمها :

أولا : الادعاء بأن مصر حاربت ثلاثين عاما من أجل القضية الفلسطينية ، خسرت فيها حوالي ستين الفا من الشهداء ، في الوقت الذي كانت بقية الاقطار العربية منصرفة الى مشاغل أخرى ، وان هذه الحروب المتصلة هي سبب الفقر وتدني المستوى المعيشي للمواطن المصري، وقد آن الأوان كي تستريح مصر وشعبها من هذه الحروب التي لم تجلب لها غير الخراب والفقر والدمار .

ثانيا : ان الولايات المتحدة الامريكية تملك ٩٩٪ من أوراق حل قضية الشرق الاوسط ، وقد كان بإمكانها المساهمة الفعالة في حل هذه القضية ، لولا ان النظام السابق (عهد عبد الناصر) ناصبها العدا

بدون مبررات موضوعية ، مما جعلها تنحاز كليا للطرف الآخر (العدو الصهيوني) ، بدليل أنها تقوم الآن بدور الشريك الكامل في مفاوضات الحل ، متخذة موقفا موضوعيا لا ينحاز لطرف من الاطراف .

ثالثا : ان وجود دولة اسرائيل في المنطقة العربية أمر واقعي ، لا محيد عن الاعتراف به ، والانسجام مع ما يتطلبه هذا الاعتراف ، من إنهاء روح العداء والخصام ، والبدء بمرحلة جديدة تحطم الحاجز النفسي الذي يحول دون التفاهم والتعايش مع هذه الدولة .

رابعا : ان السلام يحتاج من الشجاعة والمقدرة ما لا يقل عما يحتاجه الحرب منهما ، وقد أثبت انتصار حرب أكتوبر امكانية الانطلاق في التعامل مع دولة اسرائيل من موقع الند ، بعد ان أزال هذا الانتصار كل العقد النفسية ، فلم يعد للاسرائيليين الحق في التصرف مع الآخرين ، على اعتبار أنهم القوة التي لم تقهر ، كما أن الذي يخطو نحو السلام من موقع الند والقوة ، يدلل على خلفية حضارية ، ومصر تتمتع برصيد حضاري عمره سبعة آلاف سنة يؤهلها لهذا الموقف بجدارة .

خامسا : ان الامر الواقع المتمثل في وجود دولة اسرائيل ، واعتراف اغلبية دول العالم بها ، وحماية الولايات المتحدة الامريكية المستمر لهذا الوجود ، يجعل من الشجاعة والعقل ، أن ننظر الى القضية الفلسطينية نظرة جديدة ، اذ هناك فرق بين « الحقوق التاريخية » للشعب الفلسطيني ، وما يمكن الوصول اليه من هذه الحقوق ، في ظل الامر بالواقع ، وموازين القوى الدولية الراهنة . وهذا يعني الامتثال للامر الواقع ، والظروف المعاصرة ، بحيث يصبح الهدف النهائي هو الوصول الى دولة فلسطينية في القطاع والضفة ، عبر عدة مراحل ، يتفق عليها خلال المفاوضات التي تجريها الاطراف ذات العلاقة .

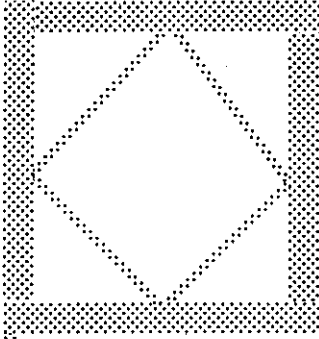


أن المفاهيم المضللة السابقة ، التي تشكل الملامح السياسية والفكرية لمرحلة « تطبيع العلاقات » ، تحاول الآن أن تكون لها تياراً بين الكتاب والصحفيين المصريين ، إذ أنها بدون هذا التيار الذي يتبناها ويروج لها ، لا يمكن لأجهزة الإعلام الرسمية تحقيقها بسهولة ، وجعلها ثقافة سائدة في الشارع المصري . لذلك فإن التيار الوطني التقدمي في الثقافة والصحافة المصرية ، في داخل مصر بالذات - يجعل من مهماته الأساسية التصدي لهذه المفاهيم ، لبيان تزيفها لحقائق التاريخ ، وقفزها عن الغديد من الاعتبارات ، وتفسيرها للوقائع بطريقة تستغل فيها معاناة الجماهير وضائقتها الاقتصادية التي هي من صنع النظام ، وفساد سياساته . أن هذا التصدي الوطني ، يشكل في المجال الثقافي المصري ، تياراً واضحاً ، يناضل بصلاية ، مثبتاً أن الانتماء الوطني العربي ، بوجهه التقدمي ، هو الصفة الأساسية لغالبية الكتاب والمثقفين في مصر ، وأن سقوط أفراد قلائل ، لا يغير هذه الصفة(*) .

* * *

(*) يحتاج هذا التيار الوطني التقدمي إلى الثقافة المصرية إلى دراسة مفصلة ، توضح هوائيه الفكرية ، ونضالاته في الشارع المصري .

الغزو الثقافي الامبريالي
الصهيوي للامة العربيه
محور



الياس مرقص

الغزو الثقافي في الوطن العربي
وخلق أدوات المقاومة

د. هاني الراهب

الثقافت الصهيونية. ماهي؟!

د. صالح أبو أصبع

وسائل الإعلام الغربية
والإنسلا ب الثقاف
لماذا تؤثر؟
وما أشكال التأثير المتوقعة؟

د. علي فهمي خشيم

أجذور التاريخية للغزو الفكري
في صدر الإسلام
نماذج وآثار

الغزو الثقافي في الوطن العربي وخلق أدوات المقاومة

الياس مرقص

الانسان هو الانسان الصانع والعامل ، الفاعل والعارف ، انسان العمل والوعي والاجتماع والانتاج ، انسان الحضارة والثقافة ، والنقل بمطلع خلدوني : انسان العمران .

كل البشر الحاليين ينتمون الى نوع بشري واحد ، يدعى « الانسان العاقل » يملك ، منذ ظهوره ، خصائص نفسية واحدة وامكانيات ذهنية واحدة ، وما التاريخ ، اذا التقدم ، سوى بسط متنوع لهذه الخصائص وهذه الامكانيات . فالبشر منذ اقدم الازمنة ، جماعات مختلفة تعيش في مناطق مختلفة ، تحت سماءوات مختلفة ، تتكلم لغات مختلفة ، وتدخل فيما بينها في تبادلات مختلفة .

غير ان هذا الاختلاف في الزمان - تقدم ، وايضا تفهقر - وهذا الاختلاف في المكان - قبائل وشعوب وقوميات مختلفة - لا يجوز ان يحجب الهوية الانسانية . اجل ، وان ادراك هذه الهوية الواحدة المساواتية يفترض درجة عالية من التجريد ، لكن هذا التجريد الكلية انما يحمله الاختلاف والتنوع ولا يقوم علم حقيقي بدون ذلك . فلا علم الا بالكليات كما يقول الاقدمون ، وغني عن التذكير بان هذا المستوى المساواتي مؤيد وباصرار في الدين التوحيدي :

البشرية ذرية آدم ، هذا ما رفضه هتلر ، مثلا ، النازية ، المذهب العرفي ، ان حرب النازية ضد الدين التوحيدي يجب ان تفهم ، ويجب ان توعى ابعادها ، هذه قضية راهنة . « خصائص نفسية واحدة » ، اقصد ، على سبيل المثال ، اننا نخطيء خطأ قاتلا ، وقاتلا لانفسنا اولا ، اذا ما تصورنا ان الشر او القهر او الاستغلال او الانانية او الوثنية وغير ذلك من الشرور وقف على غيرنا ، على جميع البشر فيما عدنا ، او على القرب حصرا . « ان النفس لامارة بالسوء » وليس احد من طينة اخرى .

الدنيا ليست الجنة ، التاريخ ليس فردوسا ، التاريخ دراما ومأساة ، فيه دائما وجه من دراما او من مأساة ، حسب ان يكون تقدما ، لم يكن كذلك دائما . والتقدم يستحق دائما ان ينقد ، ان يمثل امام محكمة الوجدان والوعي . يمكن ويجب ان تعمل البشرية من اجل تاريخ وتقدم من نوع جديد ، اي اقل مأسوية ، بدون دعوى فردوسية على الارض . يمكن للشعوب ان تقاتل من اجل غد افضل بدون ان تكون الجنة ، وبدون ان يقال لها انه الجنة .

- ٢ -

الجماعات البشرية المختلفة في تبادل دائم :

ان ظاهرة النقل او الانتقال قديمة قدم التاريخ وما قبله . لولاها ، لن يكون التقدم الحاصل فعليا غير مفهوم . واقميا ، ان التطور الذي حققته البشرية خلال عشرة آلاف سنة ونيف ، لم يتم بالية فعل وورد

فعل بين ادوات انتاج وعلاقات انتاج وبين افوقية في اطار مجتمع مجرد ، معزول ، وهمي ، بل ايضا وبالضبط بفضل العلاقات الالامية .

اقصد العالمية ، أي العلاقات بين قبائل وشعوب ، بين مناطق صغيرة وكبيرة مختلفة في الدنيا المسكونة .

هكذا فالثورة النيوليتية وقعت في بلاد الشام بفضل التقاء روافد متنوعة نشأت في المنطقة أو أتت من الجوار القريب أو البعيد ، ثم انطلقت منها الى شتى مناطق العالم القديم ، عالم القارات الثلاث ، كذلك الحضارات النهرية الكبرى وعصر البرونز . والحديد والحصان حملتهما الى الشرق الاقصى شعوب ورافدة ، غير ساحبة ، بعد ذلك ، يصير البحر الابيض المتوسط بؤرة غالية التوتر . هناك الاستعمار الفينيقي ، الاستعمار اليوناني ، الفتح الاسكندري ، الحضارة الهلنستية ، الامبراطورية الرومانية ، الرق والتجارة ، المسيحية ، الاسلام والفتوحات العربية .

بوجه الاجمال ، ليس التاريخ فقط بل ايضا ما قبل التاريخ ، ابتداء من نقطة ما ، انما تملؤه عمليات النقل ، الانتقال ، الهجرة ، والتبادل بشتى المعاني .

ان مذهب الجواهر يجب ان يدان ، كل الجواهر نسبية في منطلق هيغل ، فكرة الجواهر الصحيحة خاضعة لفكرة العلاقة . ان هوية الاشياء ليست جوهراً ماهوياً . بالاحرى هوية الثقافات ، الحضارات ، الشعوب ، الامم .

تعدد ثقافات ، اجل ، لكن لعل الافضل ان نقول : ثقافة متعددة .

- ٣ -

لقد تكونت الثقافة العربية الاسلامية في العصور الوسطى بالاخذ ، اخذت بروح مبدئية وبتصميم ، عن ثقافات سبقتها في المنطقة وخارجها ، وكانت ثقافة اصيلة ، كلية اي كونية ، وذات ديمومة .

قبلها ، تكونت الثقافة اليونانية بالأخذ ، أخذت المواد من الشرق
الادنى القديم ، وصنعت بهذه المواد شكلا جديدا ، انتقل في وقت لاحق
الى أوروبا وقبلها الى العرب أيضا . هذا ما يسمى « بالمعجزة اليونانية » .

هناك « معجزة عربية » . . . كان العرب أسيادا ومنتصرين ، كان لهم
هوية ، ولم يكن عندهم عقدة هوية . أخذوا موارد من اليونان ومن
الشرق . وشكلوا ثقافة كبيرة جدا . ليس فقط تقنيات الانتاج وطرق
حياة ، بل فلسفة وعلوم وفنون وآداب . ان سلسلة من الفلاسفة -
العلماء العرب دخلوا كرافد كبير في نهوض أوروبا الحديثة بدأ في اواسط
العصور الوسطى . لقد بسط العرب العقل ، اكتشفوه واخترعوه في
العالم ، الهوا العقل الانساني ، ثم في ظروف تاريخية معينة ومتلاقية ،
خرجوا من مسار التقدم . (لكن الثقافة العربية هي الثقافة العربية ،
ابنة هذه المنطقة ، وهي مرتبطة بها ، وفي ثقافتنا لها خصوصية ، بل
اقول : لها مفردية ، لكن المفردية هي حاصل جمع كليات ، ليست الثقافة
العربية هي شوع ، والثقافة الانسانية هي نوع آخر . والا اعتقد ان الثقافة
العربية الاسلامية اقرب الى الثقافة الهندية ، او الصينية ، منها الى
الثقافة الاوروبية ، وليس من الصحيح ان نعتبر اننا نحن الشرق ازاء
الغرب . هناك شرق آخر ، كبير وعظيم واكبر منا بكثير ، ما يجمعنا معه
في شرق واحد ازاء الغرب هو العصر الحديث ، الاستعمار ، النظام
الاقتصادي وغير الاقتصادي الذي نتج عنه .

- ٤ -

يمكن القول ان الاستعمار بالمعنى الاصلي والجرافي للكلمة هو العمران .
بهذا المعنى ، التاريخ كله هو استعمار . وهذا المعنى راسخ ، ثمة الان
زحف من الصحراء على الارض المزروعة والمعمورة في بعض اقطار الوطن
العربي ، وثمة اختصاص للأرياف في العواصم والمدن المتضمنة الاستعمار
العربي لأرض الوطن مترجع في الآونة الاخيرة .

غير ان فكرة الاستعمار في تاريخ النوع البشري لم تكن فقط هي استعمار البشر للأرض ، بل استعمار البشر للبشر أيضا .

والاستعمار الاوروبي الحديث حقبة جديدة نوعيا في تاريخ البشرية ، كان عنوانها واسعا شاملا ، ومن طرف واحد ، النظام الرأسمالي الباديء في القرن السادس عشر بعث الرق ، اباد الملايين من الهنود الحمر ومن الزوج الافريقيين ، ثم ، في وقت لاحق ، بشكل خاص في عصر الرأسمالية الصناعية ثم الاحتكارية والمالية ، استطاع الاستعمار متمثلا بدول معينة عديدة ، معظمها اوروبية ، مضافا اليها الولايات المتحدة واليابان ، ان يفرض تسلطه على ثلاث قارات ، ان يسخر خيراتها لصالحه ولتصوراته واهدافه ، ان يغير بناها ، وان يندخلها في تاريخ جديد ، عالمي ، يكون هو مركزه وذاته وصالعه وتكون هي موضوعه ومادته .

ولقد ناضلت الشعوب المستعمرة فضلا طويلا وشاقا ضد الاستعمار ، واسفر هذا النضال اخيرا عن جلاء قوات الاحتلال الاجنبي ، وانتزاع الاستقلال الوطني ، ودخول جميع البلدان المستعمرة سابقا الى منظمة الامم المتحدة .

من جهة ، باتت كل الاقطار دولا مستقلة ، من جهة اخرى ، ثمة انطباع بان الامر ليس كذلك ، عمليا ، التبعية باقية .

شروط التبادل مجحفة ، النفط العربي يغذي تقدم الغرب ، ونتاج هذا النفط ينمو بوتيرة مذهلة ، لا سيما منذ حرب حزيران ١٩٦٧ وحتى الآن ، وذلك رغم التوسع الاسرائيلي وارتباط اسرائيل بالولايات المتحدة وبالغرب ، العالم العربي يعاني ازمة متنوعة ، ثمة في معظم المجتمعات العربية ، عملية اغناء وافقار لم يكن احد منا يتوقعها قبل خمسة عشر سنة ، لعل نصف سكان الوطن العربي هم على حافة الجوع ، الاقطار العربية تفقد الاستقلال الغذائي ، ثمة تراجع للحريات الديمقراطية ، ثمة نوع من حرب اهلية كافية او فعلية داخل الامة العربية ، ثمة انتكاسات

متنوعة ، قديمة وجديدة ، الوحدة العربية في تراجع ، ثمة نزييف بشري كبير ، هجرة عربية الى أوروبا الغربية بشكل خاص .

تجري الامور امامنا وكان العالم الاستعماري او الاستعماري سابقا يجني فوائد من العرب وبتروال العرب ، لكن من العرب بشكل خاص ، لم يكن يجنيها حين كانت له جيوش غزو واحتلال تقاتل في بلادنا ضد المناضلين الوطنيين وضد الشعوب ، وحين كان بالتالي يضحي بشباب من اممه من اجل الاستقلال والهيمنة .

اذن ان هناك فرقا لا يمكن محوه بين الخالة الحاضرة والحالة قبل قبل ربع قرن او نصف قرن : في الوقت الحاضر لا يوجد على ارضيتنا وفوق شعوبنا جحافل او جيوش فرنسية ، انكليزية ، ايطالية ، كما كان الحال قبل حين من الزمن ، ولا امريكية . ومع ذلك هناك تبعية رغم الاستقلال . هل يجب ان نسميها تبعية طوعية ؟ ام نسميها تبعية بالوساطة ، اقصد اولا وساطة اوضاع بالكامل ؟ هل بيننا الاستقلال ، تقرير المصير ، المستقبل ؟ هل ادركنا ان الاستقلال بناء للمجتمع ؟

الفقر لم يكن اكبر ، ولا فيض الثروة والرشوة والفساد . كذلك القهر الانساني ، وكذلك التجزؤ العربي . لا يوجد امن قومي عربي مع ان المشروع الصهيوني يتقدم عاما بعد عام ومع ان الشعب الفلسطيني يعلن رفضه ، يثبت وجوده وحضوره الفعلي وكيانه كشعب .

لئن كنت اطرح هذه الامور ، فلانه في اعتقادي لا يجوز ان تكون مقاومة الغزو الثقافي مهريا وتعويض عاجزا عن حقائق سياسية وتاريخية تنتصب امامنا كالجبال .

لا مقاومة بغزو ثقافي اجنبي ولا حفظ او بناء لهوية ثقافية قومية اذا كان عشرات الملايين من العرب يعيشون ليومهم ، لا يعرفون غدهم ، ولا يسيطرون على شيء من مصيرهم ، حين يزحف البشر على بطونهم ، وهم ليسوا بحاجة الى اية ثقافة لا غازية ولا اصيلة .

باختصار ، ان ما يجابهنا بالتلازم هو : افقار الجماهير الواسعة ، تراجع الديمقراطية ، وفكرة الدولة كدولة حق وقانون ، تراجع الوحدة العربية او تراجع الامة العربية ككيان حقيقي ، كاستقلال ومستقبل . اذا استمرت هذه الحال ، تكون قضية الهوية الثقافية العربية ، كمشروع عمل ، معلقة في الهواء .

بتعبير آخر : ان قضية الغزو الثقافي تأخذ مكانها في اطار تاريخي وسياسي راهن ومحدد .

- ٥ -

ما الذي يفزونا فعلا في الوقت الحاضر ؟

الذي يفزونا ليس ديكاوت والا أرسطو وفرسيس بيكن أو هيفل . ولا اعتقد ان هؤلاء يؤلفون عالما فكريا بذاته وان المعري والحسن بن الهيثم وابن رشد وابن خلدون والخوارزمي يؤلفون عالما فكريا آخر .

الذي يفزونا هو الويسكي والسيارات وأفلام الفيديو الخلاعية . هذه قضية سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية .

الذي يفزونا هو عالم حضاري حديث جدا في الغرب نفسه .

الذي يفزونا هو مجتمع الاستهلاك والانحلال او التغرب . ثمة فرق كبير بين الغرب في النصف الثاني من القرن العشرين وأوروبا في عصر صعودها الاساسي . . والتغرب ليس مفهوما تابعا للغرب بل للغربة . حضارة السيادة في الغرب في ربيع القرن الاخير تابعة لإنتاج النفط ، وبالتالي وإلى حد لا بأس به ، للأوضاع العربية ، وأساس المشروع العربي القومي الشامل . الذي يفزونا هو تدور المجتمع ، ضياع الانسان كجملة علاقات اجتماعية .

بشكل رئيسي ، ان الاجتياح الثقافي او الحضاري الذي يأخذنا تابع لنظام اجتماعي - اقتصادي - سياسي تكون ويتكون عندنا بخطى سريعة . من المحال مقاومته جديا بدون تغيير النظام .

الذي يتراجع هو ، في المقام الاول ، فكرة العمل او الشغل ، كينونة الانسان الاساسية . وبالتالي ، مع فكرة العمل ، فكرة التعامل ، الاجتماع ، فكرة الوعي والوجدان والاخلاق والحق ، فكرة الانسان والمواطن . اقصد انها تتراجع في الواقع وفي الفكر . فهي مقولات والمقولات تعبير عن علاقات كينونية . وهي تتراجع . مفهوم القيمة ، المفهوم المساواتي ، الهوية الكبيرة ، يتراجع .

النظام الرأسمالي العالمي يشهد ، في الآونة الاخيرة ، في مرحلته الاكثر تقدما ، تباعدا كبيرا ومتزايدا بين العمل والكسب . الوطن العربي يضاعف هذه الحالة العامة ، ان الشعور العام باستفحال الاعدل شعور مطابق للواقع .

من الخطأ الاعتقاد بانه من الممكن وقف الغزو الثقافي او الحضاري بدون تغيير النظام القائم من اساسه ، بدون تغيير المسيرة العربية الاخيرة ، بدون رجوع قضية العرب الكبرى ، التي حملناها قبل ربع قرن . ليس ثمة مشروع عربي مستقبلي اذا لم يكن في اساسه مفهوم العمل والاجتماع الانساني . بدون ذلك ، الاشتراكية نفسها تكون غطاء لشيء آخر ، معاكس ، وتنتكسه الروح العربية كلها الى المزكائيلية والواثنية . وقد يلبس هذا الانتكاس كله لباس الاصاله ايضا :

ينبغي ان نجيب على سؤال : هل نحن مؤمنون بتاريخ العالم ، بمصير عالمي للانسان اليوم ام لا ؟ هل نحن نريد ، كهرب ، رجوعا الى ماض قومي خاص بنا ، ام نريد ، كهرب ، مشاركة مستقلة وجادة في حسم حاضر عالمي احتمالي وامتفارق ؟

ان احوال العالم - اليوم وليس فقط احوال العرب - ليست بخير .
 تاريخ البشرية واصل الان الى نهاية . اما ان تكون نهاية نظام بالكامل ،
 او ان تكون نهاية النوع نفسه . الثورة المطلوبة هي اهم انعطاف في تاريخ
 النوع منذ ظهوره . اقول « ثورة » و « الثورة » اكبر من « الاصلاح » ،
 بطبيعة الحال ، لكنها اكبر بكثير من « انتفاضية » من « اشتعال
 ثوري » . انها جهد طويل جدا . هل نعتبر انفسنا خارج هذه القضية ؟
 هل نعود الى سلف صالح ، الى مجد قومي ، الى تراث نؤسطره ، عودة
 مستحيلة عدا ذلك ؟ ام نعود في الروح والوعي ، الى مبدأ الانسان
 وعالمه من اجل بسط راهن ومستقبلي ؟ السنا جزءا من البشرية ، ليست
 البشرية جزءا من تضمنا ، بل اولا تعينانا ؟ قبل عشرين سنة ، كان
 عبد الناصر لا يرفع فقط الوية الوحدة الوطنية والوحدة القومية واستقلال
 الشعوب ، بل ايضا لواء السلام العالمي والانفراج الدولي (هل نحن نعتبر
 الانطواء على الذات ردا ناجما على غزو ثقافي ؟ ام نؤمن بان العالم معقول
 أي موصول وان الضروري والممكن ان نتملك هذا العالم بالروح ، وعيا
 وعملا ؟) .

- ٦ -

في الواقع ، اننا لم نتملك هذا العالم ، بل ان هذا العالم في وجهه
 السلبي هو الذي يملكنا .

ليس فقط اشياء الاستهلاك الفازية التي ذكرت بعض نماذجها الشهيرة ،
 بل ايضا الافكار والثقافة بالمعنى العالي ، ميدان العلوم والآداب والفنون .

لقد ترجمنا مئات اوالاف الكتب في الاونة الاخيرة ، نقلنا مئات الافكار ،
 تكلمنا عن احدث العلوم والبحوث العلمية ، حاولنا اللحاق بمسيرة التقدم
 المفهومة كمسيرة على خط يتقدم الى مالانهاية . هذه اللانهاية ، حسب
 هيغل وماركس ، هي اللانهاية السيئة ، الخط المستقيم المتتالي او لنقل :
 انها المحال والعبث . انتقلنا باسم الاحداث ، من موضة الى موضة :
 الوجودية ، الماركسية ، ماركسية آخر طراز ، البنيوية ، الاتريبولوجيا

الثقافية الخ . المفقود هو الأساس ، والمفقود هو الروح النقدية ، والمفقود هو المشروع القومي والانساني ، القضية الحقيقية .

ان الفكر العربي اليوم ، في معظمه ، مفتقر بأن معا الى الفلسفة والى الشعب والى الواقعية . وهو لا يمي ان هذه النقاط الثلاث هي ثلاثة وجوه لموقف واحد . وهذا الموقف الواحد هو احد اهم وجوه الغزو الثقافي الغربي الاحدث ، سواء اريد لهذا الموقف ان يتراكم مع موقف تقليدي وماضوي وان يمدده ببعض المعطيات « العلمية » او العالمية او اريد له ان يكون ردا على الماضوية والسلفية وما شابه ، ان قسما من الفكر العربي الحالي يقيم وثنية اصالة ، واقسما يقيم وثنية حداثة . كلاهما وثنية ، وكلاهما نقي للانسان .

ان الرد على الغزو الثقافي الغربي والصهيوني يتطلب من جانب الفكر العربي موقفا كليا من الانسان وتاريخه ومصائره . هذا الموقف الكلي الاساسي هو البديل الحقيقي عن فكرة اللحاق بالغرب ، وعن فكرة تمثل آخر منجزات التقدم . هناك تقدم وتقدم الى الهاوية .

مانحتاج فعلا الى تمثله هو تاريخ الانسان والثقافة الانسانية . هذا التاريخ ليس « اخر منجزات الغيب » .

وان تمثل الجوانب او العناصر الايجابية في اخر منجزات الغرب يرتكز على الوعي الاساسي الآنف . ان تمثل افلاطون وارسطو والريبيين والرواقين واوروبا القرن الثالث عشر والسادس عشر ، اهم بالنسبة لنا ولل بشرية عموما من السعي الى اخر ابتكارات وفنون العلم الغربي . ان نقل المواطن لم يخدم معرفة واقعنا .

ومانحتاج فعلا الى تمثله هو تاريخ وطننا وفكرنا وثقافتنا . هذا التاريخ الوطني قديم ، وله في البداية ابعاد كلية ، كونية .

١ - على سبيل المثال ، كما ذكرت انفا ، ان بلاد الشام وماحولها كانت هي الثورة النيولوتية : هنا ، الانسان انتقل من الصيد والاحد والاتلاف الى الرعاية والزراعة والمكثرة ، فصل المنفعة الى مباشرة وغير مباشرة ، فصل فكرة الواقع الى مباشر وغير مباشر ، هنا جرد وتجرد ، استوعى وتوجدن ، عقل وحسب وهندس وجبر ... غير ان لهذا الامر الخطير الاهمية ابعاده الكلية والراهنه خارج التعليم والثقافة العامة .

٢ - كذلك قضية الدين التوحيدى وموقعه في التاريخ الانسانى وراهنيته والخيارات التى يطرحها في المستوى الروحى والثقافى اليوم .

فهى ليست موضع فهم او اعتبار . كثيرون يرفعون لواء الدين التوحيدى ، كغطاء لطوطمية اجتماعية ثقافية ، لعرقية مذهبية او دينية ، لمشروع سياسى حزبى ، اقصد حكمى او حكومى .

٣ - والتاريخ القومى كله صار موضوعا لتبرير وتمجيد ودفاع وهجوم متنوع .

٤ - المفكرون الكبار في تاريخنا ، من فلاسفة وعلماء وادباء ، لا يسهمون في تكوين وعينا الراهن ، وعلى هذا ، يجب ان لا تلوم سوى انفسنا ، وليس التراث نفسه من جهة ولا الغرب من جهة اخرى .

ان مقاومة الغزو الثقافى والاستلاب الروحى تتطلب بعثا صحيحا وموضوعيا للتراث الفكرى العربى ، من اجل المثقفين ومن اجل الشعب عامة . من العبث ان نرتد على اوروبيا الحديثة وان ننسى في الوقت نفسه ان فلانا او فلانا من اعلام العرب القدامى سبقوا الاوروبيين . هذا الموقف خاطيء في شطريه ، وغير مقنع ، هناك دائما من يسبق السابق . هناك دائما بداية قبل البعائية . كل شيء مهم في التطوير .

ابدائيات ، يخترع عدة مرات . اننا حطنا بالواقع الى عناصر ، الى مادة ، عندئذ يجب القول انه ليس هناك جديد في التاريخ وليس هناك تاريخ .

المتنع هو ان نبين البذور الكونية الايجابية في تراثنا الماضي وانها بذور لم تمشى اكثر الى الامام عندنا ، نظرا لانتكاس تاريخنا العربي المستقل والانطوائنا المتواقت من انعطاف كبير جدا في تاريخ الانسان ، تحقق في أوروبا ، وسد علينا باشكال مختلفة .

التاريخ كله تناقض . والاستقلال ليس رد فعل . لن نبني هوية ثقافية عربية بما قد يتصور البعض انه رد شامل على الغرب . الذي اسميه الغرب هو مرحلة بل اصح لحظة بالمعنى الفلسفي ، المنطقي التاريخي ، وليس الزمنى التعاقبي المجرى والطيراني ، لحظة هامة جدا ، راهنة جدا ، وازدواجية بطبيعة الحال ، في تاريخ البشرية . والثقافة العربية التاريخية الكبرى ليست على طرفي نقيض مع هذه اللحظة . ويجب ان لا ننسى ان الدين التوحيدي ليس البوذية او ديانات الشرق الاقصى او فكر الهند ...

- ٧ -

اخيرا ، اتقدم باربعة اقتراحات للتفكير والنقاش .

١ - هبدئيا ، فصل الثقافة عن السياسة وعن هذا الذي يسميه الكثيرون الايديولوجية . خلق تواصل ثقافي واع بين المشرق والمغرب ، مثلا ، نقل الفولكلور الشعبي المغربي الى المشرق ، السعي الى خلق اغنية للطفل العربي ، الخ . يجب انهاء الهوية الثقافية العربية عن هذا الطريق المتنوع . يجب عدم التسليم او الركون لوحدة اللغة او لوحدة الدين ، كعوامل ضاعنة لوحدة الامة ثقافيا . انها بذاتها ولحالتها ، لا تضمن شيئا .

يجب الانتهاء من خلط الثقافة واللغة ، لصالح الاثنين ، يجب الانتهاء من خلط الثقافة والدين ، لصالح الاثنين .

في الذهن العربي الحالي ، العلاقات والروابط والتداخل وما شابه هي باب للخلط الذي قد يسمي نفسه علاقة جدلية وتفاعلا وديالكتيا .

أريد ان أقول اذا ان الجدل هو طريقة عمل واعية بالمفاهيم . والمفاهيم تعني اولاً : الفصل ، الحد ، من لا يريد فصلاً لا يريد معرفة ، يبقى دون المعرفة ، يدور الى ما لانهاية في بديهيات مكروورة ، او بلاصح في اشباه بديهيات باطلة الى حد لا بأس به .

الثقافة ليست تابعة ملحققة باللغة ، والثقافة كما هي ، بتنوعها وثروتها واختلافها ، بين الخليج والمحيط ، يمكن ويجب ان تكون عامل توحيد كبيراً .

٢ - ايجاد هيئة عربية مستقلة وذات كيان على نطاق مجموع الامة تتولى بعث ما يجب بعثه من التراث الفكري ، واصدار ذلك في سلاسل من كتب صغيرة تحوي مختارات او مقتطفات مع مقدمة وشروح ، هذا يتطلب برنامجاً .

ليس من الممكن ولا من الضروري او المفيد ان يقرأ عشرات الالوف من الناس كذا مجلد من تاريخ ابن الاثير مثلاً ، لكن من الممكن والضروري ان يقرأ عشرات او مئات الالوف من الناس كتاب مختارات من هذا التاريخ ، وهكذا الامر بالنسبة لعشرات ومئات آخرين .

ولا يسعني الا ان ابدي احترامي وتقديري لكل المجهودات الخاصة او الرسمية التي بذلت في هذا الاتجاه . لكن الامر يستحق التطوير ، يجب ان يتكون محور فكري ثقافي للامة العربية . هذا المحور لا ينفي التناقضات والاختلافات لكنه ايضا محور مسائل . وتناقضات يمكن ان تخدمه .

بوجه عام ، يجب ملء الفراغ الروحي والفكري حتى لا يملأه غزو ثقافي لا نريده ، وحتى لا تملأه اشباح ، اشباح الماضي او هواماته .

٣ - ايجاد هيئة عربية « للسيطرة » على عملية الترجمة ، اخراج هذه العملية من التلقائية والقسوائية والتجارة والموطن والسياسات

الانية . اقوال « سيطرة » بمعنى اشراف ، لا اقصد اذا اجراءات منع حكومية . ان اجراءات المنع يمكن ان تؤدي الى عكس المطلوب . الافكار لا تعامل بالمنع . المنع ليس مجابهة . « السيطرة » التي قصدت خطة توجيه .

العالم ، خارج الوطن العربي ، ليس محصورا في الغرب هناك الاتحاد السوفياتي ، الصين ، الهند ، اسيا . لكن هنا ايضا يجب ان تضطلع بالقضية ، قضية النقل ، هيئة فكرية مسؤولة ، ليس الاخرون هم الذين يلامون اذا لم يكن ما يأتينا من عندهم افضل انتاجهم الفكري او ما نحتاج اليه فعلا ، المطلوب هو الذهاب والاخذ ، بدلا من الاستقبال والتلقي ، الاخذ مسؤولية تاريخية .

٤ - السعي الى حماية الهوية الثقافية للملايين المهاجرين العرب ، خارج الوطن ، هذا يفترض ايجاد مؤسسات في تلك البلدان لتعليم اللغة العربية ، والاستفادة من مناخ الديموقراطية والاعتراف بالتنوع الثقافي لاجياء الثقافة العربية بين المهاجرين العرب . ومآله انشاء هوية ثقافية قوية عربية للعرب المجتمعين في فرنسا على سبيل المثال ، او السعي الى جمع هؤلاء العرب الآتين من اقطار عربية مختلفة في بوتقة ثقافية واحدة في فرنسا وفي غيرها من البلدان .

هذه ليست عملية سياسية بالمعنى المألوف ، لكن ابعادها السياسية بمعنى اخر واضحة على ما اعتقده .

هذا لا يعني السعي الى فصل العرب المستوطنين او المقيمين عن البلدان والمجتمعات التي هم فيها . بل الامر بالعكس . في الوقت الحاضر يوجد في فرنسا بعض العمال وغير العمال العرب اللذين هم في عزلة وغربة عن المجتمع المحيط بهم وهم في الوقت نفسه بلا لغة عربية ولا ثقافة عربية .

ليس أذن المطلوب ، حسب تصوري ، شن حرب هويات ثقافية ، بل الاستفادة من التعددية المعترف بها في بلدان الغرب لصون أو إنشاء أو انماء هوية ثقافية عربية للعرب ، مما يساعد على تلاؤمهم وحياتهم حيث اختاروا أو اضطرروا أن يعيشوا ويعملوا . من المؤسف والمؤلم أن يكون لليهود هذا الحضور وهذا النفوذ المعلومان في فرنسا ، وأن لا يكون ثمة شيء يشبه ذلك للعرب في فرنسا ، رغم عددهم ورغم كل المزايما العربية الموضوعية التي يجب أن تحوّل من الموضوعية المجردة ومن الشينية الميتة إلى الواقعية الفعلية .

لكن هذه القضية تعيدني إلى القاعدة العامة : في الموضوعية المجردة ، العرب كم كبير ، بشرا ومساحة ونفطا ومالا وربما أسلحة أيضا . في الواقعية الفعلية ، الأمر غير ذلك . الواقعية الفعلية ليست « مادة » بل هي معقولة كونية . أن نضع أنفسنا خارجها ، وفي الربع الأخير من القرن العشرين ، هذا هلاكنا .

الثقافة الصهيونية. ماهي؟!

د. هاجي الراهب

قد لا تتيسر لنا فاتحة لهذه المقالة أفضل من سؤال هرتزل العصبي الإنكاري : « وما هي الثقافة اليهودية ؟ » وأن نستبدل كلمة (اليهودية) بكلمة (الصهيونية) ، يصر للإنكار أساس أقوى بكثير من نفاذ الصبر عند هرتزل .

الثقافة واحدة من الكلمات الكبيرة . والكلمات الكبيرة غالباً ما تتأبى على التعريف الدقيق . لكننا سنؤكد على اثنين فقط من معانيها المتعددة : الشمولي والضيق ، الأول ، باعتباره مجموعة الخصائص المميزة لامة من الاسم ، والثاني باعتباره الجانب الفكري لحضارة أمة من الامم .

في تقديرنا اننا لا نستطيع ان نتحدث عن ثقافة صهيونية بالمعنى الاول . فالصهيونية ، كحركة سياسية تاريخية ، لا تتجاوز المئة عام الا قليلا . وخلال هذه الفترة لم تتمكن من انشاء خصائص مميزة على النحو الذي نلمسه في الثقافة الهندية او الفرنسية او العربية . وبالطبع ، فان هذا التوكيد يتضمن نفيا لان تكون الصهيونية واليهودية مترادفتين في المعنى ، ونفيا ايضا لان تكون الصهيونية تعبيراً حديثاً عن اليهودية . انها شيء آخر تماما ، رغم اتكائها الشديد اللاحق لتكوينها على معطيات يهودية كثيرة وأساسية .

لكننا نستطيع ان نتحدث الى حد ما على ثقافة صهيونية بالمعنى الثاني . فرغم ان الصهيونية لم تنشئ حتى الان ما يمكن ان يسمى حضارة ، ورغم انها كواحد دولة وعجزت عن انشاء امة ، ثمة صعيد فكري بارز المعالم يمكن ان نتبعه في ما اصطلح على تسميته بالحركة الصهيونية العالمية . والى جانب الجهاز الفكري الذي اصطنعته الصهيونية ينبغي ان نذكر محاولات الصهيونيين الذين هاجروا الى فلسطين واستوطنوا فيها ان ينشئوا ثقافة خاصة بهم . وهي محاولات مرت بثلاثة اطوار ، وكانت على الدوام متوجهة بالمعطيات النظرية والعملية للفكر الصهيوني .

ان الطبيعة الخاصة بهذا الفكر وتلك المحاولات يمكن ان تستشف من ثلاثة مصادر رئيسية . وغني عن القول ان المصادر الثلاثة هذه تعود الى بيئة اوروبية صرف ، اتسمت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بسمات جوهرية لعل أهمها سيادة النزعة القومية ، وطفان الطابع الاستعماري لهذه النزعة ، وانتشار الفكر الاشتراكي بأشكاله المتعددة ، وخاصة الفكر الماركسي الذي ولد من صميم تناقضات الحياة الأوروبية .

الاصول التطبيقية

ان اهم ما يميز الفكر الصهيوني هو كونه نتاج الطبقة المتوسطة من يهود أوروبا . ويجمع الكتاب الاسرائيليون ، الذين اؤرخوا للحركة الصهيونية ، على هذه النقطة اجماعا لا يترك مجالاً للشكك فيها .

فالهجرة الاولى التي بدأت عام ١٨٨٢ ، والثانية التي بدأت عام ١٩٠٦ ، والثالثة التي بدأت بعد اعلان وعد بلفور ، جاءت بأفواج من اليهود الساخطين على وضعهم الاجتماعي في روسيا ووسط أوروبا ، وهم بأغلبية ساحقة ينتمون الى فئات الطبقة المتوسطة . كما ان هجرات صغيرة اخرى ، حوالي اعوام ١٩٢٥ ، ١٩٣٣ ، ١٩٣٧ - ١٩٣٩ ، لم تخرج عن القاعدة وان كانت اعدادها اقل بكثير من اعداد سابقاتها .

هذه الهجرات هي التي رسمت المسار الفكري للصهيونية ، وقامت بالمحاولات التي استهدفت خلق ثقافة صهيونية ، اما الهجرات التي تلت قيام الدولة الصهيونية ، فلم تستطع ، رغم عدد اعضائها الضخم ، ان تكون شيئاً سوى عنصر متخلف في البنية الاوروبية لهذه الدولة ، فهي في معظمها جاءت من بلدان الشرقين الادنى والاوسط . وان هذا التناقض التوعوي بين هجرات ما قبل قيام الدولة وما بعد قيامها يفسر الانشطار الجوهري المتزايد حدة في البنية الاسرائيلية بين اشكنازيم وسفارديم .

تؤكد المنبت البرجوازي الصغير للصهيونية دراسات قام بها كتاب يهود لا صهيونيون لطبيعة العلاقة بين اليهود والمجتمعات الاوروبية خلال قرون مضت . ففي العصر الاقطاعي ، كان اليهودي واحداً من مكونات الحياة الاقتصادية الاقطاعية ، كالقن ومالك الارض . لقد كان هو رأس المال الذي لم يستطع الاقطاع ان يكونه رغم حاجته له . ولان رأس المال كان بطبيعة النظام الاقطاعي على هامش الحياة الاقتصادية ، ظل اليهودي على هامش الحياة الاجتماعية . لكنه ظل هناك ، ضرورياً ومطلوباً ، ومتعايشاً مع الفئات الاجتماعية الاساسية بطريقة او باخرى . لم يفكر ، رغم كل شيء ، بقومية يهودية ، ولا بدولة يهودية ، ولا « بالعودة » الى فلسطين . وقد ظهر أفراد قليلون ، مثل ساباتاي زيبى ، دعوا للعودة الى ارض كنعان ، فأحرقهم اليهود باعتبارهم مسيحيين زائفين .

غير ان هذا التأقلم لاقى ضربة مميتة على يد الرأسمالية ، التي ما ان تكبدت الحياة الاقتصادية الاوروبية حتى ألغت الدور الاقتصادي

الخاص الذي كان اليهودي يقوم به في عصر الاقطاع ، ملشما ألغت أدواراً أخرى كان يقوم بها غير اليهود . وما إن انتصف القرن التاسع عشر حتى كان اليهود ، مثلهم مثل سكان أوروبا ، قد انقسموا الى طبقات ثلاث : الرأسماليون القدامى الذين دخلوا في تكوين البرجوازية الأوروبية كجزء لا يتجزأ منها ، والطبقة الدنيا التي تحولت الى جزء من البروليتاريا الأوروبية مندمج فيها ، أما الطبقة المتوسطة فقد وقعت في أوروبا الشرقية والوسطى بين مطرقة الرأسمالية النامية وسندان بقايا الاقطاع ، ودفعت جزءاً من الثمن الفادح الذي تطلبه الصراع بين الرأسمالية والاقطاع ، وخاصة في روسيا بعد اصلاحات ١٨٦٣ وهكذا بدأت موجات هجرة كثيفة ، من روسيا بصورة رئيسية ، ومن بولونيا وألمانيا ودول البلقان .

الى أين توجهت هذه الهجرة ؟ يعطينا الكتاب الاسرائيليون ذات المفزى بهذا الصدد . ففي سبعينات القرن التاسع عشر هاجر ٦٠ الف يهودي الى الغرب الأوروبي والأميركي . وفي الثمانينات هاجر ٢٠٠ الف . وفي التسعينات ٣٠٠ الف . وبين ١٩٠٠ و ١٩١٤ هاجر مليون وخمسة الف الى أمريكا . بالمقابل ، لم يكن عدد الذين هاجروا الى فلسطين خلال هذه الفترة يتجاوز الالاف . وكان العامل النفسي الذي دفع هذه الالاف القليلة الى فلسطين اقوى من العامل الاقتصادي . فهؤلاء كانوا يريدون الاحتفاظ بأوروبايتهم ، ولكن بعيداً عن أوروبا وأمريكا . وكان شعورهم انهم لا يقلون قيمة ولا امكانات عن الأوروبيي الطبقة المتوسطة ، وانهم قادرين على منافسة الأوروبيين والتخلص من اذلالهم بتكوين دولة وامة . وقد حافظوا باستمرار على طبيعة الطبقة المتوسطة الفكرية ، من انقسامات عقائدية حادة ، وتذبذب جوهرى في التفكير ، وتشكيل احزاب صغيرة لا عد لها ، وطوباوية مضحكة في تصور الانسان والحياة والمستقبل .

ولعل المثال ان يوضح المنشأ المتوسط للصهيونية . ففي اوساط الحركة العمالية الثورية في روسيا ترعرع تنظيم للعمال اليهود ، هوالبوند ، وواكب العمل السياسي للحزب الديمقراطي الاشتراكي الذي قاده لينين كذلك . تشكلت في عبيد من انحاء روسيا نواد للصهيونية تدعو للقومية

اليهودية واستعمار فلسطين . لكن الحركتين لم تلتقيا قط . فبينما اختار اعضاء البوند الحل الماركسي ، المتمثل في احياء الثقافة اليهودية وعصرنتها في الاطار الشيوعي ، والبقاء ضمن نظام سياسي تعددي اشتراكي ، اصر الصهيونيون على ارض ينشئون فيها دولة وينفصلون بها عن شعوب العالم . وهكذا تحوالت جمعية احياء صهيون ، التي تشكلت من النوادي الصهيونية ، الى حزب سياسي هو الحزب الديمقراطي الاشتراكي العبري ، بويل زيون ، ذو التوجه الماركسي القومي ، بقيادة بن غوريون وبن زفي، الذي صار فيما بعد حزب العمل الحاكم في اسرائيل .

مؤثرات

طبيعي ان يتعرض فكر الطبقة المتوسطة الى مؤثرات عديدة ، ومتضاربة اساسا . فهذه الطبقة المخالطة كبنية تستطيع امتصاص تيارات فكرية متنوعة ، على نحو يلعب فيه الخيال دورا اكبر بكثير مما يلعبه ادراك الواقع الموضوعي .

وبمن المؤكد ان الفكر القومي كان اهم ما تآثر به احياء صهيون ، ومن بعدهم بويل زيون . ان القرن التاسع عشر هو عصر القومية في اوروبا ، وبتحديد اكبر ، هو عصر القومية الاستعمارية ، التي ارادت تسمية حس قومي متضخم لتحتفظ بتفوق اقتصادي وبالسيطرة على اسواق تجارية ومصادر ثابتة للمواد الاولية . وقد يبدو من المفارقة ان يعتنق صهيونيون من الطبقة المتوسطة فكرا قوميا له هذه الصفة ، وهم جماعة لا تملك وسائل انتاج اساسا غير ان الفكر الصهيوني ، الرجراج بطبيعته سرعان ما استدرك هذا الخلل ، وبدلا من توجهه باستحيل نحو السيطرة على الاسواق ومصادر الواد ، او نقل في توجهه الاستعماري . وكنتيجة الارض نفسها التي كان راسماليو اوروبا يكتفون باستعمارها . وكنتيجة لهذه المعادلة صارت الارض تشكل العمود الفقري في منظومة الفكر الصهيوني ، واخترعت لاجلها الاساطير وزاورت الحقائق التاريخية ، كما سنرى بعد قليل .

هذا التوجه الاستعماري جاء نتيجة منطقية لشرب الرؤية القومية في روسيا القيصرية والمانيا وفرنسا وانكلترا . اننا هنا امام ظاهرة تاريخية اكدت على الطابع الفئبي لشخصية الامة ، على ان الامة سر من اسرار الطبيعة ، تمتلك روحا خاصة بها ، وتحمل تفوقها الضمني على بقية الامة . وهكذا قام المفكرون الصهيونيون بتوكيد مماثل على عزلة امتهم ، وتفريدها بين الامة ، على ان لها « روحا قومية » تماما كما للروس والبولونيين والالمان وغيرهم . وازافوا ان الشتات وضياع الارض هما العاملان الحاسمان في ابطال مفعولها الخلاق ، وان وضع حد للشتات باستعادة الارض هو وحده الكفيل باستعادة روح الامة اليهودية وتفعيلها . وكان الطابع الرومانتيكي ، وخاصة في الرومانتيكية الالمانية ، قد جعل من فكرة الامة كيانا عضويا ، فوق بشري مفعما بالفية والاصول العرقية الواصلة الى ما قبل التاريخ . وكان لفيشته اكبر الاثر في صياغة الصهيونيين لفكرتهم عن الامة .

على ان ثمة فرقا جوهريا في الممارسة بين قومية المفكرين الصهيونيين وقومية المفكرين الراسماليين . فحيث كان المفكرون الراسماليون يفكرون باسم طبقة تسيطر على مقدرات امة ، وتستطيع ان تلغي انها تتكلم باسمها ، كان المفكرون الصهيونيون بعيدا جدا عن هذا الموقع الاجتماعي الاقتصادي الحاسم . كان هؤلاء اقلية ضمن طبقتهم نفسها ، ولم يكن بوسعهم ان يتكلموا حتى باسم هذه الطبقة ، ناهيك بالطبقتين الاخرين ، البرجوازية والعاملة ، اللتين اندمجتا بالبنية الاقتصادية لاسم اوروبا . وبدلا من ان يدركوا عقم اية محاولة لاجتذاب اليهود الاخرين ، ازدادوا شططا وتطرفا في ابراز القومية اليهودية ، وجعلوا من انفسهم رسلا لها يحق لهم التكلم باسمها ومطالبته الاخرين بالانضواء تحت لوائها . ان هذه الممارسة ليست بعيدة عن فكر الطبقة المتوسطة . فهي ، لكي تحتفظ بمصالحها ، تعتمد الى التكلم باسم الامة كلها ، عن مصير الامة وقدرها . ونضالها ، وضرورة الالتفاف حول قيادتها ، الخ .. وهذا ما يعلنه منشور

اصدورته جمعية أحباء صهيون ، اذ جاء فيه : « نحن المتعلمين يجب أن نكون الابطال الذين يدخلون المعركة على رأس شعبهم . »

من جانب اخر ، كان الفكر الاوروبي الاشتراكي مؤثرا لا يقل اهمية عن الفكر القومي ، على الاقل في المرحلة التكوينية فالتأسيسية للحركة الصهيونية . وتلك هي واحدة من أبرز غرايات الفكر الصهيوني . وسنرى بعد قليل كيف اشترع بوروخوف توحيدا فكريا بين النظرية القومية الاوروبية والاشتراكية . اما الان فسنشير الى الادبيات والمنشورات التي كانت تصدرها النوادي الصهيونية في روسيا واوروبا الوسطى ، والتي كانت متاثرة تأثرا طائغيا بالفكر الاشتراكي . يقول ديفيد هوروفتز ، الحاكم السابق لمصرف اسرائيل : « في (حركة الشباب الصهيوني العمالي) خلقنا لانفسنا عالما مثاليا ، جديدا وحرًا ونبيلًا . حلمنا بيوتوبيا - وكانت حركة العمل الصهيوني بوابتنا الى قاداتنا اليه . » وواضح ان التركيز على « العمالي » و « العمل » في هذه البيوتوبيا ينم عن توجه اشتراكي في الفكر .

ويقول منشور صدر في لقوق عام ١٩٠٤ :

« ايها العمال اليهود في كل البلدان اتحدوا وراء راية بويل زيون . ايها الاخوة والاخوات من الطبقة العاملة ! اننا نرى امامنا حركتين قويتين عظيمتين : الاشتراكية التي تنشد تحريرنا من العبودية الاقتصادية والسياسية ، والصهيونية التي تنشد تحريرنا من نير الشتات . كلتاها تؤثران علينا تأثرا عظيما . كلتاها تعلماننا بمستقبل مجيد . كلتاها حيويتان بالنسبة لنا كالحياة نفسها . . »

ليس الطابع الاطنابي الاعلاني عصيا على الالتقاط في هذا المنشور . وليست عصية ايضا محاولة الصهيونيين التماس اللعوم من الطبقة العاملة اليهودية ، التي انصرفت عنهم ، كما رأينا . وقد وصل بهم الامر الى حد صياغة شعارات سائرة من غسيل الدماغ . ففي منشور آخر نقرأ ما يلي :

« أيها العمال والعاملات اليهود ، أيها المستغلون ، المضطهدون ، الذين يعيشون بعرق حاجيهم .. لتتوحد وانعلن : يسقط الاندماج ! تسقط الرأسمالية ! تسقط الالاسامية ! لتعش البروليتاريا الدولية ! لتعش الحرية اليهودية ! لتعش الاشتراكية ! لتعش الصهيونية ! »

وبالطبع تجدر الإشارة هنا الى الاثر الخاص والعميق الذي تركته الحياة الوطنية الروسية على الحركة الصهيونية ، فالمناح الثوري الجائش في روسيا بين ١٨٨٠ و ١٩٢٠ كان المهده الذي ولدت فيه الصهيونية وترعرعت ، دون ان يكون بالطبع مسؤولا عنها أو متبنيا لها . فمن روسيا جاء مؤسسو اسرائيل . وفي (منسك) ولدت حركة العمل الصهيوني عام ١٩٠٢ . وعموما ، فان الصهيونية ، كما يقول كتاب اسرائيل ، كانت نتاجا اوروبيا صرفا ، مثله مثل الشعبية في روسيا والعرقية في ألمانيا .

اسماء :

في تاريخ الفكر الصهيوني ، ثمة أسماء صنعتته أو بلورته الى حد كبير ، وأعطته زخما واستمرارية ، وزودت الحركة الصهيونية بالقناع الايديولوجي اللازم لخوض معركتها الاستعمارية . ومن الملاحظ ان معظم هؤلاء ، ان لم يكن كلهم ، انقلبوا الى الصهيونية انقلابا مفاجئا ، بعد ان كانوا افرادا مندمجين في مجتمعاتهم الاوروبية . ويتضح من تكرار هذه الظاهرة ان اعتناق الصهيونية من قبلهم كان فعلا نفسيا ، لا موقفا فكريا تاريخيا ، أنهم لو صبروا قليلا لسارت الامور على ما يرام في المناح الليبرالي المتزايد قوة واتساعا في أوروبا وأمريكا ، ان عقيدتهم الجديدة كانت وليدة عوامل شخصية ، وليست سياقا تاريخيا تفترضه وتنشئه قوانين التاريخ . ولعل ابرز مثال على هؤلاء تيودور هرتزل نفسه ، مؤسس الحركة الصهيونية العالمية . فهذا الصحفي النمساوي المتناق ، الذي كان يكتب المسرحيات كمواطن نمساوي يزدرى اليهودية والتشبيث بها ، سرعان ما اصغر كتابه الشهير (الدولة اليهودية) بعد عام من

مشاهدته لأحداث قضية دريفوس ، وأسس حركة قومية يهودية بعد عام آخر . ولأنه كان الوحيد المتشبع بلمرالية أوروبا الغربية ، كان أبعد الصهيونيين عن فكرة أرض الميعاد والتراث اليهودي . كان يريد مكانا ، أي مكان ، يقطنه اليهود بعيدا عن أذلال الأوروبيين لهم . أن دوره الفكري ، بعكس دوره السياسي ، ضئيل للغاية ، وقد انحسر نهائيا بعد زمن قصير من وفاته .

أما ليب ليلينبلوم فكان المفكر الذي ألهم المهاجرين من روسيا عام ١٨٨٢ أن يستوطنوا فلسطين . وكان قبل سنوات قد أدار ظهره لليهودية . لكن أحداث ذلك العام غيرت رأيه فجأة وجعلته ينشئ تفكيرا قوميا ذا توجه عملي ، هو الهجرة الى فلسطين والاستيطان فيها .

وكان موزس هس أيضا يهوديا مندمجا وألمانيا اشتراكيا من الطبقة المتوسطة . بل ويقال أنه كان يتعاون مع ماركس وإنجلز . ورغم أن كتابه (روما وأورشليم) صدر عام ١٨٦٢ ، فلم يلق اهتماما إلا بعد ربع قرن أو يزيد . وقد أضاف هذا الكتاب الى الفكر الصهيوني مسحة رومانتيكية في دعواته الطوباوية الى تأسيس دولة يهودية على أساس « خلق عملي » من النخب والطوعية والتعاون المنسجم بين الناس الأحرار . وقد رأى في التاريخ صراعا بين القوى الغربية للحب والعدل والقوى الانانية الاضطهادية . ورأى أن على اليهود في دولتهم القومية أن يهيئوا « لسبت التاريخ » الاشتراكي ، الذي سيحررهم والبشرية معهم . وسيكون هذا ممكنا عبر عودة اليهود الى العمل « المنتج » في الأرض ، ضمن إطار من النظام العادل الخالي من الهرمية الاجتماعية ، والمكون من وحدات تعاونية .

كذلك تحول الى الصهيونية فجأة ليوبنسكر الروسي ، وسرعان ما رأى في السامية داء عضالا ليس له دواء . وفي كتابه (الانعتاق الذاتي) ، عام ١٨٨٢ ، دعا بحماسة شديدة الى أن يمتلك اليهود أرضا خاصة بهم .

لم يكن بالنسبة له أن تكون الأرض ، وإنما أية أرض يمكننا أن نتخذ اليهود من الانقراض في أوروبا .

على أن أهم مفكر منح للحركة الصهيونية ما تحتاج اليه من صيغ عقائدية ضرورية هو بير بوروخوف ، الذي فصله الحزب الديمقراطي الاشتراكي الروسي من عضويته بسبب انحرافاتة الصهيونية . لقد أنشأ بوروخوف نظرية تدمج الماركسية الأساسية والصهيونية ، الثورة الاشتراكية والقومية اليهودية . وهذه النظرية هي التي مكنت الصهيونيين من الاعتقاد بأن استعمارهم لفلسطين سيكون تطبيقا للاشتراكية الماركسية .

لقد رأى بوروخوف أن اليأس اليهودي نتيجة « لسرورة انتاج » مناوئة لليهود . وهذه فكرة صحيحة ، سوى أنها لم تحدد أن اليهود الذين ناوأتهم الثورة الصناعية الأوروبية هم فئات من الطبقة المتوسطة فقط ، وليس اليهود قاطبة . وفي كتابه الصغير (المسألة القومية والصراع الطبقي) ، يشير الى أن اليهود ، لكونهم لا أرض لهم ، قد أخرجوا بالضرورة من ميادين الاقتصاد الأولية ، كالزراعة والتعدين ، ودفعوا الى الميادين الهامشية ، كالتجارة والصناعة الخفيفة . وهذا صحيح أيضا ، سوى أنه ينطبق على الطبقات المتوسطة الأوروبية كلها ، وليس فقط على اليهود . وثأتي النقلة الحاسمة في فكر بوروخوف عندما يسقط الطبقة المتوسطة نهائيا من حسابيه ، ويستبدلها بالبروليتاريا اليهودية ، بأسلوب من الخداع الفكري الذاتي ، فيقول : ان كون البروليتاريا اليهودية غير منتجة جعلها عاجزة عن التجمع كقوة اجتماعية ، فقد ضاعت منها القاعدة الاستراتيجية للصراع الطبقي . وواضح أن كلمة (بروليتاريا) مقحمة اقحاما في هذه العبارة ، وأن القاعدة الاستراتيجية للصراع الطبقي ليست أرضا قومية بحسب الماركسية ، وإنما هي الميدان الدولي بأكمله . وتتابع بوروخوف تحليله فأكد على ضرورة الاشتراكية العلمية ، التي ستجعل اليهود بشرا منتجين ، ولكن فقط على أرض خاصة بهم .

لم يكن بوروخوف يؤمن بالتراث اليهودي . وكان ينظر الى التاريخ نظرة جدلية ، فمضى أن القوى الاجتماعية التي جعلت الحياة مستحيلة بالنسبة لليهود في الشتات هي نفسها القوى الحتمية التي ستخلق منهم برويتاريا منتجة ، ولكن على ارض فلسطين . وقد اختار فلسطين ليس لأنها ارض الآباء والأجداد ، بل لأنها ارض فقيرة ، لن تهتم بها الراسمالية الدولية ، ولن تحاول طرد اليهود منها . وقد رأى أن العرب سيرحبون جدا بمجيء اليهود اليها . فالعرب المحرومون في رأيه من شخصية ثقافية واقتصادية خاصة بهم لن يستطيعوا أن يكونوا أمة - بعكس اليهود تماما . ولأنهم ليسوا أمة ، لن يكونوا قادرين على معارضة منظمة لآثرات خارجية . كان نوعا من الحتمية التاريخية في تصوره أن العرب عاجزون عن تنمية قومية خاصة بهم . وما دامت فلسطين في مأمن من خطط الراسمالية الدولية الشريرة ، فسندمج العرب في اليهود ويصيروا جزءا منهم .

لقد تلقف الصهيونيون أفكار بوروخوف المتمركسة ، واعتبروها أنجيلا صهيونيا . فأول مرة يأتيهم مثل هذا التصور الذي يريحهم من الاشكال الجوهرى بين ايمانهم بالاشتراكية وضرورة استعمار فلسطين ، ويريحهم من المسؤالية الاخلاقية المترتبة عليهم تجاه العرب . وكان بوروخوف قد رسم خمسة شروط أساسية لنجاح الاستعمار لا تنطبق الا على فلسطين ، هي :

- ١ - يجب ألا يكون في الارض اقتصاد راسمالي متطور .
- ٢ - يجب ألا تكون حكومتها في أيدي واحدة من القوى الرئيسية الامبريالية .
- ٣ - يجب ان تكون فيها بدايات جماعة يهودية راغبة في سرورة التحول الى برويتاريا .
- ٤ - يجب ألا تكون قريبة جدا من المراكز الرئيسية للراسمالية العليا .

٥ - لابد للسكان الاصليين من أن يتشابهوا مع اليهود نفسيا وعرقيا بحيث يصيرون ، « تحت ادارة فعالة » ، متكيفين مع القادمين الجدد و « ثقافتهم الرواحية الاسمى » .

وفي مكان آخر ، كتب بوروخوف أن « العوام » فقط يعتبرون السكان عربا أو أتراك .. وليس لديهم سبب يجعلهم يلاقوننا بالعداء فورا . على العكس ، هم يعتقدون أن الارض حق لليهود ، وهم أنفسهم يسمونها « ارض اليهود » .

اننا في هذه الايام نقرا كثيرا من الكتابات الاسرائيلية التي تؤرخ للحركة الصهيونية ، والتي تزعم ان القادة الصهيونيين انفسهم لم يكونوا واعين بمشكلة اسمها العرب . ان نظريات بوروخوف هذه ، التي مارست تأثيرا طائفا على الحركة الصهيونية حتى عام ١٩٠٦ ، والتي شكلت اساسا للنشاط الصهيوني حتى عام ١٩٢٠ ، تنفي نفي قاطعا اي جهل او غياب وعي بالمشكلة العربية .

اسطورتان :

هذه المصادر والمؤثرات الفكرية في الحركة الصهيونية سرعان ما تبلورت في اسطورتين قويتين تشكلان الاساس العقائدي للحركة الصهيونية . ونحن نعلم ان كل حركة سياسية تنشئ اساطيرها الخاصة بها لكي تستمد منها مبرر بقائها ووجودها ، ولتبقى معنويات افرادها عالية وزخمها الخاص مستمرا . ويمكن ان نصنف هذه الاساطير في مجموعتين ، تربط الاولى بالاصول ، والثانية بالرسالة .

لقد اعتمد الفكر الصهيوني اسطورة الاصول بسهولة . وانطلاقا من الفكر القومي الاوروبي ، الذي جعل كل امة اوروبية كيانا عضويا مفرقا في القدام ، صار عمر الامة اليهودية في نظر المفكرين الصهيونيين يقارب اربعة آلاف عام . فابراهيم الذي هو منشئ الامة اليهودية ، وجد

بحسب مقولاتهم في القرن الثاني والعشرين قبل الميلاد . ولم يكونوا في توكيدهم للهوية القومية بحاجة الا لتحويل التوراة من كتاب ديني الى كتاب تاريخي ، رغم ما فيه من تزوير وانتحال ومبالغات وكذب ، والايمان بان ما سجل فيه حقائق تاريخية موثقة لا يأتيها الباطل . وتحولت المشكلة اليهودية ، التي هي نتاج رأسمالية القرن التاسع عشر ، الى مشكلة ازلية ، كونية ، وستظل أبدية ، تعم اليهود كلهم ، وسببها الاولي الوحيد هو الشتات .

لهذه الاسطورة تفرعات وامتدادات كثيرة لا مجال للتطرق اليها هنا . غير ان ثلاث نقاط هامة ترتبط بها لا بد من ذكرها . اولها اضطرار المفكرين الصهيونيين الى تبني نظرية مستحيلة في الصفاء العرقي لليهود ، سرعان ما آمنوا ايماناً دينياً ، مقلقا دون العقل والمحاكمة . وبذلك اقترب الفكر الصهيوني من عرقية فاشية سبقت تاريخيا ظهور النازية ، وتفوقت عليها في جيل الصابرا الذي جاء بعد جيل الرواد .

والنقطة الثانية هي العداء المحكم لكل ما هو ديني في تاريخ اليهود ، سواء في التوراة أو التلمود أو الكتابات اليهودية الأخرى . والحقيقة أن العداء الشديد كان متبادلا بين الصهيونيين والتراثيين الدينيين . فالحاخامون ، الذين حافظوا على التراث اليهودي ، اعتبروا الصهيونية نهاية لليهودية ، وقاوموها بكل ما يملكون من امكانيات . أما الصهيونيون فاعتبروا الانبياء والحكماء في بني اسرائيل حفاري قبور لليهودية « الحقيقية » ، وراحوا يمجدون الملوك الذين « عملوا شرا في عين الرب » . ونظروا الى الرب نفسه كإله للبراكين ، يمشي أمام الجنود في الحرب ويقاتل معهم . وراوا في يهودي الشتات ما يستدعي اشمزازهم واحتقارهم لانفسهم ، وأصروا على اعتبار انفسهم « عبريين » ، مسترجعين ذكرى القوة الفازية لأرض كنعان التي أسست مملكة بحد السيف ، ووضعت ، في تصورهم ، البدور الاولي للقومية اليهودية . وواضح أن هذا الموقف متأثر بفكر نيتشه أساسا ، وفاغر الى حد ما .

النقطة الثالثة جديرة باهتمام خاص من المثقفين العرب . وهي أن الصهيونية قديمة قدم اليهودية . ان بعضنا يؤمن بها إلى حد ، ويرى فيها تعبيرا تاريخيا عن الشر المتأصل في اليهود . ومثل هذا الموقف ليس بعيدا عن اللاسامية ، كما أنه يفضل حقائق التاريخ التي تثبت أن الصهيونية كفكر وحركة امتداد للفكر الاوروبي الاستعماري . والفكر الصهيوني يرى أنه منذ سقوط اورشليم عام ٧٠ (وكانت في الحقيقة محتلة من قبل الرومان منذ عهد بعيد) ، بدأت الصهيونية ، واستمرت على شكل ايمان لا يتزعزع بالعودة الى كنعان وبناء المعبد من جديد . وليس اختتام الصلاة في عيد الفصح اليهودي بعبارة (العام القادم في اورشليم) الا تعبيرا عن صهيونية تاريخية لم تستطع القوى اللاسامية أن تحوها . ان العنصر الاسطوري والتلفيقي واضح هنا . وان القفز فوق حقائق التاريخ لا يضل احدا الا الذين يقومون به . فقد انتشر اليهود في أرجاء الامبراطورية الرومانية ، وبعد وقت قصير وجدوا وضعهم الاقتصادي فيها مريحا أكثر بكثير مما كان عليه في فلسطين . لذلك آثروا الشتات على العودة . والحقيقة أنه لم يكن ثمة شيء عميق عودتهم لو أرادوها ، فهم لم يكونوا واحدا من الهموم الكبيرة للامبراطورية الرومانية ، ولا ذاكرة قوية في تاريخها . لكن وضعهم الاقتصادي الممتاز جعلهم يؤثرون أوطانا جديدة ويستقرون فيها . وقد ذكرنا الشيء نفسه عن وضعهم الاقتصادي المائل في عصر الاقطاع الاوروبي . وبهنا ان نذكر وضعا ثالثا فاق كل توقعاتهم في ظل الامبراطورية العربية ، وخاصة في الاندلس حيث كانت لهم حرية ثقافية واجتماعية كاملة جعلت فكرة العودة هذه ضربا من الجنون .

لكن الصهيونيين رفضوا هذه الوقائع كلها ، واعتمدوا عبارة (العام القادم في اورشليم) ، المرتبطة أساسا بتصور ديني عن القيامة ونهاية العالم ، كدليل على توق قومي أصيل . كانوا محتاجين الى أسطورة اصول فصنموها . ولم يحاولوا قط أن يجيبوا عن الاسئلة التالية التي وضعها اليهودي الماركسي ابرام ليون : لماذا ، خلال ألفي عام بعد سقوط

أورشليم ، لم يحاول اليهود العودة الى تلك البلاد ، ما دامت الصهيونية قديمة كاليهودية ؟ لماذا كان ضروريا الانتظار حتى نهاية القرن التاسع عشر كي يظهر هرتزل ويقنعهم بضرورة العودة ؟ لماذا ليس قبل ذلك او بعده ؟ لماذا عومل امثال هرتزل من قبل كمسيحين زائفين وحرقوا ؟

اما الاسطورة الثانية ، اسطورة الرسالة ، فقد تقدمت من اليهود بصورة طوباوية ليهودي المستقبل . انه اليهودي اللايهودي ، الذي سيعود الى فطرة الانسان متخلصا من تشويه الشتات ؛ اليهودي القوي ، المحارب ، الذي يعيش في مجتمع الحرية والعدل والكرامة والامن ، ويتمتع بصحة نفسية افضل حتى مما لدى الامميين ، ويجرد اعداءه اللاساميين من اي مسوغ لكراهيته واحتقاره .

لقد استهدفت اسطورة الرسالة اساسا اعلان الحرب على عدوين اعتبرتاهما نوعين من المطلق : الشتات واللاسامية . لقد كان الحس اليهودي بالشتات شبه مفقود حتى اواسط القرن التاسع عشر . وفي هذا القرن بالذات ايضا اتخذ التنافر الديني بين مسيحي ويهودي هوية سياسية ، بسبب انقلاب البنية الاقتصادية الاوروبية . لكن الفكر الصهيوني اعتبر الشتات ظاهرة سياسية بدأت منذ عهد الرومان ، واللاسامية موقفا ازليا من الامميين ازاء اليهود ، وأعلنت ان لديها الحل الابدي لمشكلة ابدية .

وهكذا تقدمت اسطورة الرسالة من اليهود بدين جديد هو مزيج من عبادة الارض وعبادة العمل . فأرض اسرائيل هي البيئة الوحيدة في العالم التي يمكن لليهودي فيها ان يكتسب صحة نفسية وانسانية ، خسرها منذ خسر الارض . كذلك فان هذه الارض نفسها فقدت صحتها واتاحتيتها منذ تركها اليهودي ، وتحولت الى صحارى ومستنقعات على ايدي اناس لم يخلقوا لها ولم تخلق لهم . ان صورة الصهيوني الذي يجفف المستنقعات ويخصب الصحارى واحدة من أبرز الصور الثقافية في اذهان المهتمين بها في الغرب . وكان الاصرار على العمل اليدوي في الارض يقارب

حد الهوس عند المهاجرين الاوائل . فالعمل اليدوي هو الذي سيعيد الصحة لكلا الارض وأصحابها التاريخيين . وهو الذي سيحقق العدل ، اذ يحول دون استغلال العرب استغلالا رأسماليا . وهو الذي سيثبت حقهم التاريخي في الارض بتحويله الى حق عملي . وكما اشرنا سابقا ، كان الصهيونيون في حاجة الى قوة تكفي للسيطرة على الارض ، لم يكونوا يملكونها لا في ميدان الصناعة ولا رأس المال ولا التجارة ، على نحو ما توفر للاستعماريين الاوروبيين . وكان لابد لهذه الحاجة العملية من غطاء عقائدي ، فاخترعوا الفطاء وصنعوا منه أسطورة زئ :

ثلاثة اطوار :

مر هذا الفكر الصهيوني والمحاولات المبذولة لخلق ثقافة صهيونية بثلاثة اطوار . ونحن نستمد التواريخ من وقائع الهجرات الصهيونية الى فلسطين . فبين ١٨٨٢ و ١٩٠٦ كان الطابع الغالب للهجرة الصهيونية استعمارية بالمعنى التاريخي المتداول . ان اثرياء اليهود من أمثال روتشيلد ، رأوا من الحكمة مطامنة غليان فئات الطبقة المتوسطة من اليهود بإرسالهم خارج أوروبا . لذلك دفعوا بسخاء لأجل اقامة مستعمرات صهيونية في فلسطين يهاجر اليها نافدو الصبر من أفراد هذه الطبقة ، فيتوقفون عن مهاجمة الرأسمالية ، وخاصة اليهودية منها . ان مستعمرة ريشون لوزيون أشهر من ان تعرف . وفي جميع هذه المستعمرات ، كان الصهيونيون يمارسون نشاطاتهم الفكرية كأسياد أوروبيين ، بينما يقوم بالعمل المؤجرون العرب .

هذا الوضع اثار سخطا شديدا لدى أفراد الهجرة الثانية ، الذين جاؤوا بعد فشل الثورة الروسية عام ١٩٠٥ . لقد رأوه وضعاً لا صهيونيا، رأسماليا وبورجوازيا عفنا، عاجزا عن خلق ثقافة صهيونية . ومنذ هذا التاريخ حتى انفجار الثورة الشعبية الفلاحية في فلسطين ضد الانكليز والصهيونيين عام ١٩٣٦ ، تنتقل الحركة الصهيونية الى الطور الثاني ، الذي هو بحق محاولتها الجديدة العملية لخلق ثقافة صهيونية ،

وضع نظرياتها موضع التطبيق . وسرعان ما بدأت حركة نشطة لاقامة تعاونيات زراعية شيوعية ، يعمل سكانها بأيديهم ، وينتجون حاجاتهم كلها دون أن يملكو شيئا كأفراد ، وبخاصة المال . لقد أرادوا أن يخلقوا اليهود الجديد ، ويجروره من لا انتاجيته وعبوديته للامميين ، وأن « المجتمع الخير العادل والكامل أخلاقيا » . وقد اختاروا عزلة مطلقة عن العالم الخارجي كي ينصرفوا انصرافا كليا الى تكوين شخصيتهم الجديدة .

وكان أبرز انجاز ثقافي حققوه هو احياء اللغة العبرية وجعلها لغة محكية ، وتطويعها ما أمكن لمتطلبات العصر . وكان بن يهودا ، الذي حل في فلسطين عام ١٨٨٢ اول من بدأ هذا الأحياء برفضه التكلم مع زوجته وأمه وولديه الا بالعبرية . وقد تابع صهيونييو الهجرة الثانية محاولته بدأب كامل ، الى أن تمكنوا من خلق جمهرة لا بأس بها من المتكلمين بالعبرية ، وأوصلوا العبرية الى أن تكون لغة الدولة الرسمية عام ١٩٤٨ ، وتقف جنبا الى جنب مع الانكليزية والروسية .

كذلك حققت محاولة الاستقلال الاقتصادي ضمن التعاونيات الزراعية نمطا جديدا للحياة ، وولدت علاقات جديدة بين سكان هذه التعاونيات ومن البديهي أن يكون الهم الوحيد لديهم تكوين نوع من الاحترام الذاتي ، والشعور بالجدارة ، نابعين من تحول هؤلاء السكان الى عمال منتجين لا يعتمدون على أحد في كسب عيشهم وتأمين استمرارهم . اما مسألة علاقتهم بالقوى الكبرى وبسكان الأرض الاصيلين فقد أبعدت عن أذهانهم . وتعاموا بتتبع أهدافهم عن النظر بجديفة الى تناقضات صميمية في مشروع وجودهم وفي علاقتهم بالعالم ، رغم أن هذه التناقضات كانت ماثلة أمامهم وتذكرهم بنفسها يوميا عبر السلطات التركية التي كانت تعتقل بعضهم ، وعبر الاغارات العربية المخففة على مستوطناتهم . فالى جانب المعول ، كانت البندقية الجيدة جاهزة باستمرار لاطلاق النار .

اننا في هذه الفترة نلتقي بكلمات عديدة دخلت في كثير من لغات العالم . ثمة بالتحديد الكيبوتز ، والحالوتزيم ، والصابرا . ولعلنا بشيء

من التعميم نستطيع القول بأن هذه الكلمات الثلاث تشير الى كل ما استطاعت الحركة الصهيونية ان تنجزه على الصعيد الثقافي . فالكيبوتز بيئة مختلفة . انه اول تجربة زراعية شيوعية ، واول محاولة لازالة حس الملكية واحلال المشاعية والعلاقات الحرة محل قوانين المجتمع البروجوازي . ولان سكان الكيبوتز لم يكونوا يرون سوى انفسهم ، فقد انصرفوا الى خلق حياتهم الجديدة بتكريس كامل . هؤلاء السكان هم الحالوتزيم ، او الرواد ، ابناء الطبقة المتوسطة في أوروبا ، الذين صمموا على خلع انفسهم من ثقافتهم الاوروبية واليهودية وتطبيق الماركسية على صعيد زراعي . كانوا يستيقظون مع شروق الشمس ، ويقضون سحابة نهارهم في العمل على الارض . وفي المساء يجتمعون في ندوة بنوها بانفسهم ليتناقشوا في الماركسية ، والراسمالية ، والدولة اليهودية ، والعرب الذين سيندمجون فيهم ، ومختلف الموضوعات الدولية الاخرى . وفي ساعة مبكرة يخلدون الى النوم في مهاجع جماعية بنوها ايضا بانفسهم ، فمن شاء نام للتو ، ومن شاء مارس الجنس دونما رقابة . وكانت المستوطنة حصنا زراعيا ، قادرا على الدفاع عن نفسه ، له حرسه الليلي، ومستودع اسلحته وذخيرته . حتى اذا ما هاجم العرب بيواريدهم الصدئة كانوا خاسرين على الدوام .

هؤلاء حاولوا ايضا خلق جيل نقي تماما من اية مؤثرات برجوازية مهما كانت ، جيل ينهض وحده كالصبار في الارض الصحراوية . هذا الجيل هو ما يسمى بالصابرا ، جيل الابناء الذين ولدوا في فلسطين ، التعبير العملي الحي عن اليهودي الجديد المعافي ، اللايهودي ، المستقر في وطن العدل والخير والسلام والحرية ، الذي يرقص (الهورا) ، ويتمتع بخصائص تميزه عن يهودي الشتات وبقية شعوب العالم .

يجب الا نخلدنا اهمية الكيبوتز وسكانه . فعلى الصعيد الانساني ، كان النتاج معاكسا تماما للصورة الدعائية التي مهر الاسرائيليون في تقديمها للعالم . ان الجيل اليهودي الجديد ، او الصابرا ، اكثر مرضا من انذاده في بلدان أوروبا ، وبالتأكيد ابعد ما يكون عن اية انسانية

منشودة . فهذه الطرزانات العبرية ، كما يسميهم آرثر كوستلر ، بدائية الى حد الهمجية ، فاقدة لأيما قدرة على الحب والتعاطف والتواصل الانساني ، مؤمنة بالقوة والعنف ، كارهة لبني البشر قاطبة . والذي يقرأ عن الصابرا في روايات يائيل دايان وغيرها من كتاب اسرائيل يجد نفسه امام حالات نفسية مرضية ، اين منها التبشيرات الاسطورية بالانسان الجديد التي اطلقها الفكر الصهيوني .

لقد كان جيل الصابرا هو المحك والمييار لنجاح الصهيونية انسانيا . وسما لا جدال فيه ان الفشل قد توج محاولة الصهيونيين لخلق أنماط جديدة لحياة مختلفة تؤسس لثقافة صحية ومعافاة . كذلك فشلت محاولة جعل التعاونيات الزراعية طابعا قوميا لاسرائيل . فسكان الكيبوتزات لم يتجاوزوا في أفضل الحالات ثمانية بالمئة من البنية الاقتصادية والسكانية لاسرائيل . وفي معظم الحالات ، كانت نسبتهم لا تتجاوز اربعة بالمئة . بمعنى آخر ، ان كثيرا من العناية قد دخل في تصورنا لهم ، وان الحقيقة المتعلقة بما نسميه تجاوزا ثقافة صهيونية ، كانت في مكان آخر ، في الاعداد الغفيرة قياسا من ساكني المدن الذين حافظوا على الطابع الاستعماري التقليدي لمهاجري الموجة الاولى ، والذين شكلوا العمود الفقري لجيش محارب بدأ بين غوريون وبن زفي ينشأه منذ عام ١٩٠٩ . ان التفكير بانشاء هذا الجيش ، يعني ادراك القيادة الصهيونيين ان محاولات خلق ثقافة جديدة ويهودي جديد لم تكن غير تبرير عقائدي واسطورة ضرورية لحركة استعمارية صرف . وينبغي التوكيد على هذه النقطة ما أمكن . لان الفكر الصهيوني ما فتى يؤكد على براءة المهاجرين ، وطوباويتهم ، والانصرافهم الى الاحلام انصرافا انساهم الواقع ، لكي يخفف من استنكار المفكرين العادلين للحركة الصهيونية . وان خير دليل على ما نقول هو المال الذي وصلت اليه محاولات خلق هذه الثقافة وهذا اليهودي الجديد .

صحيح ان الرواد اعطوا صورة ثقافية مختلفة لاسرائيل ، لكنها ظلت صورة دعائية ، وكان الواقع شيئا آخر . فمند ١٩٣٦ راحت أسطورة

الرسالة تتلشى ، وراح بروز الطبيعة الاستعمارية للحركة الصهيونية يطيح بالاحلام المزعومة ويضع حدا لكل ما هو ليس مقاتلا او عنصريا او أداة بيد الامبريالية العالمية . واذا كانت اسطورة الاصول قد بقيت كحاجز نفسي ضد الانهيار النهائي ، فان وقوع الكيان الصهيوني في القبضة الاقتصادية الامبريالية - بعكس ما اراده بورخوف - قد ألغى كل امكان لقيام ثقافة صهيونية متميزة . ان سقوط اسطورة الرسالة ، وخاصة ايجاد حل للمسألة اليهودية ، قد أوصل الاسرائيليين الى وضع معاكس تماما . فبينما حلت المسألة اليهودية في جميع انحاء العالم ، بقيت في اسرائيل . وبقي هذا المجتمع الاسبارطي نموذجا جديدا للفتوة اليهودي الاوروبي السابق ، مع فرق واحد هو انه متخم بالسلاح . لقد ابتعدت البنية الاسرائيلية باضطراد وبشكل حاسم عن كل ما هو شيوعي واشتراكي ويساري ، وتقلصت فكريا وثقافيا الى معطيات برجوازية صرف ، وادعاءات تاريخية عجزت عن خلق تيار ثقافي حتى بين الابداء الاسرائيليين انفسهم . ان ابرز ابداء اسرائيل اليوم هم الذين يكتبون بضغط شعور طاغ بخطأ تاريخي فادح ، بما يشبه جريمة سيقوا الى اقترافها من يسمون الآن اسرائيليين ، بوعي ممزق بان الدولة الاسرائيلية صنيعا اسرائيلية محض لا تستطيع ان تتنفس الا بمضخة امريكية . وقد بلغ هذا التحول ذروته باستلام اقصى اليمين الاسرائيلي للسلطة ، ممثلا بمناحيم بيغن .

ان مناخيم بيغن رمز سياسي ، ورمز ثقافي ايضا . فهو ، وسلفه جابوتنسكي ، والحركات الارهابية التي اسسها ، كانوا الصوت الصادق الوحيد في الحركة الصهيونية . هؤلاء لم يستروا بالايديولوجيا وبالاساطير على غزوهم لفلسطين . لقد اعلنوا منذ البداية انهم سيأخذونها بالقوة . ولم يكونوا في هذا بعيدين عن بن غوريون وحزبه الاشتراكي . فن غوريون ، يوم أسس الجيش الصهيوني ، جعل شعاره العبارة التالية : « بالنار والدم سقطت يهوذا ، بالنار والدم ستنهض يهوذا ثانية . » غير ان بن غوريون كان اذكي ، فعرف كيف يزود الحركة الصهيونية بالغطاء الفكري المناسب .



وسائل الإعلام الغربية والإنسلاّب الثقافي لماذا تؤثّر؟ وما أشكال التأثير المتوقعة؟

د. صالح أبوأصبع

وسائل الإعلام الغربية والإنسلاّب الثقافي

في البدء قبل أن نخوض في بحثنا المقترح عنوانه « وسائل الإعلام الغربي والإنسلاّب الثقافي » فاني أحب أن أشير الى بعض الامور الفنية والمنهجية .

أولاً - انني أفضل كلمة الإنسلاّب بدلا من الاستلاب ، ذلك لان الاولى تشخص حالة المغزو المنسلب ، بينما الثانية تشخص حالة الغازي المستلب . . وطبعي أننا معنيون بحالتنا نحن المغزوين .

ثانيا - ان دراسة تأثير وسائل الاعلام بشكل عام على المواطن العربي لم تلق عناية كافية - هذا اذا وجدت - من علماء الاجتماع والاعلام في الوطن العربي . .ومن ثم فان الحديث عن الامبريالية الثقافية يظل في احسن الاحوال شيئا نשמه ، ولكننا لا نستطيع ان نمسك به وذلك لنقصان الابحاث - بل وانعدامها - التي تدرس تأثير البرامج الاعلامية الغربية - كاشرة الاذاعة المرئية والخيالة - على الجماهير العربية ، وكذلك لنقص الدراسات التي تبحث مدى تأثير قصص الاطفال والمجلات المترجمة امثال السوبرمان والوطواط على الطفل وتكوين مثله وقيمه وسلوكه .

وايضا لنقص الدراسات التي تحلل مضمون صحافتنا العربية ، وتكشف مدى ماتضمنته من مادة اصيلة او مقتبسة ، ومدى تأثيرها على القارئ ، ولذا فان البحث الميداني مفتقد ، وهو الاساس الذي يمكن ان يعتمد عليه في دراسة تأثير وسائل الاعلام على الانسلااب الثقافي .

- ثالثا للسبب السالف ، فان هذه الدراسة تقدم اطارا نظريا لدراسة تأثير وسائل الاعلام الغربية على المواطن العربي ، وخلق حالة انسلااب ثقافي لديه .

رابعا - لا يمكننا ان نعزو سبب الانسلااب الى غزو الثقافة الغربية لثقافتنا العربية وحدها ، ذلك يمكن ان يكون تعميما ضارا ، يؤدي الى تجاهل كل الاسباب الحقيقية التي تؤدي بمواطن ما الى حالة الانسلااب .

ان الثقافة الغربية بلاشك عامل هام من العوامل التي تؤدي الى الانسلااب ، ولكن يجب ان نشير الى ان المناخ السياسي والاجتماعي الذي يعيش فيه المواطن العربي يخلق جوا يهيء لحالة الانسلااب ويدفع اليها . ان كبت الحريات والقمع الذي يلقاه المواطن العربي نفسيا وجسديا ، وان الاحباط التي يواجهها المواطن على مستوى القضايا القومية . هذه العوامل كلها ، تؤدي الى خلق فرص تهيم لقبول حالة الانسلااب وتعزيزها .

هذه اشارة ضرورية ، لتعرف ان نجاح الغزو الثقافي الغربي يتعزز من خلال عوامل داخلية ، سياسية واجتماعية ونفسية . وهنا لن نخوض في هذا الجانب ، لطبيعة البحث سوف تقتصر على دور وسائل الاعلام الغربية في الانسلاخ الثقافي .

الغزو الثقافي ظاهرة عالمية :

الامبريالية الثقافية ظاهرة عالمية في عصرنا الحاضر ، وكما نعاني منها تعاني منها دول العالم النامية كافة . ودول العالم المتقدمة سواء بسواء وان اختلفت الدرجة .

وتختلف خطورة الامبريالية الثقافية من بلد الى آخر . وبمقدار ما تقترب ثقافة الغازي من المغزو تضيق حدود الاهمية ، وكذلك بمقدار ما تواجه الثقافة الغازية من مقاومة من الثقافة المغزوة ، فان الخطورة تتضاءل . ولكن المسألة بالنسبة للوطن العربي شيء آخر فالثقافة العربية لا تواجه الثقافة الغازية في اطار موحد ، اذ ان الكيانات الاقليمية يندم فيما بينها التنسيق لمواجهة الغزو الثقافي الامبريالي الغربي ، ومن ثم فالقضية بالنسبة للانسان العربي تصبح مهددة لثقافته .

اننا في هذا العصر نواجه ما اسماه تومس ماك فيل Thomas Mophail (١٩٨٠ ص - ٢٠) بالامبريالية الاليكترونية والتي يعرفها بقوله :

« بانها علاقة التبعية التي تأسست باستيراد معدات الاتصال والبرامج الاجنبية ومعها المهندسين والفنيين ، وما يتعلق بها من بروتوكولات ومعلومات ، وذلك بخلق الاسس لمجموعة من المعايير والقيم الاجنبية والتوقعات والتي يمكن ان تغير الثقافة المحلية وعمليات التنشئة الاجتماعية الى درجات مختلفة . فالاستيراد يتنوع من الكتب الهزلية الى الاقمار الصناعية ، ومن الكومبيوتر الى الليزر وبجانبيها المنتجات الاكثر تقليدية مثل البرامج الاذاعية والمسرح واشرطة الخيالة وخدمات البرق وعروض الاذاعة المرئية » .

الانسلاب ما هو ؟

ان ما يعنينا هنا هو دراسة تأثير الامبريالية الاليكترونية على مسألة الانسلاب الثقافي في الوطن العربي .

ان الانسلاب حالة نفسية تؤدي بالفرد الى الانسلاخ عن ثقافته وتبني اخرى . كتب شاتز ورفيقه ونتر : Schatz and Winter ، (١٩٦٦ . ص ٣١٩) « بأن امكانية الانسلاب قائمة حيثما كان الانسان - سلبا او ايجابا - يرتبط بالعالم الموضوعي المحيط به من اجل العثور على ذاتيته وتوافقها مع نفسه على الرغم من اختلافها عن هذا العالم ، ومن ثم فان الانسلاب يصبح مرادفا للتنافر مع ثقافة المجتمع » .

ان الانسلاب بأبسط تعريفاته حسب ما يراه جاك الول Jacques Ellul (١٩٧٣ : ص - ١٦٩) هو « ان تصبح منسلبا هو ان تصبح شخصا آخر غريبا اكثر من كونك نفسك ، وكذلك يمكن ان تعني ان تصبح خاصا بشخص آخر ، وبمعنى آخر فان هذا يعني انسلاخ الشخص عن نفسه ليصبح خاضعا ، وحتى ممثلا بشخص آخر » .

ويرى جاك الول بأن تحقيق حالة الانسلاب هو هدف من أهداف الدعاوة التي تلتزم بتوظيف وزيادة وتدعيم ميل الشخص بفقدان ذاته في امر اكبر منه كنزاع يطمس شخصيته ، ويحرر فيه الانا من كل شك وصراع ومعاناة من خلال الدويان مع الآخرين . ومن ثم فان هذه الدعاوة تخلق حاجات مصطنعة في انفسنا كزيادة في الرغبات والهوى والحاجات غير الضرورية .

وهذه الحاجات المصطنعة تفترض اهمية معقولة بسبب طبيعتها العالمية ، وبسبب وسائل الاعلام التي تم بها التحريض على تلك الحاجات وتصبح مطلوبة وضرورية للفرد اكثر من احتياجاته الخاصة ، ومن ثم فانها تقوده الى التضحية برغباته الخاصة . وما يجري في الاقتصاد يجري كذلك في السياسة والثقافة ، فان نمو الحاجات تدريجيا يقضي

على حاجات الفرد وميوله الشخصية . وهكذا فان ما يجري ، في الحقيقة ، هو تدمير الفرد لنفسه من الداخل ، وهذا التدمير مصمم بحيث يسلمه الى قوى مجردة ذات توجه ميكانيكي . وعلى هذا المستوى أيضا ، فانه بمقدار ما يقتنع الفرد بأن ما يفكر به أو يشعر أو يفعل انما هو من ذاته يعظم الانسلا ب .

ماذا تريد الامبريالية الثقافية ؟

ان تتبعنا لما يجري اليوم في العالم الثالث اليوم وفي الوطن العربي — على وجه التحديد — سوف يجعلنا ندرك ان الاستعمار القديم والاستعمار الجديد يستهدفان دوما صنع مناخ ملائم لانسلا ب افراد المجتمع المغزو . لان مثل هذه الحالة الفكرية سوف توحد بين تطلعات المنسلب والمستلب وبالتالي فان فرصة تحقيق مصالح المستعمر يمكن أن تتحقق وتستمر باستمرار الذهنية المنسلبة التي تضمن سيطرة المستعمر .

ففي كتاب الشؤون الثقافية والعلاقات الخارجية كتب روبرت بلم Robert Blum (١٩٦٣ ص — ٢٠) يقول : « انه التزام منا أن نفعل ما وسعنا الجهد لنمارس نفوذنا الثقافي — أي الامريكي — بطريقة تساعد الآخرين وبحيث لا يكون حجم المساعدة يسمح للمبادئ الغربية بأن لا تمد الآخرين بشيء سوى التطلع الى تغيير غير مسيطر عليه . هذه مهمة ثقافية اساسية تستلزم تصورا واضحا لقيمنا وللطريقة التي فيها ترغب من الآخرين ان يشاركوننا بها هذه القيم » .

ان هذا المفهوم الامبريالي يرينا بوضوح كيف يتصور الغربيون مدى نفوذهم الثقافي لا شيء سوى السيطرة ونشر قيمهم الثقافية ، واذا كان الاستعمار القديم قد دخل بادواته العسكرية لاحتلال الارض ، فان ادواته الثقافية جاءت لتغزو العقول ، وكانت أحد الاهداف الاساسية هي نشر لغة المستعمر في البلد المستعمر . وللأسف ان الكنيسة في العالم الغربي تعزز الامبريالية وتدعمها ، كان ذلك واضحا في المرحلة الاستعمارية

وخاصة في افريقيا حيث رافقت الكنيسة القوى الاستعمارية كذراعها الثقافي في حملات الغزو . . . واليوم لا تختلف الرؤيا كثيرا ففي مقال نشر في مجلة دينية عنوانها The Plain Truth يكتب ريموند ماك نير Raymond Mcnair في شباط ١٩٨٢ مقالا بعنوان اللغة العالمية يقول فيه :

« يبدو غريبا للوهلة الاولى ان ارادة الله رفعت اللغة الانجليزية كاداته الرئيسية التي بها سينشر ويعلن الاخبار الطيبة لملكته القادمة لمعظم العالم في نهاية العصر . . . ليست الانجليزية فحسب هي لغة الكتابة والاذاعة والكلام والتفاهم في كل القارات ، ولكنها أصبحت اللغة المشتركة اللغة العالمية للدبلوماسية والتعليم والعلم والتجارة والرياضة .
ولهذا فان الانسان يستطيع ان يرى بوضوح لماذا اختار الله اللغة الانجليزية كاللغة رقم واحد للوصول الى اكبر عدد من سكان الارض مع انداره النهائي للبشرية وتبشيره بالاخبار الطيبة لعالم الغد » .

ان المرء لا ينكر ما للانجليزية من انتشار ، ولكن ما ينكره هو الروح التي وراء مثل هذا التصريح التي تطرح لغة ما بديلا للغات الشعوب ولكن هذا التصور له ما يبرره ، ان التبعية التي يعاني منها العالم الثالث بشكل عام هي التي تجعل هذا التصور ممكنا ، فكما يلاحظ انتوني سميث Antony Smith (١٩٨٠ - ص ٢٧) انه حتى الآن فان دول العالم الثالث التي أحرزت استقلالها السياسي في هذا القرن ، ما زالت تعاني من تبعية اقتصادية وتبعية ثقافية .

ومن ثم فاننا نرى ان مثل هذا الاستقلال السياسي يصبح امامه علامة استفهام كبيرة في مثل ظروف هذه التبعية .

وفي ايماننا هذه ، فان دول العالم الثالث تشعر بفداحة هذه التبعية وما فتئت تناضل من اجل الانفكاك منها ولعل النضال في المجال الدولي من اجل خلق نظام اقتصادي عالمي جديد انما هو خطوة على هذا السبيل

والذي نظريا . . تعزز من خلال الوثيقة رقم (١٩٧٢ - ٢٢٠٢ - ٣٢٠١) التي اصدرتها الجمعية العامة للأمم المتحدة ، بناء على توصيات دول العالم الثالث من اجل خلق نظام اقتصادي عالمي جديد . ولعل الحوارات بين الشمال والجنوب هي خطوة اخرى على هذا الدرب . ومن اجل الانفكاك من اسار التبعية الثقافية فان النضال في اطار اليونسكو من اجل خلق نظام عالمي جديد لتدفق المعلومات والاتصال ، انما هو شعور بخطورة ماتعانيه دول العالم الثالث من هيمنة تهدد الثقافة الوطنية والشخصية وشخصية الافراد وشخصية المجتمع على حد سواء .

ان مسألة الغزو الثقافي في حد ذاتها تنبع من عدم المساواة التي تؤدي الى الظلم ، ان الدول الغربية التي امتلكت التقنية من صناعة الآلات الى صناعة الاشرطة وقرراتها على النفاذ الى الاسواق العربية تهدد الثقافة العربية . حيث نجد العجز والتخلف الذي لا يستطيع مجاراة تلك التقنيات الغربية وامكاناتها المادية والفنية . ومن هنا تكمن عدم المساواة التي تؤدي الى ظلم المجتمعات بتهديد ثقافتها الوطنية وخلق حالات من الانسلاخ لدى مواطنيها .

وسائل الاعلام المعاصرة والهيمنة الغربية

ان وسائل الهيمنة الغربية الثقافية تكمن في التحكم فيما يلي :

- ١ - وكالات الانباء العالمية بما تمتلك من قدرات على نقل اخبار العالم وتشكيل التصورات عن الاشخاص والشعوب والثقافات .
- ٢ - التحكم بالاتصالات الدولية من خلال الاقمار الصناعية والاتصالات اللاسلكية .
- ٣ - التحكم بالسوق التجاري - صناعة وتسويقا - الصناعة تشكيل العقل البشري من خلال الافلام - الكتب الاسطوانات - المجلات . . الخ .
- ٤ - التحكم بالتقنية انتاجا وتسويقا .
- ٥ - الاذاعات اللوجية .

أولا : وكالات الأنباء العالمية

يعرف ال هستر (١٩٧٤ : ص ٢٠٨ - ٢٠٩) وكالة الأنباء العالمية بأنها تلك التي تغطي بخدماتها الكرة الأرضية وبمقدورها أن تغطي الأحداث في جميع الأماكن الهامة .

وينطبق هذا التعريف على خمس وكالات عالمية هي : وكالة الأنباء الفرنسية ، الاسوشيتدبرس ، رويتر ، تاس ، . . اليونائيندبرس . أن دور وكالات الأنباء العالمية أساسي في تشكيل آراء الأفراد وفي تكوين الزاوي العام حيث معظم ما ينشر من صور عن العالم الخارجي في وسائل الاعلام العربية إنما يأتي من خلال اقية هذه الوكالات ، وقد تكون هذه الصور ذات أهمية كبيرة ولكنها تغطي تغطية ضئيلة أو العكس .

وعلى الرغم من وجود وكالات انباء عربية محلية ، فان مهمتها في الاغلب مهمة نقل ما يصلها من الوكالات العالمية اذ تقوم الوكالات المحلية باختيار الانباء وتوزيعها على وسائل الاعلام المحلية .

وفي احيان كثيرة ، فان هذه المهمة - التي هي نوع من الضبط والسيطرة على الخبر الخارجي - تسهم اسهاما فعالا في خلق جو يساعد على الانسلا ب . اذ ان القارئ أو المستمع العربي لم يعد يثق في وسائل اعلامه التي كثيرا ما تلجأ الى التضليل . وبالتالي يهرب القارئ والمستمع العربي الى مصادر اجنبية يعطيها ثقته ، وهي بدورها تقدم رؤى غربية تسهم في بناء تصورات لدى زبائنها ، تنسجم مع ثقافتها وتعبّر عنها .

واته لمن السخرية ان يكون للوكالات العالمية الدور الاكبر في نقل اخبار اقطار الوطن العربي واعادة بثها الى هذه الاقطار بينما تعجز الوكالات العربية عن اداء ذلك . ان خطورة ذلك تكمن في ان ما تنقله وكالات الانباء يتلون بمنظار ناقلها ويتلون بمصالح البلد التي يمثلها . وهكذا تعود الينا بضائمننا ليست مرتدية سروالا وقبعة . ولكنها تأتي

مقلقة بلغة الخواجا وتفسيره للامور بما يتفق مع مصالحه . واذا كان الجمهور العربي لا يثق باعلامه فانه بحثا عن « الحقيقة » سيتطلع الى المصادر الاجنبية التي تقدم له الحقيقة من خلال مداقها ومنظورها .

ثانيا - التحكم بالاتصالات الدولية عن طريق الاقمار الصناعية والاتصالات اللاسلكية .

تتحكم الدول الغربية وخاصة الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا بالاتصالات الدولية التقليدية - اللاسلكية - وبالاتصالات الحديثة بما لها من مقدرة على تحطيم العزلة والوصول الى المناطق النائية التي لم تكن تصلها وسائل الاتصال القديمة ... وعلى الرغم من الاسال الواعدة في المقدرة على استخدام الاقمار الصناعية في مجالات التعليم والتنمية ، الا انها تمتلك بعض المخاطر التي تهدد الدول النامية والتي لا تستطيع ان تستثمر جزءا من مواردها في وسائل الاتصال الحديثة مما يؤدي الى عدم مقدرتها على تمويل و انتاج برامجها ، وهذا ينطبق على البلدان العربية غير النفطية ، ومن ثم فان من يمتلك متدرة الاسال من خلال الاقمار الصناعية يمتلك معها ميزة بث برامجها الى تلك البلدان ومن ثم فان تأثير هذا البث على الثقافة المحلية سيكون كبيرا .

ثالثا - الاذاعات الموجهة

لم يعد غريبا ان نجد المواطن العربي حريصا على الاستماع الى نشرة الاخبار من اذاعة لندن البريطانية ، او مونت كارلو الفرنسية ، او صوت امريكا ، او صوت المانيا . ان كل هذه الاذاعات التي تقدم برامج بث بالعربية لساعات طويلة كل يوم ، تستهدف قبل كل شيء اجتذاب المستمع العربي وتشكيل تفكيره .

ان هذه الاذاعات تكتسب جمهورا يتزايد يوما بعد يوم ، مع اضمحلال الثقة بوسائل اعلامه المحلية ، هذا من جانب ، ومن جانب اخر فان

هذه الاذاعات تعد بالنسبة له اطلالة على العالم المتقدم وهي بهذا تتيح له افقا من المعرفة قد لا تقدمها له اذاعته المحلية . وهي الى جانب ذلك تعمل على غرس ثقافتها ، وتخلق لدى المستمع انماط من الحاجات التي هي ليست حاجته ، وتصنع له ابطلا ليسوا هم باطلاله ويعيش في جو اقرب الى الاغتراب . . ويصبح على حافة الانسلاخ اذا لم يكن قد وقع فيه .

رابعا - التحكم بالسوق التجاري لصناعة الاشرطة وبرامج الاذاعة المرئية والاسطوانات والكتب . . الخ .

تعتبر الولايات المتحدة المهيمنة الاولى على صناعة الاشرطة في العالم وينبع مركز السيطرة الامريكية على صناعة الصور المتحركة في السوق العالمية من عدة اسباب :

أ - ضخامة الاستثمارات في قطاع الاشرطة مع التقنية المتقدمة التي رافقت الانتاج السينمائي .

ب - امتداد الشركات الامريكية الى اسواق اخرى ، كفتح فروع لها في بريطانيا وفرنسا واطاليا .

ج - الاشرطة الامريكية هي الاكثر توزيعا في العالم .

د - شركات الاشرطة تسيطر ايضا على شبكة من شركات التوزيع ذات الامتداد والفاضية في العالم كله . حيث يجد المنتجون من البلدان الاخرى انفسهم مضطرين الى توزيع اشراطهم من خلال الشركات الامريكية .

هـ - الانتاج الكمي والنوعي للاشرطة يجعل الاسواق الاخرى غير قادرة على منافسة السوق الامريكي .

وكما يؤكد نوردنسترنغ ورفيقه فارس (١٩٧٤ : ص ٢٩) بأن البرامج المستوردة في البلدان العربية ومعظمها من الولايات المتحدة وبريطانيا ومن الاقطار الغربية الاخرى وعلى سبيل المثال ففي لبنان ٥٠٪ من البرامج المستوردة تأتي من الولايات المتحدة وفي مصر ٧٠٪ من البرامج المستوردة استوردت من الولايات المتحدة، واما اليمن الديمقراطي فان ٢٥٪ من برامجه المستوردة امريكي و١٥٪ بريطاني و١٠٪ سوفيتي .

واذا اضفنا الى ذلك ما يعرض في دور العرض السينمائية واشرطة الفيديو ، فاننا ندرك ان السوق العربي يعاني من سيطرة سوق الاشرطة الامريكية .

وعلاوة على هذا . ففي مجال الكتب فان قصص الاطفال المترجمة أمثال قصص ميكي ماوس ، الوطواط ، سوبرمان ، وقصص والت ديزني تملأ الاسواق .

ونظرة فاحصة الى المجالات الاسبوعية العربية ، ترينا ان القارئ مظلوم لا يعرف حقيقة ما هو مترجم من المقالات وما هو اصيل . فنسبة كبيرة من موضوعات المجالات العربية ترجمات حرفية للصحافة الاجنبية، بدون ذكر المصدر او اسم الكاتب . وفي احيان اخرى يتم اقتباس موضوعات وتحويرها وتديلها بتوقيع كاتب عربي . ان مثل هذه المواد الاعلامية التي يزخر بها السوق العربي كفيلة بارباك القارئ وبخلق حالة ذهنية عربية ان لم تستلب بعد فانها في طريقها الى الانسلا ب .

خامسا - التحكم بالتقنية صناعة وتصديرا :

تتحكم الدول الغربية ومعها اليابان الان في صناعة وتجارة تكنولوجيا الاتصالات الدولية . وهذا التحكم يأخذ لونا من الوان التسلط ، حينما تحظر هذه الدول تصدير سلعة من سلع التكنولوجيا الى الدول العربية

على الرغم من قدرتها الشرائية على ذلك . وخير مثال على ذلك الحظر الأمريكي على تصدير معدات القمر الصناعي العربي بدعوى ان استخدام القمر الصناعي سوف يتيح لمنظمة التحرير الفلسطينية وليبيا فرصة استخدامه . وهذا حسب المفهوم الأمريكي سوف يجعل القمر الصناعي في خدمة « الارهاب » .

من خلال اساليب الهيمنة السابقة ، فان وسائل الاعلام الغربية تنفذ الى السوق العربية ، لتمارس دورها في التأثير على الثقافة العربية . حيث تحاصر وسائل الاعلام الغربية الانسان العربي بالكلمة المسموعة والصورة المتحركة ، والكلمة المقروءة ، ان الانسان في عصرنا يجد نفسه مشدودا الى سماع الخبر والتعليق ، وقراءة الصحيفة او المجلة ، والاسترخاء مع قصة يقرأها ، او مشاهدة برنامج مرئي ومن خلال ذلك كله ، اصبح الفرد يعتمد اعتمادا كبيرا على تحصيل المعلومات من وسائل الاعلام ، سواء اكان ذلك بطريق مباشر ، او عن طريق شخص اخر تلقاها من وسائل الاعلام .

تأثير وسائل الاعلام من خلال تزويدنا بالمعلومات

اعتمادنا على المعلومات التي نتلقاها من وسائل الاعلام ، يتضمن مجموعة من التأثيرات على الفرد والمجتمع . وكما يرى روبرتس (١٩٧٧ ص . ص ٣٧٩ - ٣٨٤) ان وسائل الاعلام لها القدرة الهائلة على توجيه انظار الجمهور الى ما تنشره من معلومات ، فالجمهور عادة ينظر الى هذه المعلومات على انها هامة ومن ثم فانها تؤثر على قناعاته . كذلك فان وسائل الاعلام تنشر صور محرفة ومنحازة حول الظروف المحيطة بنا ، واذا كان الجمهور غير قادر على نقد مضمونها ، فان مثل هذه المعلومات ستصبح جزءا من تصوراته وقناعاته . وايضا فان وسائل الاعلام تحجب عن النشر معلومات هامة ، والدا فان عدم وصول المعلومات الكاملة التي توضح الحقيقة للجمهور ، يمكن ان يحرف الطريقة التي بها

ينظم الجمهور تصوراتته للواقع ، وعلاوة على ذلك ، فإن المعلومات التي يستقبلها المرء من وسائل الاعلام - وخاصة فيما يتعلق في الامور الجديدة على الانسان - لديها القدرة على التأثير على الشخص خالي الذهن من تلك الموضوعات .

وعلى سبيل المثال يمتلك الجهاز المرئي قدرة كبيرة في التأثير على الاطفال الذين هم في مرحلة التنشئة الاجتماعية ، ومستعدين للاستقبال والاقناع بأي معلومة جديدة تصلهم ، وبذا يصبح الجهاز المرئي هو احد وسائل التنشئة الاجتماعية الهامة في مجتمعنا .

واخيرا ، فان وسائل الاعلام التي تؤثر على معرفة الانسان من خلال المعلومات تؤثر على سلوكه وعواطفه وقيمه وآرائه ، لان المعرفة تشتمل في احيان كثيرة على نماذج جديدة من السلوك والقيم والاراء .

اشرنا في البدء الى ان تأثير وسائل الاعلام الغربية على المواطن العربي يحتاج الى بحوث ميدانية ، ولكن علينا ان ندرك ان مثل هذا التأثير لا يتم فور تعرض الجمهور للرسالة الاعلامية ، وخاصة فيما يمس تغيير قيم الانسان وآرائه ومواقفه . ان فعالية التأثير ليست فورية ، ولكن يمكن ان تصبح حقيقة مع مرور الزمن . فالبرامج الاعلامية الغربية تمثل قيما مختلفة ، وتبصر عن ايدولوجيات مختلفة وحينما يتعرض الجمهور لها بشكل منتظم ، فان لها تأثيرا كامنا يتعزز مع تكرارها مما يشكل تهديدا للقيم وللثقافة العربية ، ومما يسهم في خلق شخصية منسوبة ثقافيا .

الاذاعة المرئية الوسيلة الاعلامية الخطيرة :

اذ اكننا معينين بوسائل الاعلام الغربية على الانسلاخ الثقافي ، فاننا نرى ان اخطر الوسائل الاعلامية الان في تهديد ثقافتنا القومية هو الجهاز المرئي . فهي الوسيلة الاعلامية الاولى المفضلة لدى الناس وخاصة ، ببرامج الترفيه ، وحيث ان نسبة كبيرة من البرامج الترفيهية تأتي

من الغرب ، وحيث ان البرامج الترفيهية لا تقل نسبتها عن ٥٠٪ من جملة البرامج في الاذاعات المرئية العربية ، فان هذا يعني ان الجمهور العربي يقضي اسبوعيا نسبة لا يستهان بها من الساعات ، لمشاهدة الاشرطة وبرامج المنوعات الاجنبية .

هذا مع الاشارة الى ان بعض البلدان العربية قد تبنت تخصيص قنوات خاصة لبث البرامج الاجنبية - مثل الاردن والكويت وتونس وليبيا - بدون دراسة لمدى تأثير البرامج الاجنبية على جمهورها العربي

واذا ادركنا ان اكثر المولعين بمشاهدة تلك البرامج الاجنبية هم من اليافعين الذين في طور التكوين الفكري ، لذا فان الاذاعة المرئية يجب ان تلقى عناية خاصة للاسباب التالية :

١ - حيثما وجد الجهاز المرئي فانه يحل عادة محل وسائل الاعلام الاخرى . على سبيل المثال ففي فترة البث المرئي ، فان اهل البيت لا يستمعون الى المذياع وحينما يكون هناك شريط مرئي فإن الطالب يفضل مشاهدته على قاعة دروسه .

٢ - ان الجهاز المرئي وسيطة اعلامية جماعية يشاهدها الاطفال والكبار والنساء والرجال ، فهو اداة اجتماعية ، تؤثر بمجرد تواجدها على بعض العادات مثل الزيارات العائلية وطبيعة العلاقات الاسرية .

٣ - واذا اضفنا دخول الفيديو الى كثير من البيوت ، وبأشراطه الاجنبية ، فان هذا جعل من كل بيت ، لديه جهاز فيديو ، عبارة عن محطة بث خاصة تجعل الجهاز المرئي اهمية في تنشئة الاطفال .

ان معظم الاشرطة الاجنبية التي تمرضها محطات الاذاعات المرئية العربية تستورد من الولايات المتحدة . ونظرة الى المسلسلات وبرامج السهرة في معظم الاقطار العربية تجعلنا نجد مسلسلات امثال دالاس ، ملائكة شارلي ، بوننزا ، فيجاس ، كولومبو ، وغيرها الكثير . هذه

المسلسلات تحمل معها ثقافة وقيم المجتمع الأمريكي ، وتقدم صوراً لذلك المجتمع . وخطورتها ان المتفرج العربي لا يمتلك القدرة او الحس النقدي لما يشاهد . وما تقدمه هذه الاشرطة تبهره بدءاً من السيارات الفارهة الى صورة الحياة الامريكية وانتهاء بشخصية الفرد - البطل -

ويرى كومستوك ورفاقه (١٩٧٨ : ص ٣٨٥) ، ان هناك ثلاث عمليات سيكولوجية ترافق الوسيلة الاعلامية بتأثيرها على جمهورها .

١ - تصور المشاهد الفوري لما تشاهده وتفسيره الآني لمضمون الرسالة الاعلامية .

٢ - عملية ذاتية تتم داخل الفرد ذاته .

٣ - الظروف المحيطة التي تسيطر وتتحكم في الفرد من حيث ماذا وكيف يتعلم .

ان هذه العمليات الثلاث بها ومن خلالها يمكن ان يتم او لا يتم الانسلا ب الثقافي . ان تصور المرء - لتأخذ مثلاً شخصية ستيف اوستن بطل مسلسل Six Milion Dollarmas يعتمد على عدة عوامل منها مستواه التعليمي ، وثانياً ، موقفه الفكري وبالتالي قدرته النقدية على قراءة معنى ان يكون الانسان آلياً ذا قيمة تبلغ مليون او الف مليون دولار . . . ان التصور الفوري يختلف من شخص الى آخر كما اشرنا . واذا كانت الظروف المحيطة التي تسيطر وتتحكم في التنشئة الاجتماعية ، كالام والاب - يمكنها ان تكسب التصور الآني تفسيرات اخرى ، الا اننا لا نستطيع ان نعتمد عليها كلياً ، حيث ان جماهيرنا في غالبها امية ، وحتى ان نسبة كبيرة من المتعلمين هم اشبه بالاميين ، اذ انهم لا يمتلكون الحس النقدي القادر على التمييز . ومن هنا ففي العملية السيكولوجية الذاتية ، التي تتم داخل الفرد ذاته ، يكمن خطر التأثير الاعلامي الغربي في تكوين شخصية منسوبة ، تلك التي تمثل شخصيات غريبة وقيم غريبة .

ففي دراسة اعدھا توفيق فرح (١٩٧٧ : ص . ص ٩٦ - ٩٧) حول
التنشئة السياسية الاجتماعية للاطفال الفلسطينيين جاء ما يلي :

« حاولنا ان نميز قيم الاطفال من خلال اسئلة اختبارية تشتمل
السؤال : من هو بطلك ؟ فالغالبية الساحقة اشارت اجاباتهم على انه
أحد اعضاء المقاومة الفلسطينية مثل : الفدائي ، أبو عمار ابو علي اباد ،
ليلي خالد ، واثان ذكرا اسمي نجمي كرة قدم ، وطفل ذكر انه الرجل
الذي كلف ستة ملايين دولار وكم من الاطفال الاخرين الذين ينظرون الى
شخصيات كهذه باعتبارها نماذجها وابطالها وكم تخلق هذه الافلام من
الصور المشوهة لدى الاطفال ؟

التأثير المتوقع للاذاعة المرئية

يتمثل تأثير الاذاعة المرئية فيما يلي :

١ - ان الجهاز المرئي يستهلك وقتا كبيرا من وقت الاطفال والمراهقين
في حين ان هذا الوقت كان يمكن ان يستثمر في نشاطات اكثر فائدة .
وخاصة ان معظم البرامج التي يشاهدها هؤلاء الاطفال والمراهقون ليست
مخصصة لهم ولا تلبي حاجات التنشئة الاجتماعية الاساسية .

٢ - ان مايعرض يمثل في اغلب الاحيان نماذج للاجتذاب بدون
القدرة على التمييز بين السئ والحسن من الشخصيات . ويؤثر الجهاز
المرئي على توقعات المشاهد وسلوكه بمشاهدة شخصيات مختلفة ..
وقد تؤثر بدورها على طموحات المشاهد الوظيفية .

٣ - التلفزيون (كأحد وسائل التنشئة الاجتماعية) يؤثر على
المعتقدات والقيم وصياغتها . وان التعرض لقيم مختلفة من خلال البرامج
الفريية المختلفة يؤدي الى خلق الاضطراب في الشخصية وبحثها عن
البديل وذلك واحد من مظاهر الاستلاب .

٤ - ان عالم الجريمة الذي يصاحب كثيرا من البرامج الاجنبية يخلق ظروفا نفسية يمكن ان تعزز الميل للسلوك العدواني .

٥ - ان الاعلانات التجارية يمكن ان تخلق رغبة في الاستهلاك غير ضرورية لدى المواطن . وكذلك فان الاعلان التجاري عن اشياء الاطفال يمكن ان يؤدي الى ضغط غير اخلاقي على الاباء بشراء ما يرغبه الاطفال ، وهم غير قادرين على ذلك او غير راغبين به .

٦ - ان الجهاز المرئي في احوال كثيرة - يقف جنبا الى جنب مع المؤسسات التقليدية للتنشئة الاجتماعية مثل العائلة والمدرسة ، ولكن خطورته انه حر من العديد من الكوابح والموانع الاخلاقية المفروضة على هذه المؤسسات التي تتعامل مع الطفل . ومن ثم فان الاطفال يتعرضون في مشاهداتهم للبرامج الغربية الى عالم الكبار في حين ان مثل هذا التعرض يؤدي الى خلط القيم لدى الاطفال .

لقد ادى الغزو الثقافي الغربي من خلال وسائل الاعلام الى النتائج التالية والتي بحاجة الى دراسات معمقة .

١ - التأثير على الثقافة التقليدية ويظهر هذا بوضوح بتاثيرها على الفلكلور وانحدار الفنون التقليدية واختفاء بعض اشكالها ولعل التأثير على الاغاني والموسيقى الشعبية مثال واضح للجميع .

٢ - ثورة التوقعات التي قال بها ليرنر حيث ان وسائل الاعلام بمفهومها للاطلاع على العالم الخارجي زودت الناس بتوقعات وطموحات من الصعب اشباعها مما ادى الى زيادة الاحباط . وهذا يؤدي احيانا الى البحث عن عالم التوقعات في خارج حدود الوطن ، من خلال الكلمة او الصورة وتصبح تلك النماذج الخارجية وكأنها عالمه المثالي الذي يحلم به . ومن هنا تتأتى صورة من صور الانسلاخ .

٣ - تقديم ثقافة لاستهلاك المواطن العربي وذلك من خلال الاعلانات التي تشجع الروح الاستهلاكية على حساب الانتاجية وبذلك اسهمت الاعلانات اسهاما فعالا في خلق ذهنية استهلاكية تقع ضحية الاعلان وتتابع ما يستجد من بضائع .

٤ - تقدم البرامج الغربية قيما تعكس ثقافات مجتمعا مما يؤثر في تشكيل القيم العربية السائدة ويعمل على تغييرها ، وهذا بدوره يؤثر على مواقف الاشخاص ويخلق لديهم نوعا من الوعي المصطنع الذي يقود الى الانسلا ب .

٥ - خلق صور مشوهة عن العالم الخارجي بما يخدم الغرب ، ومما يؤدي الى تحريفات في تصور المرء لواقعه . وهذا يؤدي الى تمثل الاشخاص بالصور التي فرضت عليهم وقبولها وكأنها واقعهم او نماذجهم التي يجب ان تحتدى .

٦ - التأثير على الروح المعنوية على مستوى جماعي وفردى .

ان التركيز في الصفحات السابقة على أهمية تأثير وسائل الاعلام الغربية على انساننا العربي وثقافته ، لا يعني قفل الابواب امام الثقافات الاخرى ، ولكننا نوجه الانظار الى خطورة ما يمكن ان تؤديه الى انسلا ب ثقافي في وطننا العربي ومن ثم يكون البحث عن سبيل حماية الثقافة القومية بدون انفلاق ضرورة ملحة . ونحن اذا كنا نؤمن بشمولية الفكر الانساني ، فاننا نؤمن بخصوصية تطبيقه ، وبخصوصية الثقافة . ان النظريات والفلسفات سواء اكانت من الشرق أو الغرب ان كانت صالحة فهي تصلح في اطارها الثقافي التاريخي والاجتماعي . ومع هذا فاننا لا نريد من هذا انفلاقا يؤدي الى بحث عن سلفية تكون مجرد رد فعل عاجز للتحديث والتجدي الخارجي ، او مجرد دفاع متوقع عن النفس . ولا نريد انسلاخا عن ثقافتنا بحيث يشكل تبعية للثقافات الاجنبية ، ان مانريده ومانحتاج اليه فكر نقدي ينبع من خلال واقعنا وتجربتنا ، فكر

متفتح قادر على الاستفادة من تجارب الآخرين في هذا العالم الذي تمتد اطرافه ، ولكن تضيق المسافات بين ابعاده .

اننا لا نريد ان نرى الانسان العربي ضائعا غريبا في بلده ولا نريد ان نرى بين صفوفنا صورة الشخصية المنسلبة كما يصفها ناثيلد نيل (١٩٦٦ . ص . ص ٣٣٦ - ٣٣٥) بقوله :

« الانسان المنسلب لا يمكن ان ينجح سواء في ان يكون نفسه او في ان يعيش في حالة تركيب خلاقة مع البشر والاشياء الاخرى . انه لا يعيش مع الحاضر وهو مهتم فقط بالمستقبل مما يقوده الى البحث عن نوع من المطلق . او يقوده الى رغبة في الانسجام مع النموذج المثالي ان الانسان المنسلب لا يفكر او يعمل بذاته ، انه دائما يعزو الامور الى شخص آخر خارج ذاته ، مثل التقاليد ، والعقيدة الايدولوجية ومخلوق مبهم او اكمل . انه لا يعرف كيف يعيش في حوار مع الآخرين او سلام خارجي . انه دائما في حاجة الى شخص آخر ، ليقدمه او يخدمه ، يكرهه او يقاتله . انه يقضي حياته متعقبا شيئا اما مادي الهدف - والذي يتحول الى مطلق مثل الرغبة في الثروة او الراحة او رموز الواجهة - واما روعي الهدف وهو يتحول ايضا الى مطلق مما يقوده الى ازدراء الحياة والعالم . وهو يعتقد احيانا انه حصل على المطلق ، ومن ثم فانه مبتهج ومتوقع ، وفي احيان اخرى يشعر بالاحباط ، ومن ثم فهو يائس وقانط . يقضي حياته في الرغبة والامل والتطلع والعبادة والاستخفاف . الانسان المنسلب المتوتر متاهب للقتال ، عنيف وضيق الافق ، غير متسامح ووسلطوي ، انه الانسان العاطفي ولكنه ايضا انسان جبان يخشى السلطة ، ويخشى ان يفكر ويفعل كما يفكر الآخرون ويعملون . انه جبان هياب ممتثل ، انه انسان قطيعي » .

مقترحات :

حيث اننا معنيون بدراسة اشكال التبعية الثقافية في الوطن العربي فان هذه المسؤولية لا يمكن ان تتم من خلال جهد الافراد . ان دراسة وسائل الاعلام وتأثيرها على الافراد والمجتمعات تجد اهتماما خاصا في

معظم أنحاء العالم ، في هذا العصر الذي أقل ما يوصف بأنه عصر
الإعلام .

وللاسف ، فان الجامعات العربية التي تهتم بتخريج الاعلاميين ،
لا تهتم بتخريج الباحثين ، الذين يدرسون تأثير وسائل الاعلام على
المجتمع . ولعل هذا العجز تقع مسؤوليته كذلك على علماء الاجتماع
والانثروبولوجيا ، الذين تعنيهم وسائل الاعلام وتأثيرها على الافراد
والمجتمع والثقافة . وحيث يفتقر الوطن العربي الى مركز للدراسات
الميدانية الاعلامية ، فانني اقترح انشاء مركز ابحاث للدراسات الاعلامية
العربية ، ويكون هدف هذا المركز اجراء دراسات حول تأثير وسائل
الاعلام على الافراد والجماعات والثقافات . واعتقد أن مثل هذا المركز
اذا كانت له صلة ما بجامعة الدول العربية سوف يتيح له فرصة تعاون
الباحثين من كل اقطار الدول العربية سيتيح امكانية اجراء بحوث ميدانية
في كل الاقطار العربية ، ومن ثم فان مسؤوليات هذا المركز - او لنقل
ان مسؤوليات البحوث الاعلامية الملقاة على عاتق الاعلاميين وعلماء
الاجتماع والانثروبولوجيا العرب - تتمثل فيما يلي على سبيل المثال
لا الحصر :

١ - بحوث ميدانية عن تأثير البرامج الاجنبية على المواطن العربي
وخاصة الاطفال والياافعين .

٢ - بحوث ميدانية عن تأثير الاعلانات على المستهلك العربي .

٣ - اجراء دراسات تعتمد على اسلوب تحليل المضمون لما ينشر في
الصحف العربية من اخبار عالمية وتأثيرها على الراي العام .

٤ - دراسات تعتمد اسلوب المضمون لما ينشر في الصحف العربية
من دراسات ومقالات مترجمة وتأثيرها على الافراد .

٥ - بحوث ميدانية عن برامج الاطفال وتأثيرها على تكوين شخصية
الطفل .

- ٦ - بحوث عن تأثير الثقافات الاجنبية على التراث الشعبي .
- ٧ - دراسات عن قصص ومجلات الاطفال امثال السوبرمان والوطواط ودورها في تشكيل تصورات الطفل للعالم الخارجي .
- ٨ - دراسات عن تدفق المعلومات بين اقطار الوطن العربي .
- ٩ - دراسات عن تدفق المعلومات من العالم الغربي الى الوطن العربي .
- ١٠ - دراسات عن البرامج الاذاعية المسموعة والمرئية ومدى تخصيصها من نسب نوعية وكمية للبرامج الثقافية والترفيهية وغيرهما .
- ١١ - ان اهتماما خاصا يجب ان يركز على دراسة تأثير اذاعة العدو الصهيوني المرئية والمسموعة على المواطن العربي وخاصة في المناطق المحيطة بالكيان الصهيوني مثل الاردن وسوريا ولبنان ومصر والاراضي المحتلة .
- ١٢ - دراسات عن دور وسائل الاعلام في التنمية .
- ١٣ - دراسات عن تأثير الاذاعات الاجنبية كاذاعة لندن ، مونت كارلو ، صوت امريكا ، على الراي العام العربي .
- ١٤ - ترجمة اهم النظريات والابحاث الاعلامية من اللغات الاجنبية الى اللغة العربية .

هذه بعض المقترحات وتظل مسألة تأثير وسائل الاعلام الغربية على الثقافة العربية أمراً نظرياً ما دمنا لم نقم بإجراء الدراسات والبحوث حولها وتلك مسؤولية عسرة .. !

أبجذور التاريخية للغزو الفكري في صدر الإسلام فناذج وآثار

د. علي فهمي خشيم

منذ البداية ، ودون الدخول في مقدمات طويلة وضرب الامثلة وعرض الاسباب يمكن القول بان الغزو الفكري بدأ ببدء انتشار الاسلام، وشرعت العناصر المعادية - التعبير الحديث - في استخدام السلاح المثقافي حين رأت تمكن الاسلام وبروزه قوة عقائدية وحضارية ، وظهور الامة العربية باعتبارها الطليعة الاولى القائدة لهذا الدين العالمي المتدفق حياة وفكرا . وهي لجأت الى هذا السلاح بعد ان هزمت في المواجهة العسكرية التي قامت بها لكسر شوكة الدين الجديد واقفاف تقدمه ، وبعد ان فشلت في عرقلة اكتساحه المتواصل في جزيرة العرب وبقية اقطار الشرق الادنى وشمال افريقيا ، واخفقت في منع انتشاره ذلك الانتشار السريع المذهل حتى عبر البحار .

وعندما نقول « العناصر المعادية » فان المقصود مجموعة اصحاب الحضارات والديانات السابقة للاسلام والتي اتخذت منه موقفا عدائيا بحكم الحس الشعوبي من جهة ، خشية بروز الامة العربية التي وحدها الاسلام تحت راية واحدة وجاء بفكر يجعلها امة رائدة ، او بحكم المنصرية الدينية المفلقة على نفسها والحالة على مدى العصور بفكرة حكم العالم والسيطرة عليه ، من جهة اخرى . وكانت مقاومة هذه العناصر للاسلام من الوضوح بحيث لا تحتاج الى تفصيل . واذا كان هذا الموقف العدائي قد تمثل في المناجزة الفكرية والاقتصادية والاجتماعية فان الامر ، بالطبع ، كان كذلك في الجانب الثقافي او الفكري الذي لجأت مختلف العناصر الى استخدام اسلحتها فيه . ولكنها منيت بالهزيمة نتيجة قوة الاسلام الفكرية وحتمية انتصاره عند المواجهة المباشرة . غير ان هناك عنصرا بدأتاه معينا نلاحظ انه لم يعتمد في عملية المواجهة طويلا ، فلجأ الى اسلوب آخر هو ما يمكن تسميته بـ « الالتفاف الثقافي » وهو اخطر عمليات الصراع ان لم ينتبه اليه ، ونجح - بطريقة او بأخرى - في فتح ثغرات لا تخفى في البناء الفكري العام في تاريخ الاسلام . واليهود هم ذلك العنصر الذي قام بحركة الالتفاف وفتح الثغرات ، وتهتم هذه الدراسة القصيرة بعرض نماذج منهم وآثارهم في صدر الاسلام وبعده .

حين أعلن محمد (ص) دعواته ليبلغ الرسالة كان اول ما قوبل به السخرية والهزاء من اهله وقومه . فلما تجمع المؤمنون من حوله وبوجه بالشدّة والعنف من اهل مكة حتى هاجر الى المدينة التي كانت مركز تجمع يهودي كبير يعيش بين ظهرائي العرب وفي كنفهم . وقد اتخذ اليهود من البداية موقف التراقب وانتظار نتيجة الصراع بين النبي وقومه ، ولم يورطوا انفسهم في مواجهة ، مكشوفة املا في ان يقضي الصراع العربي الداخلي على هذه الدعوة وصاحبها ، ويحدثنا التاريخ انهم اظهروا جانب اللين للنبي وبينوا له « حيادهم » في البداية ، لكنهم ما لبثوا ان اظهروا الجانب الخفي لنواياهم نحوه يوم اضطر الرسول الى مقاتلة قريش واحزابها ، فكانوا عوننا لاعدائه عليه متبعين اسلوب التخريب ، بل

المجابهة العسكرية ، معه طمعا في الخلاص منه وظنا بأن حلف قريش القوي قادر على تحطيم محمد ودعوته . وهذا ما ادى بالرسول الى أن يعلن موقفه الواضح منهم بعد انتصاره على حلف قريش ويأمر باخراجهم من خيامهم ، أو صياصيمهم أو قلاعهم ، بعد ان استنفد كل السبل معهم لهدايتهم أو الزامهم بموقف الحياد على الاقل . ومنذ ذلك اليوم بدأت « المواجهة الحضارية » بين الاسلام واليهود ، وشرع هؤلاء في استخدام « السلاح الفكري » كالعهد بهم .

هنا تبرز ملاحظتان : الاولى تكمن في أن اليهود لم يتركوا وسيلة من الوسائل الا اتبعوها لمحاربة النبي ودعوته ، فعمدوا الى تشجيع القبائل العربية لمقاتلته ، وذهبوا الى حد الاشتباك المسلح معه في المدينة . ولكن الهزيمة العسكرية التي لحقت بهم جعلتهم يدعون ويستسلمون للامر الواقع في الظاهر . والثانية نراها في لجوئهم الى ما اسميناه « المسح الفكري » يستخدمون ضمن خطة تتضمن التسرب الثقافي والتخريب العقائدي ، الى جانب إثارة الفتنة السياسية داخل كيان الامة كوسيلة من وسائل التدمير الداخلي لهذا الكيان . وهي خطة طويلة المدى تعمل على مهل وبصبر طويل ، وظهرت أكثر ما ظهرت بعد وفاة النبي (ص) .

هاتان الملاحظتان - أو الظاهرتان - تنطبقان تماما على موقف اليهود من المسيح عيسى بن مريم (ع) . فنحن نعرف جيدا تلك الحرب القاسية التي شنها اليهود على المسيح ، واتهموه بأشنع التهم - وهو منهم - حتى بلغ بهم الامر حد تسليمه ليد « بيلاطس » وتحملهم دمه في رقابهم وطلبهم منه أن يصلبه . ولكن دعوة عيسى كانت بدأت في الانتشار وشرعت جذورها تضرب في الارض ، وهنا لجأوا الى سلاح التخريب « العقائدي » ممثلا في « بولس » ليحدث في النصرانية ما أحدث وليحرف رسالة عيسى (ع) عن سبيلها الذي أراده الله (١) .

(١) اتتبه الشهرستاني الى هذا الامر في كتابه « الملل والنحل » وأورده باختصار كمعادته في أثناء عرضه للديانات والمذاهب فذكر أن وصي عيسى بن مريم « كان شمعون الصفا » وهو افضل الحواري علما وزهدا وأدبا ، غير أن فولوس شوش امره وصير نفسه

لم يجرؤ اليهود ، يوم كان النبي حيا ، على الاشارة جهرا الى اية مسألة تؤدي الى خلاف في صفوف المسلمين ، ولم يخوضوا في مشكلة من المشكلات الدينية او السياسية بسبب وجود المرجع الاول والاخير ، رسول الله (ص) الموحى اليه من ربه وبسبب السيطرة الدينية والسياسية الكاملة للنبي على المؤمنين المستعدين للعودة اليه في اية قضية من القضايا المثارة ، وكانوا يعرفون ان قوله هو القول الفصل الذي لا يناقش وبهذا انقطع عنهم مصدر الخلاف ولم يستطيعوا اثاره الفتنة في حياته (٢) فلما قضى (ص) احس اليهود بان فرصتهم سنحت في العمل الذي وطنوا انفسهم عليه واعدوا عدتهم من اجله وشرعوا في التمهيد له على مهل . وقد حمل عبء هذا العمل المثقفون منهم - بلغة العصر - او هم الاجبار والريائيون ممن لهم اطلاع على القضايا الفكرية والدينية في كتبهم ، الى جانب اطلاعهم على الاسباب الدينية والثقافية للاسلام .

كان هؤلاء « المثقفون » من اليهود اذن « الطابور الخامس » في عملية التخريب الفكري . ومن الجلي ان بعضا منهم قام بعمله جيدا متسترا

شريكا له ، وغير اوضاع كلامه وخلطه بكلام الفلاسفة ووساوس خاطره « ويضيف الشهرستاني » ورايت رسالة فولوس التي كتبها الى اليونانيين : انكم تظنون ان مكان عيسى (ع) كمكان سائر الانبياء ، وليس كذلك ، بل ان مثله مثل ملكيز داق (ملكي صادق) وهو ملك السلام الذي كان ابراهيم (ع) يعطي اليه المشور وكان يبارك ابراهيم ويمسح راسه « (الملل والنحل - ص ٥٢١ - ٥٢٢) وقد تناول الدكتور احمد شلبي موضوع تشويش بولس وخلطه ودوره في افساد دعوة عيسى (ع) من بعده بشرح وتفصيل كبيرين في مؤلفه عن النصرانية في سلسلة دراساته عن الاديان « المقارنة » فلرجع اليه لزيد من التفصيلات .

(قارن : « الرسالة الى المبرانيين » . ولعلها هي التي يعنيها الشهرستاني الاصحاح السادس والسابع من « العهد الجديد » الموجودة بها هذه الاشارة) .

(٢) يخرج عن هذا القول بعض الاسئلة « الاختيارية » كان اليهود يوجهونها للنبي على سبيل الجدل وتاتيهم الاجابة مفحمة في القرآن ذاته . ولكنها اسئلة ما كانت لترقى الى درجة اثاره الخلاف او الفتنة . راجع في هذا الباب كتاب الدكتور صبحي الصالح « اليهود في القرآن » ومؤلف لهاوسن « محمد واليهود » .

تحت مختلف الستر ، وامتخذا أسلوب التسلل والتسرب ، حتى احدث في الفكر الاسلامي ما احدث . وقد مهد لهم سبيل الحضور والتسلل عوامل عديدة نذكر منها :

١ - ان الاسلام ، بطبيعته ، كان رسالة عالمية يدعو الناس الى اعتناقه ويرغبهم في اتباعه . وكان من السهل جدا على أي كان ان « يعلن » اسلامه بمجرد النطق بالشهادتين ، ويصبح تبعا لذلك فردا من افراد المجتمع الاسلامي له ما للمؤمنين دون تمييز ولا تفريق ، بل يمكنه ، دون نقاش ، ان يتنسم اعلى المراكز في الدولة ويمثل ارفع مكانة في المجتمع دون النظر الى « خلفيته » الدينية والثقافية ودون تحرز على الاطلاق .

٢ - ان فورة الاسلام الاولى وتقدمه المستمر وانتشاره على اوسع نطاق ودخول الاقطار في حوزته جعلت المسلمين لا يتحوطن كثيرا في القضايا المعروضة ثقة في الذات وايمانا بصلاية الاساس العقائدي لدينهم ووقوة العقيدة . ممثلة في القرآن ، على مواجهة الاعراف .

٣ - اسهمت طبيعة التسامح التي تميزت بها الامة العربية تجاه الامم الاخرى والتي اكدها الاسلام ذاته ، وامتازت بها الحضارة الاسلامية وهي في اوجها ، اسهمت في فتح الباب امام عناصر التشويش والتدمير الثقافي بقدر لا يستهان به .

٤ - كان العرب انفسهم ابان ظهور الاسلام شعبا تغلب عليه البداوة ، ولم يكن البنيان الثقافي - بالمعنى المفهوم حديثا من هذه الكلمة - يستند الى تراث محفوظ متكامل يمكنه من مضاهاة البناء الثقافي عند المجتمعات المعاصرة الاخرى كان العرب يومها شعبا « بركا » بالنسبة الى الحضارات المحيطة ، وكان معتزا اشد الاعتزاز بلغته التي نزل بها القرآن الكريم . ولم ير حرجا في « الاستفادة » من تجارب الامم السابقة وبخبرات الشعوب الاخرى والاستعانة بمثقفي هذه الشعوب ، دون نظر الى جنس .

هذه العوامل وغيرها يسرت تسلسل التخريب الى البناء الفكري للاسلام في اثناء تبلوره وتطوره ، كما سهلت أن تتسرب اليه آراء أصبحت فيما بعد « معتقدات » لتكون جزءا مهما من « التراث » وتوحيد بتياره ، أحيانا، عن مجراه الاساسي وكان عدد من اليهود بالذات مسؤولا مسؤولية مباشرة عن هذا التخريب .

في هذه الدراسة القصيرة نتعرض لثلاثة « نماذج » يهودية برزت في صدر الاسلام ، وألقت بجراثيم آرائها في مجتمعه ، وأثرت تأثيرا بالغا في مسيرته السياسية والثقافية على حد سواء . وهي تتمثل في : عبد الله بن سبأ ، وكعب الاحبار ، ووهب بن منبه .

١ - عبد الله بن سبأ :

يكنى بابن السوداء ، ويعرف أحيانا بابن حرب او ابن وهب الهمداني الحميري . كان يهوديا من صنعاء ، وأعلن اسلامه في عهد الخليفة عثمان بن عفان . فهو أذن حديث عهد بالاسلام حين بدأت الفتنة تطل برأسها على المجتمع الاسلامي يوم ذلك . وكان سواحا في مختلف البلاد المفتوحة حديثا ، إذ نجده يأتي من اليمن الى الحجاز ، ثم ينتقل الى البصرة ، فالى الكوفة في العراق، ثم يعبر الشام الى مصر وفي مصر نجده يثير الناس على عثمان ويؤلبهم ضده لخلعه . ويذكر أنه استخدم دعاة لنشر أفكاره متظاهرا باتخاذ جانب علي بن ابي طالب . وكان بشخصه من جملة الزاحفين من مصر في شوال سنة ٣٥ هـ الى المدينة لخلع عثمان . وكانت حماسته لعلي بالغة الشدة ، ويقال أنه كان قريبا منه في البداية ، ولكن عليا ما لبث أن أدرك خطورة الرجل وأفكاره فاتخذ منه موقفا حذرا، ثم بلغ غضبه حدا جعله ينفية الى المدائن (٢) .

(٢) انظر مقالتي م. ث. هوتسما و م. ج. س. هدمسون في « الموسوعة الإسلامية » عن

« عبد الله بن سبأ » .

ومثلما هو الحال في أمر عدد كبير من الشخصيات الغامضة نجد أننا لا نعرف الكثير عن مساري حياة ابن سبأ ، وتكتفي المصادر بإشارات عابرة هنا وهناك متناثرة عنه في بطون المؤلفات . وهذا ما جعل الجدل يثور حوله .

وعدداً من الاسئلة يدور عنه ، من أهمها ما طرحه الدكتور طه حسين في كتابه « الفتنة الكبرى » حيث مال الى نفي وجود ابن سبأ أساساً وقال بأنه « لم يكن الا وهماً » وشخصية أسطورية ادخرها اعداء الشيعة لهم ليدخلوا في اصول مذهبهم عنصراً يهودياً ، امعاناً في الكيد لهم والنيل منهم .

ويستند طه حسين في رأيه هذا الى امرين : اولهما انعدام ذكر ابن سبأ وجماعته في حرب صفين ، اهم معارك علي بن ابي طالب ضد خصومه ، وعدم ظهور اثره حين اختلف اصحاب علي في أمر الحكومة وتكوين الحزب المعارض للصلح والمفاوضة . وثانيهما أن البلاذري في مؤلفه « فتوح البلدان » لا يذكر ابن سبأ في شيء من الفتنة أيام عثمان وعلي . ثم يرجع طه حسين ظهور هذه « الشخصية الموهومة » الى فريقين ، القصاص ، الذين كانوا يتحدثون بأمر الفتنة في البصرة والكوفة ويرسلون خيالهم على سجيته . واصحاب الجدل وواضعي الاخبار والاحاديث يؤيدون بها مذاهبهم وآراءهم . ثم يوهى الى أن البلاذري لم يكن ابن سبأ بابن السوداء ، كما فعل غيره ، ولكنه دعاه عبدالله بن وهب الهمداني . ويشير طه حسين اخيراً ، الى ما أورده بعض الكتاب من زعمهم أن ابن سبأ واتباعه اتّهوا علياً فأحرقهم بالنار وهذه حادثة ما كانت لتخفى ولكنها مغفلة في التواريخ الموثوقة (٤) .

(٤) انظر : التمهيد والبيان - لمحمد بن يحيى الاشعري صفحات ٥٤ ، ٥٥ ، ٧٩ ، ٨٨ .

(٤) طه حسين : الفتنة الكبرى - دار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٧٣ م ، ص ٥١٨ - ٥٢١ .

ولا يقف رأبي طه حسين في زعمه بوهمية ابن سبأ للنقد هنا . فان غيابه في موقعة صفين يفسر بأن عليا نفسه كان غضب منه حين أمعن في « تقديسه » الى درجة التأليه ، ان لم يكن مواجهة بالرمز والاشارة واشاعة الفكرة ، حتى نفاه الى المدائن كما هو مذكور عند المؤرخين . وليس من المعقول أن يأتي المنفي لنصرة من نفاه . ونضيف هنا أن موقف ابن سبأ لم يكن في حقيقته تشيما لعلي وحبا فيه بقدر ما كان اثارا للفتنة ونقضا في نارها . ولم يكن يهمله القتال فعلا مع علي أو سواه . وبذا غاب في ما كان من أحداث صفين وما نجم عنها .

اما صمت البلاذري عن ذكر ابن سبأ في الفتنة أيام عثمان وعلي ، فان مرجعه أن صاحبنا لم يكن شخصية سياسية عسكرية ، مما اهتم به البلاذري ، بل كان شخصية ثقافية فكرية مذهبية . ويظهر هذا الامر واضحا في أن جميع كتب العقائد والمقالات ، أعني المؤلفات الايديولوجية ، اشارت اليه والى آرائه (٥) . ومع هذا فان البلاذري ، باعتراف طه حسين نفسه ، ذكر ابن سبأ ودوره في أحداث الفتنة وان كان باسم عبد الله بن وهب الهمداني - وهذه نسبة الى قبيلة يمنية فيها تحديد أكثر مما فعل ابن حزم - مثلا ، بنسبته الى حمير ، في حين اكتفى آخرون باسم الشهرة « ابن سبأ » وهذا كله لا يخرج عن نسبته المعروفة . اما كون البلاذري لم يكنه بابن السواداء فانه لا يرقى في أهميته الى درجة التذليل به على « وهمية » الرجل ، اذ لم تكن هذه الكنية الا نسبة لاهمه ليس غير .

وتبقى المسألة الاخيرة وهي حادثة احراق علي أتباع ابن سبأ . ومن الممكن النظر في هذه المسألة باعتبارها تهويلا أو زيادة في النكاية ومقتنا نقالة الرجل وتكرابها للناس فيه ، وارهابا لمن يقول بما ذهب اليه ،

(٥) انظر على سبيل المثال : الطبري ، تفسير . النوبختي ، فرق الشيعة ، الملطي ، التنبيه والرد . الأشعري ، مقالات الاسلاميين . البغدادي ، الفرق بين الفرق . الشهرستاني الملل والنحل . ابن حزم ، الفصل ... الخ .

وتنزيها لعلي ابن ابي طالب عن شبهة قبول آرائه - فضلا عن ان ذكر الحرق لم يرد في المصادر كلها بل في عدد قليل منها نقل بعضه عن بعض . وعلى الرغم من هذا فان البلاذري ذاته ، وعددا آخر من كتب التاريخ الاسلامي يحدثنا عن ان « قوما ارتدوا بالكوفة فقتلهم علي » مما أورده طه حسين نفسه (٦) ومن الجائز جدا ان هؤلاء « القوم » كانوا من اتباع ابن سبأ ، وقد ثبت قتل علي لهم على كل حال ، وليس من الغريب ان يحول البعض القتل الى احراق ، ولكنه لا يتعلق بوجود ابن سبأ من عدمه ولا يقودنا الى القول بأنه مجرد شخصية وهمية لا وجود لها .

من حقنا بعد هذا ، ان ننقض رأي الدكتور طه حسين الغرم - فيما يبدو - بنفي وجود مسائل كثيرة في التاريخ العربي والاسلامي ، مما قد يؤدي - اذا سايرناه في منطقته - الى الغاء هذا التاريخ بكل شخصياته وأحداثه وآثاره . ولا بد من الاشارة هنا الى تأثير يهودي معروف ، هو مارغليوث ، في طه حسين وتكوين جملة من آرائه ، والى ارتفاع اليهود من نفي وجود ابن سبأ واعتباره « وهما » مما له آثاره السياسية والمذهبية ... مما يطول شرحه وبيعدنا عما نحن فيه الآن (٧) .

وعلى كل حال ، فان ابن سبأ كان شخصية مزدوجة النشاط دينيا وسياسيا فعنده تجد السياسة امتزجت بالدين ، وان كلا منهما استقل لتدمير الآخر . اذ استخدم الظروف السياسية لنشر افكار دينية تأييدا لوقف ومعارضة لآخر ، واستعمل هذه الافكار الدينية ذاتها لتحريك الفتن السياسية وتأليب المجتمع الاسلامي بعضه على بعض . وبهذا يمكنه ان يحقق غايتين : التخريب السياسي والتحريف الديني في آن واحد . واذا

(٦) الفتنة الكبرى ، ص ٥٢١ .

(٧) لم يجرؤ كاتبان يهوديان ، هما هوتسمان وهدفسون اللذان كتبنا عن ابن سبأ في « الموسوعة الاسلامية » في نشرتها القديمة والجديدة على انكار وجوده والزمه بأنه وهم . والقصى ما استطاع ذكره منهما هو انه « ربما لم يكن يهوديا » . فتأمل !

كان دور السياسي قد انتهى بنفيه ، او بوفاة علي بن ابي طالب ، فان افكاره ظلت بعد ذلك عند اتباعه واتصل وجودها مع الزمان .

فيما يلي ، وبايجاز شديد ، نعرض لاهم الافكار الدينية - السياسية التي زرعها ابن سبأ ، وتبلورت في مذاهب بعض الطوائف الاسلامية وتطورت عند عدد من الفرق باشكال مختلفة . ومن اهم هذه الافكار : فكرة « الوصاية » وفكرة « الرجعة » .

الوصاية :

دعا ابن سبأ الى ان لكل نبي وصيا يخلفه من بعده ، وان عليا هو وصي محمد (ص) تماما كما كان يوشع بن نون وصيا لموسى (ع) . وعلى هذا الاساس فان عليا - منطقياً - هو الاولي بالخلافة ليس فقط من عثمان ، بل من ابي بكر وعمر ايضا . « وكان في اليهودية يقول في يوشع بن نون وصي موسى ، مثلما قال في علي . وهو اول من اظهر القول بالنص على امامة علي ، ومنه انشعبت اصناف الغلاة » . كما يقول الشهرستاني (٨) . فهو اذن يحمل ارثا يهوديا واضحا استغله استغلالا كاملا .

وكانت نتيجة مقالة ابن سبأ ، ونشاطه الدائب في نشرها ، ان وجدت استجابة من الكتلة السياسية المعارضة لعثمان بن عفان ، فسارعت بالتقاطها تأييدا لحق علي في الخلافة وتأكيدا على انه الاولي بها من سواه . وادت العوامل السياسية الى ترسيخها وتطويرها فيما بعد . ولكن ابن سبأ لم يكتف بذلك ، وقد رأى الاستجابة المطلوبة ، فتقدم خطوة اخرى محيطا عليا بهالة من القدسية ، بل الالهية ، باعتباره مقتبسا من النور المحمدي الذي هو ، عنده ، نور الهلي في الاساس . فاندفع الى القول بان في علي جزءا الهيا في بداية الامر ، ثم زاد واكد ان عليا هو الله ذاته .

ويمكن القول هنا ، بشيء من الحذر ، ان فكرة « الوصاية » وجدت قبولاً من انصار علي، اذ هي تخدم اهدافاً سياسية معنية ، ومن المؤكد انها استغلت للدعوة لخلافة علي وخاصة ابان الفتنة . ويمكننا ان نفهم من المصادر الاسلامية ذاتها ان ابن سبأ كان قريباً من علي بقدر ما ، ولعل هذا كان في بداية تشييعه له . ولكن هذا الموقف تغير كلية فيما بعد حين آمن ابن سبأ في تقديس علي تقديساً ادى به الى تأليهه .

هنا نجد امامنا مصدرين يرويان قصة هذا التأليه باختصار شديد يقول الشهرستاني :

« السبائية ، اصحاب عبد الله بن سبأ الذي قال لعلي (٩) كرم الله وجهه : **انت انت** - يعني : **انت الاله** . فنفاه الى المدائن » .

ويذكر ابن حزم ان اول الغالية الذين يقولون بالالوهية لغير الله « قوماً من اصحاب عبد الله بن سبأ الحميري اتوا الى علي بن ابي طالب فقالوا لشابهه : **انت هو** . فقال لهم : ومن هو ؟ قالوا : **انت الله** فاستعظم الامر ، وامر بنار فاججت واحرقهم بالنار . فجعلوا يقولون وهم يرومون في النار : **الان اصبح عندنا انه الله** ، لانه لا يعذب بالنار الا الله » (١٠) .

واذا كان من الممكن ، استبعاد احراق علي لاتباع ابن سبأ بالنار كما يرويها ابن حزم بأسلوب المعادي للشيعة جداً (١١) ، فان من المرجح نفي علي لابن سبأ الى المدائن ، ليس لمواجهته بتأليهه مما لم تكن الجراة - فيما

(٩) المصدر نفسه ، ص ٣٦٥ .

(١٠) الفصل ، ص ١٨٦ .

(١١) يضيف ابن حزم ان علياً قال في ذلك بيتاً من الشعر :

« لما رايت الامر امراً منكراً اججت ناراً ودعوت قنبراً »

يريد قنبراً مولاه ، وهو الذي تولى طرحهم في النار ، المصدر نفسه .

نرى - لتوائيه للجهر به امامه ، ولكن ربما لانتشار الفكرة ذاتها او ما قاربها
ومن المحتمل ان ابن سبا عاش بعد اغتيال علي وتابع نشر افكاره بعد وفاته
مما ادى الى فكرة اخرى من افكاره هي ما يعرف باسم «الرجعة» .

الرجعة :

كان من الممكن ان تنتهي الفتنة بوفاة علي ، وليس يهنا هنا على اي
شكل استقر الامر . وكان من المفروض ان يتوقف ابن سبا عن دعوته لعلي ،
او على الاقل ان يدعو لابنائه بالخلافة من بعده . وهذا موقف عدد كبير
من الشيعة الذين رأوا ان عليا احق بالخلافة من غيره ، فلما قضى ذهبوا
الى حق عقبه فيها . وهذا رأي سياسي محض يمكن الاتفاق معه او معارضته
ولكنه يظل مع هذا مجرد موقف سياسي ليس غير . بيد ان ابن سبا لم
يكن يهدف في الواقع الى نصره علي على خصومه ، بل يعني تاريت نار
الفتنة بين المسلمين وضررهم لبعضهم ببعض . وهذا مادفعه الى التثبيث
بعلي ذاته . ولكن كيف ، وقد قضى ابن ابي طالب ؟

وجد ابن سبا الحل في فكرة يهودية اخرى تعرف بفكرة «الرجعة»
فاسرع بالتقاطها والقائها بين اتباعه يدعوهم اليها ويدعون هم اليها من
بعد . ولعل ابن سبا قال بفكرة الرجعة هذه في بداية الامر بالنسبة للنبي
ذاته ، اي ان النبي (ص) سوف يرجع متقمصا شخص علي وحالا فيه
ليستمر نور النبوة الالهي في ابن ابي طالب . فلما مات علي اسرع يقول
انه «حي لم يموت» لان فيه «الجزء الالهي ولا يجوز ان يستولى عليه ،
وانه يجيء في السحاب ، والرعد صوته والبرق تبسمه ، وانه سينزل الى
الارض بعد ذلك فيملا الارض عدلا كما ملئت جورا» .

أورد ابن حزم ان « ابن سبأ قال ، اذ بلغه قتل علي (رضي) : له
اتيتمونا بدمائه سبعين مرة ما صدقنا موته ، ولا يموت حتى يملأ الارض
عدلا كما ملئت جورا » (١٢) .

وقال الشهرستاني : « وانما اظهر ابن سبأ هذه المقالة بعد انتقال
علي (رضي) واجتمعت عليه جماعة . وهم اول فرقة قالت بالتوقف
والغيبة والرجعة وقالت بتناسخ الجزء الالهي في الائمة بعد علي » (١٤) .

فكرة « الجزء الالهي » اذن هي التي استند اليها ابن سبأ في افكار
موت علي ، اذ هو لا يموت مادام يحله هذا الجزء الالهي . ولكنه لم يكتف
بفكرته اليهودية المنشأ فابتدع حديثا عن عمر بن الخطاب ليدعم بها مقالته
قال : وهذا المعنى (أي حلول الجزء الالهي في علي) مما كان يعرفه الصحابة .
هذا عمر بن الخطاب كان يقول فيه حين فقأ عين واحد بالحد في الحرم
ورفعت القصة اليه ، ماذا أقول في « يد الله » فقأت عينا في « حرم الله »
فاطلق عمر اسم « الالهية » عليه لما عرف منه ذلك (١٥) .

وعلى الرغم من ان هذه الحادثة مختلفة من اساسها ، وان عمر لم
يقبل ما قاله ، فانها لا تدل بجمال على شيء من التاليف او اطلاق اسم « الالهية »
كما عبر الشهرستاني - علي علي . واكثر ما يفهم منها تسليما بحدوثها
جدلا ، هو ان عمر كان يعبر عن ان ما حدث كان تطبيقا لحدود الله ،
وبارادته ، في حرمه . وان المرء لا يملك الا ان يندهش من قبول بعض
الافكار على وهن الاساس المنطقي والعقلي لها ، ناهيك بالاصل التاريخي ،
وسرياتها ، ولعل السبب في هذا يرجع الى عملية « التشويش » والخلط
التي اتبعها « بولس » بالنسبة للدعوة المسيح - كما اسلفنا من قبل -
بحيث تختلط المسائل ويضطرب التفكير ويفقد المنطق السليم وبخاصة عند
العامة ويحرص « المثقفون » المشوشون على هذا الخلط عند اتباعهم حتى تنعدم

(١٢) الفصل ، ص ١٨٠ .

(١٤) الملل ، ص ٣٦٧ .

(١٥) المصدر السابق .

الرغبة في تعليل القضايا ومنطقتها، ويصبح الامر مجرد « ايمان » مطلق اعمى او تقيد مستسلم دون اعمال فكر . وهذا ما حدث بالنسبة لابن سبأ واتباعه من غلاة الشيعة، وفرقهم « المتطرفة » الكثيرة . التي انتقلت اليها افكار ابن سبأ واتخذت اشكالا عديدة وتحولت الى طوائف لا يمكن حصرها في هذه العجالة ولكنها لا تخرج في اساسها عن المقالات الاصلية التي دعا اليها ابن سبأ وهي معروضة مبسوطه في كتب الفرق وتاريخ الفكر الاسلامي بسا' وافيا .

وتبقى اسئلة اخيرة تكمن في القول بان افكار ابن سبأ لم تؤد فحسب الى فتح ثغرة عظيمة في البناء السياسي والفكري للاسلام وخلق صراع دام عنيف بين جناحيه ممن عرفوا في تاريخه بالشيعة واهل السنة ولا يزال نعاني منه حتى اليوم ، بل استطاعت ان تنفذ الى الفكر السني المحافظ ذاته . فان صورة الخضر الذي لا يموت ، والتي انتشرت عند الصوفية ، اثر واضح من فكرة الولي الخالد . وصورة المهدي المنتظر التي طغت على الذهن العامي واستغلت استغلالا كبيرا هي عبارة عن فكرة « الغيبة » او « الرجعة » الاولى وان اختلف فيها الاشخاص والزمان . ويمكن القول ، باختصار مخل ، ان مجمل الافكار الغيبية ، وعوامل التناحر والصراع الدموي ، في تاريخ الاسلام تعود الى تلك الفترة المبكرة منه . . . الى عبد الله بن سبأ واتباعه .

كعب الاحبار :

شخصية خطيرة اخرى من « الشخصيات الثقافية » اليهودية في صدر الاسلام ، واسمه يدل عليه (١٦) . وتجمع المصادر على انه كان يهوديا

(١٦) اسمه الكامل : ابو اسحق كعب بن مانع ، او متيع ، بن هيسوع . ويلقب احيانا « الحبر » ولكنه اشتهر باسم كعب « الاحبار » - بصيغة الجمع - زيادة في التقدير والاصل كلمة « حابر » العبرية بمعنى « عالم » وهو لقب في العبرية ادنى من « الرباني » (الربى) ويرى بعض الباحثين ان اسمه الاصل هو : عقيبة ، او يعقوب - ثم عرب الى « كعب » بعد اعلان اسلامه . (انظر : شمتر - الموسومة الاسلامية مادة : كعب الاحبار) .

ويهود اليمن ، مثلما هو الحال بالنسبة لابن سبأ ، وكان موجودا ، ربما في اليمن ، أيام النبي (ص) . ولكنه لم يره قط ، ومثل ابن سبأ أيضا لانعرف الكثير عن حياته ، وهو ربما جاء المدينة بعد وفاة الرسول ، ويذكر انه كان من جملة اتباع عمر بن الخطاب يوم دخل القدس (سنة ١٥ هـ) ولكن الغريب انه كان لا يزال على يهوديته يومها ، ولم يعلن اسلامه الا بعد سنتين من ذلك . ثم انتقل الى الشام ، بعد مقتل عمر ، حيث مات في حمص سنة ٣٢ هـ (١٧) .

يبدو كعب الاحبار ، هو الآخر ، شخصية مزدوجة النشاط السياسي والفكري ، وان كان الأشهر الجانب الأخير من نشاطه ، وهذه طبيعة المثقف الهادئ الذي لا يريد لنفسه ان يتورط موقفيا ، ويتستر في اتجاهه السياسي خلف حجب فكرية قد تكون مجردة في احيان كثيرة ، غير ان « معطياتها » تظل مرتبطة بالسياسة على كل حال . ومن الضروري هنا الاشارة الى هذين الجانبين عند كعب الاحبار باختصار من خلال ما يروى عنه في المصادر .

(١٧) تختلف المصادر في مكان موته ، الطبري يقول انه حمصي ، وابن بطوطة يذكر انه دمشقي ، ويقول آخرون انه مات في المدينة ، وغيرهم يجعلون مصر مكان وفاته ويذكر محمد بن يحيى الأشعري في كتابه « التمهيد والبيان » رواية مسننة عن صلة كعب بمقتل عمر ، خلاصتها ان كعبا جاء عمر غداة تهديد ابي لؤلؤة البطن له فقال : (يا امر المؤمنين ، امهد فانك ميت بعد ثلاثة ايام) قال عمر : (وما يدريك ؟) قال : (اجد في كتاب التوراة) قال عمر : الله ! انك تجد عمر بن الخطاب في التوراة !!!) قال كعب : (اللهم لا ولكن اجد صفتك واصليتك وانه فني اجلك) وعمر لا يجد الا ، فلما كان الفد جاء كعب فقال : (يا امر المؤمنين ، ذهب يوم وبقي يومان) ثم جاءه من الفد وقال : (يا امر المؤمنين ، ذهب يومان وبقي يوم وليلة وهو لك الى صبيحتها) وفي غد طعن عمر (ص ٢٠ - ٢١) .
ومن الممكن هنا ، بالطبع ، التساؤل عن معنى هذا كله ولكن هذا التساؤل يظل مطلقا الى ان يتم دراسته بتوسع وتفصيل .

١ - في السياسة :

من المثير فعلا ان نرى رجلا مثل عمر بن الخطاب يقرب كعب الاحبار هذا التقريب حتى قبل اعلان اسلامه ، ولعل هذا ماجعل صحابيا مثل ابي ذر (١٨) يعترضه ويتحرش به . ولا تفسر لهذا التقريب من عمر الاطمعه في اسلام كعب باعتباره شخصية ثقافية مهمة ، وذلك التسامح الذي اشتهر به المسلمون الاول في تعاملهم مع اهل الكتاب بصفة خاصة ، لكن هذا التسامح ، فيما يبدو ، ادى الى نتائج وخيمة سياسية وفكرية ، فان تمكن كعب من مجلس الخليفة الثاني جملة يحظى بنظرة تكريم خاصة اتاحت ان ينشر افكاره ووافكاره مما عرف في تاريخ الفكر الاسلامي باسم « الاسرائيليات » وفي ميدان السياسة من الممكن الشك في دور ما قام به كعب في مقتل عمر ، ثم محاولة اداء الدور ذاته الذي اداه ابن سبأ بالنسبة لعلي بن ابي طالب .

يذكر الكثيرون ان كعبا (تنبأ) بمقتل عمر قبل حدوثه بثلاثة ايام ، وانه اخبر عمر بذلك ، فهل كان على علم ياترى بمؤامرة اغتيال الخليفة الثاني ؟ هل شارك هو ذاته في الاعداد لها ؟ هل كان من جملة المتآمرين ؟ مثل هذه الاسئلة يمكن ان تطرح ، ومن الممكن النظر اليها باهتمام ، غير ان المصادر لاتزودنا بمعلومات واقية ، عن هذا الموضوع .

(١٨) ابن سعد ، الطبقات الكبرى - دار الكتاب اللبناني - بيروت ١٩٧٢ م ، الجزء الثالث ، ص ٣٤٠ ، كان ضيق ابي ذر بالفا من تمكن كعب في مجلس الخليفة ، وذات مرة قال له : « يا بن اليهودية ! ما انت وهاهنا ؟ والله لا يسمع احد من اليهود الا فتنة » وهذه الاشارة ، فيما يبدو ، موجهة الى الخليفة نفسه . وقد توعد ابو ذر كعبا مرة فقال له (والله لتسمعن مني اذ ادخل عليك) فلما قتل عمر وجد كعب مكانه في مجلس عثمان ، وكان ابو ذر يتحدث وهو عند عثمان قائلا : (لا ترضوا من الناس بكف الاذى حتى يبدلوا المعروف) فقال كعب : (من ادى الفريضة فقد قضى ما عليه) فرفع ابو ذر محجته فضربه ، فشججه ، حتى تدخل عثمان : (يا ابا ذر ، اكلف يدك ولسانك) ، واستوهبه منه فوهبه له ، اي غفا عنه . (الاشعري : التمهيد والبيان ، ص ٦٧) .

ولكن ثمة روايات ذات مغزى كبير ، ويمكن تحليلها ودراستها واستخلاص النتائج منها ، فنحن مثلا ، نجد ابن سعد في « طبقاته » يروي ان كعب اتي عمر ، بعد ان طعن فقال له : (الم اقل لك انك لاتموت الا شهيدا وانت تقول من اين وانا في جزيرة العرب ؟ !) .

ومهما يكن الامر فقد حاول كعب ان يقوم بالمهمة التي قام بها ابن سبا بعده ، وذلك عن طريق (تقديس) عمر بن الخطاب تقديسا قد يؤدي الى (تأليهه) كما حدث مع علي بن ابي طالب ، بيد ان شخصية عمر ذاتها منعت حدوث مثل هذا الامر وكان كعب - كعادته - يستند الى مايرعمه من قصص بني اسرائيل ، اذ يروي انه كان يحدث بحديث ملك في بني اسرائيل (اذا ذكرناه ذكرنا عمر ، واذا ذكرنا عمر ذكرناه) وهو يلقى قصة عن هذا الملك فحواها ان الله امهله ثلاثة ايام ليموت بعدها ، فلما ربه ان يهبه طول العمر حتى يبلغ ابنه الرضيع سن الرشد ، فامهله الله خمسة عشر عاما ليكبر ابنه . وكان كعب يردد هذه القصة ، وخاصة قبيل مقتل عمر فلما طعن عمر قال كعب : (لئن سأل عمر ربه ليقينه الله !) فأخبر عمر بذلك ، فقال : (اللهم اقبضني اليك غير عاجز ولا ملوم .) (١٩) .

ويروي هذا الخبر بصورة مختلفة اذ قيل انه لما طعن عمر جاء كعب فجعل يبكي بالباب ويقول (والله لو ان أمير المؤمنين يقسم على الله ان يؤخره لاخره !) فدخل ابن عباس (تلميذ كعب) على عمر فقال : (يا أمير المؤمنين هذا كعب يقول كذا وكذا) قال عمر : (اذن . . والله لا اسأله) ثم قال : ويل لي ولا مي ، ان لم يغفر الله لي (٢٠) .

نحن نرى اذن ، مما سبق ، بدايات (التقديس) التي شرع فيها كعب الاحبار بالنسبة لعمر بن الخطاب ، ونرى هذا الموقف الانتهازى من رجل

(١٩) المصدر السابق ، ص ٢٥٤ .

(٢٠) المصدر ذاته ، ص ٢٦١ .

مطمعون يحاولون أن يسبغ عليه في لحظاته الاخيرة القدرة على أن يطلب من الله أن يؤخره فيستجاب له ، وبدأ يضرب عصفورين بحجر واحد ، ان مات عمر ظلت كلمته سارية كما حدث ، وان حيي أحاطت به هالة (القدسية) وربما (الالهوية) . بيد اننا نرى موقف الرفض والشدة والغضب من عمر لنصيحة كعب ، ودعوته ان يقبضه الله سريعا والسؤال الان : مم كان يستغفر عمر في هذا الموقف ؟ هل كان يستغفر الله اذ قرب كعبا اليه ؟ هل علم - أو شك - بأن لكعب يدا ، ولو خفية ، في ماحدث فيشيخ عنه ؟ هذا امر يحتاج فعلا الى بحث طويل .

هذا الموقف الانتهازي - او بتعبير آخر الصيد في الماء العكر - الذي رايناه عند كعب بالنسبة لعمر ، يبدو ايضا في تصرفات اخرى له ، بغية اثاره الفتنة ، اذ يظهر انه لم يكتف بما شجر بين المسلمين من خلاف ، بعد مقتل عمر ، على جهات عديدة ، من شيعة علي الى أنصار عثمان الى مؤيدي عائشة وطلحة وعبد الله بن الزبير وعشرات الاسماء الاخرى . فاراد أن يدخل في الصراع طرفا آخر من بني هاشم متبعاً الخطة ذاتها ، التقديس وايهام الشخص ومن حوله بأن له (مكانة) عند الله تؤهله لمكانة كبرى في الدنيا ، وبالتالي ادعاء الخلافة والحكم ، فيروي عن علي بن زيد بن علي بن الحسن أن كعبا مضى الى فرع من فروع بني عبد المطلب - وهو المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب - (فيأخذ بيده وقال : اشفع لي يوم القيامة فانزع المغيرة يده من يد كعب وقال : وما انا ؟ انما انا رجل من المسلمين ، فأخذ كعب بيده فغمزها غمزا شديدا . وقال : ما من مؤمن من آل محمد الا وله شفاعة يوم القيامة !) (٢١) .

ونجد مثل هذا الموقف المداهن لابناء عبد المطلب في حادثة اخرى ، فقد ذكر أن كعبا قام يسأل عمر بن الخطاب : (ما كان آخر ما تكلم به رسول الله (ص) ؟) فقال عمر : (سل عليا) قال : (اين هو)

قال : (هو هنا) فسأله ، فقال علي : (اسندته الى صدري فوضع رأسه على منكبي وقال : الصلاة .. الصلاة) فقال كعب : (كذلك آخر عهد الانبياء وبه أمروا ، وعليه يعثون) (٢٢) .

وبصرف النظر عن موضوع السؤال فاننا نرى عمر ، مرة أخرى ، يشيح بوجهه عن كعب ويوجهه لسؤال علي الذي قيل انه حضر وفاة النبي - وفي الامر خلاف ، فلما اجابه بما اجاب نجد كعبا يعلق تعليقا فيه موافقة لابن ابي طالب ، استنادا الى (علمه) هو بآخر عهد الانبياء وبما أمروا به وبما عليه يعثون .

الغريب في الامر ان كعب الاحبار انحاز ، بعد مقتل عمر ، الى عثمان بن عفان ، فلما قتل عثمان انضم الى معاوية بن ابي سفيان المطالب بدم عثمان والذي استولى على الخلافة من بعد ، وهو هنا مخالف لموقفه السابق من آل عبد المطلب ، ومخالف لابن سبا ، بيد ان القضية تفقد غرابتها اذا علمنا (خطة) اليهود على مدى الازمنة والعصور ، حتى وقتنا هذا ، في حرصهم على ان يكون لهم (ممثل) في فرق الصراع سياسيا كان او ايدولوجيا وهذه الظاهرة لا تغيب عن عين المتفحص يلحظها في حضور اليهود حضورا ايجابيا في جميع الفلسفات بقدر يكبر او يصغر تبعا للحاجة والظروف .

ومن الواضح ان معاوية رحب ترحيبا كبيرا بكعب الاحبار ، اليس في انضمامه اليه كسب عظيم باجتذاب أحد كبار المثقفين ؟ وكان معاوية ، بدهائه المعروف ، يبحث عن الانصار والمؤيدين من مختلف الطبقات ، فما بالك برجل صاحب عمر بن الخطاب واشتهر بعلم الاولين ومعرفة ما عند اهل الكتاب ؟ ولعل هذا ما جعله يستدعيه الى دمشق ليقربه ويتخذ منه (مستشارا) في كثير من شؤونه ، ومن الجلي ان كعبا لم يبخل بمشورته النافعة لمعاوية ، وهذا ما جعل ابن سفيان يصرح :

(الا ان كعب الاحبار احد العلماء ان كان عنده لعلم كالشمار ، وان كنا فيه كمفرطين) (٢٣) .

ويبدو ان هذه المكانة التي حظي بها كعب لدى معاوية وبعد ان رأى غلبة بني أمية على الامر ، هي التي جعلته يتحول عن موقفه بالنسبة لبني عبد المطلب . ويتخلى عنهم ، ليس فيما يتعلق بمسألة الخلافة ، فحسب ، بل ايضا في موضوع العلم والثقافة يومها ، وبعد ان كان يطلب (شفاعا) المغيرة من بني عبد المطلب ، ويعيد له على ما نقله على عن النبي (ص) ، نراه يلتفت لتنصيب أحد أبناء بني أمية باعتباره (أفقه العرب) فقد التقى وعبد الله بن عمرو بن العاص فقال كعب : (أتظير ؟) قال عبد الله : (نعم) قال : (فما تقول ؟) فقال : (أقول : اللهم لا طير الا طيرك ، ولا خير الا خيرك لا رب غيرك ولا قوة الا بك) قال كعب : (انت أفقه العرب انها مكتوبة في التوراة كما قلت) (٢٤) .

ب - في الفكر :

لم يترك كعب الاحبار كتابا ، فكل آرائه وافكاره كانت شفوية ، وهي آراء نقلها تلاميذه الذين من أهمهم الصحابي أبو هريرة الذي تنسب إليه احاديث نبوية كثيرة جدا يحتاج عدد كبير منها الى اعادة نظر شاملة . ثم عبد الله بن عباس ، أشهر مفسري القرآن في صدر الاسلام الاول . ونجد نقولا عن كعب مبثوثة في مختلف المؤلفات ، وخاصة ما اتصل منها بالتاريخ القديم وتفسير بعض آي القرآن المتعلقة بالاشارة الى الامم السابقة واخبارها .

هذا الاثر البالغ الخطورة يعرف عادة باسم (الاسرائيليات) وهي مجموعة الروايات والقصص التي جاء بها كعب ، وبوهب بن منبه من

(٢٣) المصدر السابق ، ص ٢٥٨ .

(٢٤) الطبقات ، الجزء الرابع ، ص ٢٦٨ .

بعده ، مدعيا انه نقلها من مصادرها الاصلية في التوراة وكتب اليهود
وزاعما انها تفسير حقيقي لما جاء في القرآن .

ولا بد من الاشارة هنا الى تلميذ كعب المباشر ، اعني عبد الله بن
عباس ، ودوره في نقل كثير مما بثه كعب الاحبار من الاسرائيليات ولاريب
في انه مسؤول تماما عن انتقالها الى الفكر الاسلامي حتى أصبحت تعد
من الاسلاميات (٢٥) وتحسب على الاسلام والقرآن ذاته . واذا كان هناك
الكثير مما يمكن قوله في تفاسير ابن عباس واقواله فان ترجمته التي اثبتها
ابن سعد مطولة في (طبقاته) (٢٦) وجاءت في مصادر اخرى كثيرة ، تظهر
جوانب ينبغي على الدارس المحقق ان يقف عندها وبمحصورها ، واقل
ما يقال هنا في هذه الملححة ان ابن عباس متأثر تأثرا بالغا بكعب الاحبار
وهذا ما ادخل كثيرا من الخلط في تفسيره للقرآن الكريم ، فقد كان ابن
عباس اكثر الصحابة تفسيرا ، ولم يعرف منهم بالتفسير الا ثمرة ، كما
يروى السيوطي في (الاتفاق) ومن الجائز القول ان كثيرا من تفسيره
نسب اليه - كما يذهب المعتدرون عنه - تعلقا بالعباسيين وزلفى وهناك
طرق عديدة للرواية عنه واهية لا يوثق بها ، ويروى عن الامام الشافعي
انه قال : (لم يثبت عن ابن عباس من التفسير الا شبيه بمائة حديث) (٢٧)
بيد ان هذا لا يمنع من القول بان تفسير ابن عباس ، وبقية التفاسير
الاخري التي نحت نحوه مما يعرف باسم (التفسير بالمأثور) سواء صحت
نسبتها ام لم تصح تحتوي على قدر مهول من الخلط والخرافة شوهدت
صورة الفكر الاسلامي وانحرفت به عن مجراه العقلي المنطقي السليم ،
ولا ريب ان مرجع الامر يعود الى ذلك المثقف اليهودي الذي أعلن اسلامه
متاخرا . . كعب الاحبار .

(٢٥) انظر : مناهل العرفان - للزرقاني ، ص ٤٨٥ .

(٢٦) انظر : الجزء الثاني ، ص ٣٦٥ وما بعده .

(٢٧) مناهل العرفان في علوم القرآن - محمد عبد العظيم الزرقاني - دار احياء الكتب

العربية ، القاهرة ١٩٥٠ م ، ص ٤٨٥ - ٤٩١ .

٢ - وهب بن منبه :

اذا كان كعب الاحبار ادى مهمته في صدر الاسلام الاول ومن عصر الصحابة حتى (اغتر به قدماء رجال الحوارج والتعديل) (٢٨) وصدقه (حتى بعض الصحابة) (٢٩) كما يرى الحافظ ابن كثير ، فان المهمة تسلمها من بعده شخصية ثقافية يهودية اخرى ممثلة في وهب بن منبه الذي يحسب من التابعين .

ولد وهب في اليمن ايضا بالقرب من صنعاء سنة ٢٤ هـ ، وكان من اصل فارسي ينتسب الى طائفة تعرف بـ (الابناء) وهم اعقاب الجنود الفرس الذي جاءوا اليمن لاجراح الاحباش منها على ايام ذي نواس . ويورد ابن النديم في (الفهرست) انه كان من (اهل الكتاب) - اي بدقة اكبر : كان يهوديا ، ويذكر الثعالبي انه كان على صلة بمعاوية ، كما يشير السعدي الى علاقته بالوليد بن عبد الملك ، ويبدو انه عرف بالتزهد ، وهذا ما قد يكون دفع الى تعيينه قاضيا لمدينة صنعاء مسقط راسه مرة - وهو امر حدث بعد اعلان اسلامه بزمان ، وتوفي وعمره فات التسعين (٣٠) .

كان وهب يعتبر واحدا من كبار مثقفي (اهل الكتاب) ، ويذكر عنه ابن قتيبة انه كان يقول : (قرأت من كتب الله تعالى اثنین وسبعین كتابا !) وينقل عنه انه قرا عشرة آلاف ورقة من (حكمة لقمان) . ويصفه ابن خلدون بأنه (صاحب الاخبار والقصص ، وكانت له معرفة باخبار

(٢٨) رشيد رضا ، تفسير القرآن الكريم ، مطبعة المنار ، القاهرة ١٣٤٦ هـ جزء ١ ، ص ٩٠ .

(٢٩) المصدر نفسه ، ص ٧٨ وقارن : مناهل العرفان ، ص ٤٨٢ .

(٣٠) انظر ترجمته عند ابن خلدون في (وفيات الايمان) ومن مؤلفات الاعلام الاخرى مثل : معجم الادباء طبقات ابن سعد ، حلية الاولياء ، تهذيب التهذيب ، ميزان الاعتدال تذكرة الحفاظ . واقوال متناثرة في كتب التفسير مثل تفسير الطبري ، وكتب الادب مثل : عيون الاخبار ، والمعارف ، لابن قتيبة .

الأوائل وقيام الدنيا وأحوال الأنبياء وسير الملوك) (٢١) ومن الواضح انه ثمة مبالغة في علم وهب ومعرفته التي جاءت عن طريق اتصاله بمجتمع اليهود والنصارى في اليمن وتغطي أقواله - التي كثيرا ما تتفق مع تراث هذا المجتمع - ميادين قصص الأنبياء والعباد واحاديث بني اسرائيل وانتقلت عن طريق مؤلفاته وتلاميذه ، وبصفة خاصة حفيده عبد المنعم ابن ادريس ويقول ياقوت الحموي في (معجم البلدان) ان وهبا كان كثير النقل من الكتب القديمة المعروفة بالاسرائيليات ، ومن الثابت اعتماده على المصادر اليهودية كما يتضح من اقتباسات ابن قتيبة والطبري والسعودي عنه .

والى جانب نقول تلاميذه عنه ترك وهب بن منبه بعض الآثار التي تدل على منحى فكره واتجاهه من ذلك ، مثلا ، كتابه المعروف باسم (المبتدا) او (مبتدا الخلق) وهو صورة مشوهة عن قصة الخلق كما جاءت في سفر التكوين من التوراة ، وكتاب (السير) وهو يتعلق بترجمة الأنبياء والعباد وينسب اليه حاجي خليفة كتابا باسم (الاسرائيليات) ولعله لم يكن اسمه بل مجرد نعت لمحتوى الكتاب ، وكتابا آخر عن (المغازي) اي حروب النبي (ص) ، وكتابا عن (المفتوحات) .

ويذكر انه ترك مؤلفا باسم (الحكمة) ومن المرجح انه مجموعة اقوال وحكم نقلها عن المصادر اليهودية ، ويذكر محمد بن خير في (فهرسته) انه وهبا ترجم (زبور داود) الى العربية ، ومن اعرف الكتب التي تنسب اليه ما نقله عنه ابن هشام باسم (الكتاب التيجان في ملوك حمير واليمن) .

هذا التراث الذي حققه وهب ، والذي وصلنا بعضه واندثر بعضه الآخر ، يدل دون شك على نشاط هائل ، وهو (أمر ابعد صيته واعظم

قدرة) كما يعبر ابن خلدون (٢١) ومن هذا الصيت البعيد ذاته جاء الخطر على الفكر الاسلامي فيما تأثر به بعض مشاهير الكتاب المسلمين ونقلوه ، دون تحرر كبير ، عن وهب وتلاميذه ، ثم عمت هذه النقول وغطت على كثير من صفاء هذا الفكر ، وشحنته بالخرافات والسخافات التي لا يقبلها عقل ولا منطق ، وطم سيلها في فتزات الركود والجمود ، بل لعلها كانت سببا من اسباب التخلف الثقافي بما تحويه من صرف للفكر عن النظر العقلي السليم وبما افرقت به اذهان المسلمين من غيبات واساطير ، ومن المؤسف ان تظهر اسرائيليات وهب ، وكعب من قبله ، اكثر ما تظهر في تفاسير القرآن الكريم مثل تفاسير ابن جرير الطبري ، وابن الليث السمرقندي ، وابي محمد البقوي ، وابي جعفر النحاس ، وغيرهم كثير مما يصعب حصره هنا (٢٢) ، والقرآن هو اساس وركيزة وجوده ، عقيدة وشريعة وخلقا وسلوكا ، فاذا فسر على غير ما انزل من اجله وادخلت في تفسيره الخرافات انهد بنیان الوجود الاسلامي بكامله وانقض نسيجه وانهار فكره وعمته الجهالة والسخافة وانحط اهله واندثر اثره ، ومن هنا كان خطر (اسرائيليات) وهب وكعب ، ومن اتبعوهما جهلا وعماية .

غير ان اثر وهب لم يقتصر على تفسير القرآن وحده تفسيراً توراتياً مشوهاً كما هو واضح ، بل امتد الى كتب السير والترجمات ، ومن أهمها على الاطلاق سيرة النبي (ص) ، وبخاصة مقدمات البعثة فابن هشام مثلا يحشو سيرته باسرائيليات وهب وهو يتبعه في التاريخ التوراتي تماما في حديثه عن التاريخ القديم في الاسماء والشخصيات ، بل يصل به الامر الى تقديم الصيغ العبرية للاسماء وابن هشام في هذا متأثر بابن اسحاق

(٢٢) مقدمة ابن خلدون المطبعة الادبية ، بيروت ١٩٠٠ م ، ص ٤٢٩ .

(٢٣) راجع لزيد من التفصيل : مناهل العرفان ، ص ٤٩٦ وما بعدها .

الذي اخذ روايته عن وهب (٢٤) ونقل الطبري ما نقله ابن هشام عن ابن اسحاق عن وهب ، وعن الطبري نقل بقية المفسرين بالماثور ما حشوا به تفاسيرهم من خرافات ، وعن هؤلاء المفسرين اخذ كاتبو السير وقصص الانبياء واخبار الصالحين والاولياء وملأوا مؤلفاتهم بحكايات عباد بني اسرائيل واساطيرهم المختلفة حتى باتت صورة من صور الفكر الاسلامي الشوهاء .

موقف النقد الاسلامي من الاسرائيليات :

اذا كان من الصواب القول بان كعب الاحبار ووهب بن منبه واضرا بهما من اليهود الذين (اعلنوا) اسلامهم ، كعب الله بن سلام مثلا ، مسؤولين عن تيار التفسير الخرافي للقرآن وعن الانحراف في فهم وشرح النصوص القرآنية بخليط هائل من القصص والاساطير ، فان من الحق القول ايضا بان هذا المنحى كان منظورا اليه بنظرة الريبة والشك عند كثير من علماء الاسلام المحققين ، ودعا الكثيرون قديما وحديثا ، الى اتخاذ جانب الحيطة في هذا الامر ادراكا منهم لانحرافه وعدم سداه ومنافاته لروح القرآن .

شعر اذن نفر من مفكري الاسلام بخطر التيار الخرافي العامم الذي بداه كعب الاحبار ووهب بن منبه بالنسبة لتفسير القرآن ، واتخذ منهجا

(٢٤) ابن النديم ، الفهرست المكتبة التجارية القاهرة (بدون تاريخ) ص ١٢٦ ، ويحمل ابن النديم على ابن اسحاق بشدة ويتهمه في خلقه وامانته العلمية : ويقال كان يعمل له الاشعار ويؤثر بها ويسأل ان يدخلها في كتابه في (السيرة) فيفعل . فممن كتابه من الاشعار ما صار به فصيحة عن رداءة الشعر ، واخطا في النسب الذي اورده في كتابه ، وكان يحمل عن اليهود والنصارى ويسميه في كتبه (اهل العلم الاول) . واصحاب الحديث يضعفونه ويتهمونه ... وله من الكتب (كتاب الخلاء) رواه عنه الاموي ، وكتاب السيرة (والمبتدا) و (المغازي) .
ولعل الكتابين الاخرين لوهب بن منبه ، اضافة الى ما نقله عنه في (البرة) .

كثير من المفسرين بدءا بآبن عباس ومن جاء بعده ، واحسوا بسيطرة (الاسرائيليات) في فهم اي القرآن حتى عمت النظر الخرافية المعفنة واساطير ليست مقتبسة فقط من آثار اهل الكتاب بل هي مشوهة معرفة بل موضوعة مكذوبة مزيد فيها ، فقد سلك اقوام مسلك تتبع القصص وزادوا في قصص القرآن ماشاؤا من كتب التاريخ والاسرائيليات ، واخذوا جميع ما سمعوه عن اهل الكتاب من غير تفريق بين غث وسمين ولا تنقيح لما يخالف الشرع ولا يطابق العقل ، كما يقول رشيد رضا (٢٥) وهذا مادفع الكثيرين الى اتخاذ موقف نقدي شديد تجاه هذا النمط من التفسير المعروف بالتفسير بالمأثور .

وقد حلل ابن خلدون هذه الظاهرة تحليلا جيدا في (مقدمته) وأشار الى اسبابها وتطورها ، (فهو يذكر ، عند حديثه عن تفسير القرآن ، انه نزل بلغة العرب وعلى اساليب بلاغتهم ، فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه ، وكان النبي (ص) يبين المجمل ويميز الناسخ والمنسوخ ويعرفه اصحابه ، فعرفوه ، وتداول ذلك التابعون ومن بعدهم ، ونقل عنهم في الصدر الاول والسلف ، حتى صارت المعارف علوما ودونت الكتب (فكتب الكثير من ذلك ونقلت الآثار الواردة فيه عن الصحابة والتابعين ، وانتهى ذلك الى الطبري والواقدي والشعالي وامثالهم من المفسرين) (٢٦) ثم صارت علوم اللسان صناعية ، فوضعت الدواوين في ذلك بعد ان كانت ملكات للعرب ، فاحتيج الى تفسير القرآن ، وصار التفسير على صنفين تفسير نقلي مسند الى الآثار المنقولة عن السلف ، وتفسير لغوي .

ويمضي ابن خلدون في حديثه عن (التفسير النقلي) او (التفسير بالمأثور) بلغة تقديية جلية :

(٢٥) تفسير القرآن الكريم ، ج ١ ، ص ١٨ ،

(٢٦) المقدمة ، ص ٤٢٨ - ٤٢٩ .

(وقد جمع المتقدمون في ذلك واوعوا . الا ان كتبهم ومنقولاتهم تشتمل على الفث والسمين والمقبول والمردود ، والسبب في ذلك ان العرب لم يكونوا اهل كتاب ولا علم ، وانما غلبت عليهم البداوة والامية ، واذا تشوقوا الى معرفة بشيء مما تشوق اليه النفوس البشرية في اسباب المكونات وبدء الخليقة وابرار الوجود فانما يسألون عنه اهل الكتاب قبلهم ويستفيدونه منهم ، وهم اهل التوراة من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى) (٣٧) .

المصيبة هنا (اهل الكتاب) هؤلاء لم يكونوا في واقع الامر يعرفون من الكتاب شيئا كثيرا ، او بحسب كلمات ابن خلدون نفسه : **واهل التوراة** الذين بين العرب يومئذ **بادية** مثلهم ولا يعرفون من ذلك الا ما تعرفه العامة من اهل الكتاب) .

ثم يحدد : (ومعظمهم من حمير (اي من اليمن) الذين اخذوا بدين اليهودية فلما **اسلموا بقوا على ما كان عندهم** وهؤلاء مثل **كعب الاحبار** و**وهب بن منبه** و**عبد الله بن سلام** . فامتألت التفسير من المنقولات عنهم وملاوا كتب التفسير بهذه المنقولات ، واصلها كما قلنا عن اهل التوراة الذين يسكنون البادية ولا تحقيق عندهم بمعرفة ما ينقلونه من ذلك . الا انه بعد صيتهم وعظمت اقدارهم لما كانوا عليه من المقامات في الدين والملة فتلقيت بالقبول من يومئذ) (٣٨) .

واضح اذن ان اخذ العرب عن اهل الكتاب جاء نتيجة التطلع الى المعرفة ولكن هؤلاء لم يكونوا على علم بالكتاب ، كما يرى ابن خلدون ، مما ادى الى التحريف والتشويه والخلط والتشويش في منقولاتهم . وهذا ما دفع رجلا مثل ابن قتيبة للاشارة الى تعارض روايات وهب بن منبه وما ورد في سفر (التكوين) (٣٩) ودفع رجل اخر من اهل المغرب ،

(٣٧) المصدر نفسه .

(٣٨) المصدر نفسه ، ص ٤٤ .

(٣٩) ترجع صور هذا التعارض في منقولات وهب الى الصياغة المبكرة لمن نقلوا عنه الاسلوب من القصاصين او الى ان وهبا نفسه اعددا خاصا لتلائم ذوق العامة وليس الى قلة العلم ، راجع مادة : وهب بن منبه في (الموسوعة الاسلامية) .

هو ابو محمد بن عطية ، لما رجع الناس الى التحقيق والتمحيص الى ان يلخص تلك التفاسير كلها ، ويتجرى ما هو اقرب الى الصحة منها ، ويضع في ذلك كتابا كان متداولاً بين اهل المغرب والاندلس . ثم تبعه القرطبي في تلك الطريقة على منهاج واحد في كتاب آخر مشهور بالمشرق (٤٠).

ما الحافظ ابن كثير فقد رأى ان (التفسير بالمأثور سرى الى الرواة من زنادقة اليهود والفرس ومسلمة اهل الكتاب) وحدده بأن (جل ذلك في قصص الرسل مع اقوامهم وما يتعلق بمعجزاتهم . وفي تاريخ غيرهم كاصحاب الكهف ومدينة ارم ذات العماد وسحر بابل وعوج بين عنق ، وفي امور الغيب من اشراط الساعة وقيامتها وما يكون فيها وبعد . وجل ذلك خرافات ومفتريات صدقهم فيها حتى بعض الصحابة) (٤١) .

وذهب شيخ الاسلام ابن تيمية الى ان الاختلاف في التفسير على نوعين : ما مستنده النقل فقط ، ومنه ما يعلم بغير ذلك . والمنقول ، اما عن المعصوم (ص) او غيره ، ومنه ما يمكن معرفة الصحيح منه من غيره ، ومنه ما لا يمكن ذلك . وهذا القسم الاخير بما فيه مما لافائدة فيه ولا حاجة بنا الى معرفته ، ذلك كاختلافهم في لون كلب اصحاب الكهف واسمه ، وفي البعض الذي ضرب به القتيل من البقرة وفي قدر سفينة نوح وخشبها ، وفي اسم الغلام الذي قتله الخضر ونحو ذلك ، ويضيف ابن تيمية ، فهذه امور طريقة العلم بها النقل فما كان منقولاً نقلاً صحيحاً عن النبي (ص) قبل ، وما لا بأن نقل عن اهل الكتاب ككعب الاحبار ووهب وقف عن تكذيبه وتصديقه لقوله (ص) : (حدثكم اهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم) (٤٢) .

(٤٠) المقدمة ، ص ٤٤ .

(٤١) تفسير القرآن الكريم ، ص ١ ص ٨ مناهل العرفان .

(٤٢) المصدر السابق ، ويشرح رشيد رضا هذا الحديث : لا تصدقوهم ، اذ قد يكون تحريفاً في الاصل او نقلاً مشوهاً ، ولا تكذبوهم ، اذ قد يكون صحيحاً فهم (اعطوا نصيباً من الكتاب) .

وابن تيمية هنا يتبع منهج الامام ابن حنبل الذي بلغ به الضيق من التفسير بالمأثور فيما جد انكاره جملة وتفصيلا فقال كلمته : (ثلاثة ليس لها اصل : التفسير ، والملاحم ، والمغازي) وهو بهذا يخرج هذه الثلاثة من دائرة المعارف والعلوم لتزيد المفسرين وخرافاتهم ، ولانها قابلة جدا للوضع والافتراء واختلاق القصص الغريبة جلبا للانتباه واثارة للاهتمام ، مما ادى بالتالي الى تراكم اعداد مهولة من المؤلفات في هذا الباب لا تتفق مع النظرة العلمية الصحيحة .

ويعلق رشيد رضا على موقف ابن تيمية بقوله :

(فانت ترى ان هذا الامام المحقق جزم بالوقف عن تصديق جميع ما عرف انه من رواة الاسرائيليات ، وهذا في غير ما يقوم الدليل على بطلان في نفسه وصرح في هذا المقام بروايات كعب ووهب بن منبه ، مع ان قدماء رجال الحرج والتعديل اغتروا بهما وعدلوهما ، فكيف لو تبين له ما تبين لنا من كذب كعب ووهب وعزوهم الى التوراة ما ليس فيها شيء منه ولا حومت حوله ؟) (٤٣) .

ثم يستشهد رشيد رضا بقوله استاذه الامام محمد عبده : (لقد قلت لكم غير مرة انه يجب الاحتراس من قصص بني اسرائيل وغيرهم من الانبياء وعدم الثقة بما زاد عن القرآن الكريم من اقوال المؤرخين والمفسرين) (٤٤) .

هذه اشارة خاطفة الى بعض مواقف النقد من التفسير بالمأثور - واغلبه حشي بالاسرائيليات ، ولكن الواقع ان هذا النمط من التفسير هو الذي غلب وسيطر قرونا طويلة من الزمان ، ومن المزعج فعلا ان نراه غلب ايضا في النهضة الاسلامية الحديثة باعادة طبع نماذجه وترويجها - ولا تحتمل طبيعة هذه المقالة الموجزة مزيدا من التوسع والتفصيل ولعل مناسبة اخرى تسنح للتوسع فيه .

(٤٣) المصدر السابق ، ص ١٤٧ .

(٤٤) المصدر ذاته .

خاتمة :

من الصفحات السابقة تبرز بعض الملاحظات التي تثير في الذهن جملة أسئلة :

١ - ظهر ما اصطلحنا على تسميته بالفزو الفكري منذ البداية الاولى للاسلام ، واتخذ اشكالا مختلفة ولكنها تصب في مجرى واحد .

٢ - أبرز هذه الاشكال كان متسترا بالاسلام نفسه - اي بعملية سرب وتغلغل من الباطن باعلان الاسلام والعمل ضده .

٣ - من الغريب فعلا ان نماذج هذا الفزو جاء اغليها - او اظهرها - من منطقة واحدة ، من اليمن . او حسب تعبير ابن خلدون (كانوا كلهم من حمير) هل الامر كان مجرد (صدفة) ؟

٤ - نلاحظ ان هذه النماذج (الثقافية) كانت ذات اهداف سياسية . وهنا نجد امتزاج الثقافة بالسياسة والعكس .

٥ - ساعدت طبيعة التسامح العربية الاسلامية في تيسير تغلغل هذه النماذج في المجتمع واحتلال مكانتها فيه .

٦ - كانت اداة فظيعة من ادوات تمزيق وحدة الصف في المجتمع الاسلامي ، والقت بمقالاتها بين جوانب الصراع لتزيد الخلاف حدة .

ان مقارنة بسيطة جدا بين ادوار اليهود في الصدر الاول للاسلام وادوارهم في العصر الحديث تظهر بجلاء حين ننظر الى (المستشرقين) - واغلبهم من اليهود - في القرن التاسع عشر وبداية هذا القرن نظرة نقدية ونطلع على (جهودهم) في مجال الدراسات الاسلامية في الغرب ، وان نظرة خاطفة الى اسماء عدد من كبار مثقفي وقتنا الحاضر المهمة بالدراسات العربية والاسلامية، لتبين ان المهمة هي لم تتغير وان ما قام به كعب ووهب وابن سبأ قام ويقوم به مارغليوث وبرانارد لويس ومكسيم رودنسون وعشرات الاسماء الاخرى .

لكن هذا موضوع آخر طويل جدا ، والفاية ان ننظر الى الماضي في ضوء الحاضر وان نرى الحاضر بنور الماضي ، فان الادوار لم تتغير .

الم يحن الوقت لكي نتغير نحن ؟

مراجع :

- ١ - ابن حزم ، محمد ، الفصل في الملل والنحل ، طبعة قاسم الرجب ، بغداد ، بدون تاريخ .
- ٢ - ابن خلدون ، عبد الرحمن ، المقدمة ، المطبعة الادبية ، بيروت . ١٩٠٠ م .
- ٣ - ابن خلكان ، شمس الدين ، وفيات الاعيان ، القاهرة . ١٩١٠ م .
- ٤ - ابن سعد ، محمد ، الطبقات الكبرى ، دار صادر ، بيروت .
- ٥ - ابن قتيبة ، عبد الله ، كتاب المعارف تحقيق د. ثروت عكاشة ، مطبعة دار الكتب ، القاهرة . ١٩٦٠ م .
- ٦ - ابن النديم ، محمد ابن اسحاق ، الفهرست ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، بدون تاريخ .
- ٧ - الاشعري ، محمد بن أبي بكر ، التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان ، تحقيق د. محمد يوسف زايد ، بيروت ١٩٦٤ م .
- ٨ - حسين ، د. طه : الفتنة الكبرى ، دار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٧٣ م .
- ٩ - رضا ، رشيد ، تفسير القرآن الكريم (تفسير المنار) ، مطبعة المنار ، القاهرة ١٣٦٤ هـ .
- ١٠ - الزرقاني ، محمد عبد العظيم ، مناهل العرفان في علوم القرآن ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة . ١٩٥٠ م .
- ١١ - الشهرستاني ، محمد عبد الكريم ، الملل والنحل ، تحقيق محمد ابن فتح الله بدران ، مطبعة الازهر ، القاهرة ١٩٥٤ م .
- ١٢ - شمتر ، م ، مادة (كتب الاحبار في الموسوعة الاسلامية) النسخة الانكليزية .
- ٣١ - هورفتس ، ج ، مادة (وهب بن منبه) في (الموسوعة الاسلامية) .
- ١٤ - هوتسما ، م ، هـ ، مادة (عبد الله بن سبا) في (الموسوعة الاسلامية) .
- ١٥ - هودغسون ، م . ج . س ، مادة (عبد الله بن سبا) في (الموسوعة الاسلامية) ، (الطبعة الجديدة) .

أدب

الأزهر والأحمر

شعر: محمد عمران

عزف على أوتار
الزمن الفافل

قصة: سلوى الخير

الأزرق والأحمر

شعر: محمد عمران

نبهتُ ، من إغفائه ، الأزرق
 يالون صوت حبيبي
 كبرُ النهارُ وأنت في حلمٍ من الفستق
 كبرُ انتظارُ قصيدي
 عتقتُ في شفتي خابيةً ، فقم نسكراً
 طفلي يُفبقُ على منابته ، فقم نسكراً
 الأزرقُ المخجولُ قامَ ، مشى على ثقله ،

ترنّح ، وارتمى
في حضرة الأحمر

والأزرقُ المقتولُ أرخى حلمه ،
وتوسّد الأحمر

أمسكتُ خابيتي على شفّيتي
وهتفتُ بالألوانُ :
ياسيدي الأخضرُ
ياسيدي الأصفرُ
ياسيدي . . . ال . . . يا . . .
ماتت الألوانُ

وعلى المنابتِ ، حيث طفلي ، عرّش الأحمر

أنا لي طفلٌ من الريحان في هذا الياسُ
أنا ، في اليأسِ ، أتيتُ امرأتِي ،
أنجبتُ طفلاً من رياحينَ ،
وفي اليأسِ ندهتُ الأزرق الصعبَ ،
وفي الأزرق أججتُ مرايا الحلمِ ،
في الحلمِ نما أفقٌ من الطفلِ ،
وفي الأفقِ نمتُ أجنحةُ زرقٍ ،

وفي الأجنحة الزرق نما الله ،
 وفي الله نما الحب ،
 أنا ، في الحب أنجبت ، ولي الوقت ،
 ولي ما ينسل الوقت ،
 ولي الريحان في هذا اليباس

« الوقت لي »

همس البنفسج والغمام ،
 استيقظت شفتان من كرز ، وأوماتنا :

لنا الوقت

استفاق على المدى عنب ونهر قصائد ، وأشار :

لي الوقت

ومشت فراشات وأطفال إلى فرح المدارس ،

سرحت لغة جدائلها لأعياد الأغاني

ومشت من الزرع السنابل باتجاه القمح ،

ثم مشى الغمام إلى المطر

ومشى إلى الثمر الشجر

ومشى إلى الضوء القمر

وإلى العناق العاشقان

... فجأةً ، ينفجرُ الأحمرُ ، يغشى معطفُ النارِ المدنُ
ويطوفُ الموتُ في الساحاتِ والأعيادِ ، هذي شفةُ ،
هذي ذراعُ ، هذه جمجمةُ ، ساقُ ، بقايا رثةٍ ،
هذي شظايا جسدٍ كانَ ، هنا دفنُ طفلٍ رسمَ البحرَ ،
هناك القلمُ الأزرقُ والممحاةُ والوردةُ ، تلك
الخصلةُ الشقراءُ ، ، ذاك الدمُ . . .
. . . الأحمرُ ينداحُ على صدرِ الوطنِ

أمسكتُ ما تركَ الدخانُ من الهواءِ الطفلِ في رثتي
أمسكتُ ما تركتِ خيولُ الموتِ من جسدي
ووقفتُ في الأنقاضِ ،

ما بين الحرائقِ والرمادِ

وصرختُ : يا ولدي

يا زهرةَ الفرحِ الذجيلِ على فمِ الدفلى ، على شفطي
يا عيدَ عيدِ الخبزِ في الآتي من السغبِ
يا حبةَ التوتِ الشهوي ، وحبّة العنبِ
ومؤونتي لشتائي الأقسى ، ويا قمري
لليلةِ العتمِ ،

يا ولدي

أهديتُ عرسكَ حقدِي القبليّ ،

إرثَ مجازي

أهديتُكَ الموتَ الذي صاغته من حجرِ الدماء

أظافري

فأهربُ ، إذن ، منِّي

إهربُ ، أو انكرني

مُسهكاً ما تبقى

مُسهكاً آخرَ الحلمِ آخرَ خيطٍ من الأزرقِ المتلاشي ،

ألفٌ على إصبعي خيطَ ظلِ أليفٍ ، وأغزلُ

عينين للشعرِ ، نديين للعشبِ ، حنجرةً للهواءِ ،

وصوتاً لقبرةٍ تنزهُ في الفجرِ . . . أغزلُ أعيادَ

حلوى ، وفاكهةً ، وسماءَ مُطرزةً ، ومناديلَ من

شجرٍ وعصافيرَ زرقاءَ . . .

— — — ثم أناديكَ : يا ولدي ،

ياحيبي

تقدّم إلى عرسك الحلوي ...

... ينفجرُ الأحمرُ الآخويُّ ،

يُمزقُ آخرَ خيطٍ من الأزرق المتلاشي ،

ويساقطُ الظلُّ أشلاءً ،

المحُ وجدك في جثة الظلِّ طفلاً من الدم ،

أكسرُ وجهَ المرايا

ليهربَ وجهك ،

المحُ في الشظايا

فأهرب ، إذن ، مني

إهرب ، أو انكروني

عزف على أوتار الزمن الغافل

قصة: سلوى الخير

تكوّما في المحطة كالمقطعان ... آباء شاحبو
الوجوه ، وصبيّة ، وأمّهات مرضعات جف اللبن في
اندائهن .. نغاء الاطفال المتداخل النبرات يملأ أرجاء
المحطة بايقاع حاد وحزين .. ومرارة الانتظار المشوب
بالقهق قناع يفتف الوجوه جميعا ، النظرات الزائغة
تنكفىء من الخارج اليابس الى الداخل المكبوح بألف
الجمام ، تزجرها الحسرة والخوف من المجهول، والماضي
شريط يدور في ذاكرة الجميع . يلونه كل بأوانه
الماسوية الخاصة .

لم يحدث هذا في تاريخ الجزيرة المعروف ... بضع سنين والسماء تحبس أمطارها ، والقحط كالسوس ينخر من حوله كل شيء .. جفت الزروع والضروع ، والينابيع والآبار ، هبط منسوب النهر ، ونفدت كل المؤن ... صرخات الناس واستغاثاتهم ذهبت سدى ، لم يهب لنجدتهم احد ، ولم يأبه بأصواتهم احد ، ولم يشر اليهم حتى المدياع ... زعم رجل ليس بذي شأن انه سمع في اذاعة لا تبث الا ليلا اشارة الى قحط الجزيرة ولكن احداً لم يصدقه ، اذ لم يسمع ذلك احد من ذوي الشأن ، كما ان هيئة دولية لم تعر اهتماما للامر ولم تقدم اية معونة ، او عروض للانقاذ .

— لم يعد من الهجرة بد ، فالهلاك المحتوم مصير كل من يبقى ، ولقد تكشفت كل البروق الخلبية الخداعة ، في كل مرة كانت تغمى الدنيا ، وتلبد السماء بالسحاب الرمادي الداكن ، متظاهرة بالعاصفة ثم ما تلبث ان تنقشع كالغيبس دون ان تترك وراءها قطرة واحدة .

— في البدء كان الانسان .. ثم كان القحط . والساح خلتو من الدخلاء والمتأمرين .. نزاهة النزال ميدان للفروسية الحقبة ، والساح مكشوف للشمس والافق والصحراء .. فارس لفارس .. وجها لوجه لا غدر ولا طعنات من الخلف . وانتصر الانسان واجه .. ناور .. هاجر .. لكنه انتصر وعاد . والقحط يسحب ذيوله ويتقلص ، والانسان يحاصره في اصقاع ضيقة وموحشة من هذا الكون الفسيح .. لكنه اليوم ، يعود من جديد ، يتسلل في غفلة من الزمن الاغبر ، من خلف الابواب .. من خلف الظهور كالانفال .. لم يعد للمبارزة شرف النزال الاول .. فالقدر والحكمة والتنظيم والخباع والمراوغة وامور اخرى غير معروفة تدخل الساحة ، تجرد الانسان من اسلحته ، ثم تفتاله بطبقة في الظهر الأعزل .

ليس من الهجرة بد ، واما قريب يتحرك القطار . جمعوا اطفالهم وابسط الحوائج وقرروا المغادرة . مسيرة يوم واحد ويجتازون صحراء

الظما والصهد الى السواحل العامرة بالخير والماء والثمرات يوم واحد ..
 نهار وليل فقط في هذا القطار السريع ، ويكونون على الشواطئ الخضرة ..
 بالامس كان الاسلاف يهاجرون على الاقدام ، أو على ظهور الابل .
 واليوم نهاجر على متن الآلة ابنة التقدم العملاق . نهاجر هربا من القحط
 ... مقدسة آيتها الآلة ، توفرين لنا سرعة الفرار من همجية القحط ..
 لكن المسافة بعيدة .. والدرب صحراوية قاسية ، نهار صيفي قانظ
 طويل .. ثم ليل كامل داخل هذه المصفحات الحديدية المغلقة . صحيح
 هناك محطات استراحة ، لكنها استراحات ضيقة ومعزولة وصحرارية
 لا تقنع النفوس الظماء ... على أية حال الرحلة مفروضة ، والخيار
 بين الهلاك والمخاطرة ، محاولة المكتوف الملقى في الماء أن يتجنب البلل .

الدرب تمتد ... والقطار ينهب الارض نهبا . وجوم الرجال
 الشاردين وهم يتأملون الرمال والشجيرات الصغيرة الشاحبة عبر النوافذ .
 وجوم تتخلله تمتامات النسوة ، أو أصوات بعض الاطفال .. أعين حسيرة
 تلتفت الى الخلف واجفة مدعورة ، ثم ما ان تتوارى الديار حتى تلتفت
 القلوب برجفة بين الأضلع المتقبضة ... عالم شيدناه بأيدينا ، ونعنا
 في ظلاله . رسمنا فيه ملامح أحلامنا .. وغدنا .. ومستقبل أطفالنا .
 وها نحن نغادره مكرهين الى حيث لا نعلم ما ينتظرنا من أذى أو
 مكروه .. أهو ضلال الزمن أم عسف المقادير ؟ ! ونحن ما دورنا في
 ذلك ؟ نحن أناسه البسطاء الطيبين ، ضنت علينا السماء بالامطار
 فداهمنا القحط .. تحملناه سنة وراء سنة .. سنوات طويلة عجفاء ..
 هلك من هلك من أبنائنا جوعا أو ضيقا أو كمدًا فهل من يلوم إذا نحن
 بحثنا عن خلاصنا عبر هذا المتاه الواسع الذي يسمونه الوطن .

القطار يلهث باعياء .. والمسافات الصحراوية تتوارى وتنسحب
 صفراء شاحبة مقفرة ، أشجيرات قزمية تلوح ثم تختفي ، والاستراحة
 الاولى تقترب . صوت المكبر يجلجل في القطار .. استعدوا للنزول ...
 ربع ساعة استراحة .. يتأهب الناس .. تلملم الامهات أبناءها تتدافع

الاكتاف والاقدام والاكف . صرخت امرأة بالم . . . حذاء عسكري ضخيم سحق قدمها . . . تجمعت احذية عسكرية كثيرة ، وقبعات ، وبذلات ، لم يدرك احد من أين جاءت بهذه الكثرة ، ملأت المحطة ، صبغتها باللون الزيتي المعروف ، حاصرت الناس بعيونها الثاقبة النفاذة ، بسرعة وتوجس نزل الناس ، بسرعة وتوجس صدعوا ، صوت المكبر يعلن قرب الانطلاق ، الجميع يتدافعون لاحتلال اماكنهم يتحرك القطار . . . اعولت امرأة . . . ابني . . . ابني . . . كانت قد فقدت واحدا من اطفالها .

رجل ١ : مستحيل . . . لقد كنت آخر من صعد ، ولم يبق على المحطة احد ابدا .

رجل ٢ : ابنك لم ينزل يا سيدتي ابخشي عنه جيدا في القطار .

عسكري : ربما لم تصطحبيه معك اصلا .

الام المفجوعة تبكي ، وتشهق بتشنج . . . لد الطفل يهدى من روعها واعدا بأنه سينزل في المحطة القادمة ، ويعود للبحث عنه .

ومن النوافذ . . . كانت الصحراء تلوح فافترة اشداقها لتبتلع الى جوفها السحيق كل شيء .

— منذ الازل والناس قسمان ، قاتل ومقتول ، تاكل ومتفرج وويل ، -نهما من الآخر . . . منذ ان قتل قابيل هابيل ، ثم دفنه واستراح ، نفوس كثيرة زهقت ، بعضها لسبب مفهوم ، وبعضها لاسباب غير مفهومة ، وبعض لغير ما سبب على الاطلاق . . . كان الانسان . وكان القحط يناجره والخوف ، والجوع ، والويلات ، واتسعت الدنيا ، تفقدت توحشت كتنين بمئة رأس فافترة الاشداق ، وما زال الانسان يواجه القحط ، والجوع والخوف والويلات . . . يقيم ، يهاجر ، طائعا او مختارا ، يفر من خوف الى خوف ، ومن ويل الى ويل ، ينبج . . . ثم ينتفض من خلال دماثة ليثار من قاتليه . ونحن - ابناء هذه الجزيرة -

ولِدنا فيها وعشنا وعاش أبأؤنا منذ الف عام .. مليون عام .. زرعوها وعمروها ، وشيدوا فيها المعابد ، والأضرحة التي احتوت اجداثهم ، لم نفكر في يوم اننا سنفادرها .. لم نفكر .. تعاقب علينا الاغريق والرومان والمغول والأتراك والاوروبيون ، وبقينا عليها .. ثم كان القحط . صبرنا على القتل . على الموت ، على الذبح ، ولم نصبر على الجوع . القحط مرعب ، ومفادرة الاوطان عار ، لكن الجوع كافر ، والصحراء لا تطرح غير الظما والقيظ ، والشواطىء الفناء قريبة ، مسافة يوم وليلة .. هي ايضا وطن .. كل مكان يدرا عنك الجوع ويمنحك الامن وطن .. لا ليس هذا تماما .. لكنه نزوح اضطرار ، حشجة الروح في الرمق الاخير بعد ان تجاوزت كل حدود الاحتمال .

المسافات الشاسعة تنقذ الى الورداء ، تبتعد خلف الظهور ، تدخل ارض الذكريات المضمخة بالحنين واللوعة ، والوقت يتدافع نحو الليل ، الغبش الداكن يتسلل من خلف النوافذ ، ينفض العتم والوحشة .. هدير القطار يتباطأ بصوت اجش ، يقترب من احدى المحطات ... يجلجل مكبر الصوت بينما القطار يترنح للوقوف ..

— استراحة دار البيضا ... نزول ربع ساعة .. ربع ساعة فقط :

تهب الاجساد المنهكة ، تنهض ، تحرك اعضاءها المسمرة .. اقدام تيبست كالخشب بفعل الجلوس ، واكتاف تعاني شيئا كالوخز ، يهبط الناس قطعانا قطعانا ، يأكلون ما تيسر ، يشرب بعضهم العصير والمياه الغازية ، في الاعين قلق غامض ، ووجوم ، ينتهي وقت الاستراحة ، يصعد الناس من جديد ، ينضم اليهم بعض الغرباء من المحطة ، يصعدون بحذر بالغ ، يجلس كل في مكانه ، يتفقدون اطفالهم يصرخ رجل وهو يعد ابناءه وقد اتسعت حدقاته على مداها :

— ومنال ابن منال ؟ !

بعد كل ابناءه مرة ومرة .. يبحثون عن منال . لا يجدونه . ينزل الاب المدهول الى المحطة من جديد ، يهتف ، ينادي ، يبحث لا يجد شيئا يضرب كفا بكف ، يمسك دموعه أن تطف من شدة القهر ، يوصي ابنه الاكبر ان يهتم باخوته ويقرر هو البقاء للبحث عن منال والحقاق بهم من جديد ..

« رحلة منكودة الطالع .. وليس للدنيا من امان .. من لم يمت بفعل الجوع مات بغيره . بخنجر مسموم في الظهر او برصاصة طائشة مجنونة ، او ربما فقيد في ساحة عامة ، او في محطة القطار ... في البدء كان الانسان ، وكانت الطبيعة المقفرة ، والكون الجامح ، المفلت من لجام الزمن ، آنسه الانسان ، روضه كما يروض سائس محنك مهرا جموحا ، قيده بسلاسل الزمن واخضعه لمشيئته .. الانسان فنان ، تحول الكون على يديه الى لوحات بديعة متقنة الصنع ، مدائن، وحدائق وبساتين ، لكنه كان يجمع احيانا ، تعتربه لحظات جنون ، فيقذف الانسان بالحجم والبراكين ، او يدكه بالزلازل ، وحين يشتد به الفيض يجرد له سيوف القحط تفتك به ، تجتث مقدرته على الصبر ، تنتزعه من جذوره ، وتقذف به في المتاه ، فتخلخل كيانه وتماسكه ، ترجعه الى عهد البربرية الاول ليعيد سيرته من جديد .. والبربرية استعداد فطري يطويه الانسان بين خفايا نفسه .. ثمة خلف إهاب متمدن ، وراء قشور الحضارة والمدنية الخارجية يقبع وحش بربري مسعور احمر العينين مستعد للانقضاض والهجوم دون ان يفهم على من ؟ ولماذا ؟ قد يفتك باخوته ، ربما بينيه ، ويدمر ما صنعه بيديه ، وبعرقه وجهده .

بمنذ ان قتل قايل هاييل وهذه الشهوة المجنونة ترقد في قرارة نسله المافون .. نحن جميعا ابناء قايل ، القاتل الماخوذ بالدم . هاييل الطيب لم يكن له نسل ، مات قبل ان ينجب ويمتدع نفسه من طبيبات الحياة، واليوم ما زلنا نلقى مصيره كل يوم ، ودون ان نعرف الاسباب ، قايل

قتل هابيل لسبب ، ونحن نتقتل في هذا الزمان الغافل بلا اسباب . .
ايها الكون الهمجي الجامح الى غير قرار ، المنفلت من لجام الزمن ،
اللاهث الى هوة الدمار والرعب ، كفاك جموحا ، وتبين مواقع اقدامك ،
فرائصك العاتية قبل ان يفوت الأوان .

موحش موحش هو الليل ، نوافذ القطار سوداء وكان ستائر كثيفة
قد اسدلت عليها . . نام الاطفال ، وانكفأت اعناق الامهات ، وظل الرجال
مسهدين يحرقون السجائر والذكريات ، وينتظرون الفجر والوصول الى
السواحل . . والقطار يغدو السير لكن الظلام كثيف ودامس ، وهذا
الليل اكثر من كل الليالي ممعن في الحلكة ولا تلوح فيه نجوم اللهم الا
ومضات بعيدة خافتة تلوح وتغيب ، ولا يكاد يتبينها المسافر المغبون .
لئن كانت ليلة شيخ المعرة عروسا من الزنج عليها قلائد من جمان(*) ،
فهذا الليل زنجي اسود ، مجنون بلا قلائد . . عملاق مدلج في دياجير
الخوف الدامس ، مثقل بخطايا البشر والآثام الكبيرة السبع ، ونحن
كالنمل ، كالحشرات نسعى على جثته ، نحمل القمح والطحالب من
مكان الى مكان ويفترس بعضنا بعضا في سبيل قشة ، أو حبة حنطة ،
ثم يأكلها ويزداد طمعا وجشعا .

رجل يخاطب رجلا في حلكة الليل الداكن :

— كم الساعة الآن ، ترى كم بقي من الوقت للفجر ؟ !

— لا ادري . لا احمل ساعة ، لكن يبدو ان الفجر ما زال بعيدا

أو ما ترى كثافة الظلام ؟ !

(*) إشارة الى بيت المري المعروف :

عليها قلائد من جمان

ليتي هذه عروس من الزنج

والقطار يغد في السير ... تترنج رؤس النائمين ، الغالبية
استسلمت للنوم ، الاطفال والنساء ومعظم الرجال ، لم يبق مسهتا الا
الجنود والشعراء ، حراس هذا الزمن الأغير ، أو ربما لصوصه وأفاقوه .
ناموا ولا تستيقظوا .. ما فاز الا النوم ، حكمتكم البليدة الضالة ، ايها
المستسلمون للرقاد .. للموت الآخر ، لماذا نجزع من الموت ونهرب منه ،
ونحن أكثر من موتى .. نسند رؤوسنا الى التكايا ، والمساند الجلدية ،
ونسلم اجفاننا للغياب .. نامي ايها الجبوع المضلة ، ايها القطعان ،
نامي حتى يمر هذا الكابوس ، نامي .. نامي ..

موحش هو الليل .. والرؤوس تتدلى نوما .. الرؤوس القليلة التي
كانت صاحبة تدخل ملكوت النوم ، واحدا تلو الآخر .. هاهم يفرقون
يبحرون بعيدا في عالم الغيبوبة العذب ، والقطار يمضي خبيا ، وأنت
وحدك مسهد الرأس والقلب والعينين ، تحمل نارك الداخلية بين جوانحك ،
وترقب الفجر وحدك ، تسترق النظر من خصاص النوافذ تتقرى
الشارات الضوئية الخافتة التي تلوح في الظلمة ، فلتشرب نخب هذه
الليلة .. نخب الجموع السادرة والفجر المرتقب ، نخب الشواطئ
السعيدة التي تقبض على الطرف الآخر للعالم ، ولتبحر في ملكوت
وحدتك المتفردة في ضلال هذا الليل البهيم .

ايها العاشق الوحيد المسهد الطرف .. ايها الحارس اليقظ ، الشاهد
على جرائم هذا الزمن الغافل ، ومنكراته ، مبارك سراك ، ومباركة بقلتك
فما دام في هذا الكون رجل واحد مستيقظ فلن يتاح لكل قوى الشر
مجتمعة أن تدرك مآربها .

القطار يمضي خبيا .. وجدوتك تزداد توهجا في القلب ، تزدهر ،
ترهف حواسك وجوارحك .. تتحول كل مسام جسدك الى حواس

مرهفة ، وأحاسيس تحتوى كل شيء . . . النيام من حولك ينفون والصمت المطبق يلف كل شيء . فجأة تنأهى الى مسامعك حركة مريبة ، بعيدة وخافتة في البدء ، لكنها تعلو وتقرب في النهاية تتبين أنها في المقطورة المجاورة ، اصوات ارتطام ، وجذب وشد واشياء تجر وتُسحب قسرا ، وصراخ حاد مخنوق كأنه صاعد من جوف بئر . . . ماذا تفعل؟! وانت وحدك ، والدنيا بعد منتصف الليل ، والناس من حولك نيام ، تتوجس تعتريك خيفة مبهمة . . . تنظر من النافذة محاولا ابعاد قلقك ، تلمح عجباً ، شهباً كثيرة تتساقط رَجْماً رَجْماً ، وشارة ضوئية ساطعة أشبه بدائرة يخترقها سهم ضوئي، تتوضع هكذا في عرض السماء ، وتزداد وضوحاً وتألّقاً حتى انها تبدو نسبياً قتامة الظلام . . . يداهمك فرح غامض خفي بينما الشارة تكبر وتتسع . تدق بكتنا يديك على جدران القطار المعدنية محاولا ايقاظ من حولك ، يتململون ثم يعودون الى النوم . . . لم يحن الوقت بعد ! لم يحن الوقت بعد ! ! تقول في سرك وتطوي جناحك على فرحتك الخفية ، « لكل شيء أجل وميقات » بينما الحركة في المقطورة المجاورة تجنح الى هدوء نسبي .

تصرّ العجلات المعدنية صرير حاقد متعب . أما آن ان ينتهي هذا الشوط ؟ ! اعني هذا الليل البهيم ! ! لقد تعبت عظام النائمين المدلجين في غفلاتهم ، واشرفت الرحلة على النهاية ، وها هي تبشير الفجر تباغت قطمان الظلام ، وتشرع في تبديدها .

— دورة الزمن هي ، نهار يعقبه ليل ، وليل يعقبه نهار ، نلث طوال الوقت . . . يسلمنا النهار الى الليل . . . ثم ننتظر ان يعقب الليل نهار . وها هي تبشير الفجر تلوح . . . ولكن اي فجر ترى ؟ اهو الفجر الذي نرجوه ومنتظره ام غبش خلبي كاذب ؟ آه لو كان حقيقياً ! ! كنت

اختصر الكون كله والعمر كله في لحظة واحدة اتنفس فيها ملء رئتي
ثم اموت بلا حسرات ...

يستيقظ النائمون تباعا ، يفركون أعينهم ، ويحركون عضلاتهم التي
لحق بها الخدر ، يلتفتون حولهم في شتى الاتجاهات ، ينظرون عبر
النوافذ وفي أعينهم سؤال واحد :

— متى نصل ؟ !

الاشجار الباسقة والمروج الخضر على الجانبين تنبىء بقرب الوصول
ولكن اي وصول ؟ ! لا يعرف احد ما ينتظره فالآتي رهينة الغيب واشياء
كثيرة تجري ونحن نائمون ... لاحت في الافق مشارف البنيان وتكاثفت
الاشجار والغابات والحقول والمروج .. اهي الشواطىء الموعودة ؟ !
بشرى أيها المسافرين ، طوبى لكم سلامة الوصول .

القطار يترنح في المحطة الاخيرة ، وصوت المكبر يهدر استعدادا جميعا
للنزول ... هذا آخر المطاف ..

بليلة صاحبة تجتاح الصفوف المتدافعة نحو الابواب ، صراخ
وحشرجات ، وعويل ، وتساؤلات مفهومة وغير مفهومة :

— اين اخي ؟

— ابني ، ولدي ، حبيبي !!!

— اين ابي ؟ !

— امي .. امي .. امي !!!

تبين الجميع ان هناك كثيرين اصبحوا في عداد المفقودين ولا يدري

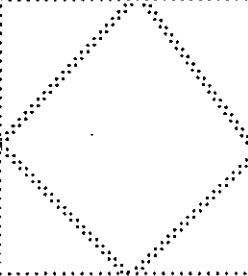
أحد كيف ؟ ولماذا ؟ عسس كثيرون يجتمعون في المحطة ، بعضهم نزل من القطار ، وبعض جاء من خارجه ، التقوا جميعا للتحقيق في الامر ، والبحث عن المفقودين .

الناس الثاقلون المفجوعون ينزلون من القطار الخالي بيأس مثنى وثلاث ورباع .. وعلى وجوههم دهشة ذاهلة مرعبة . بينما تفرق الآخرون بددا ، يبحثون عن مأوى لهم ، ولحيرتهم لم يجدوا امامهم سوى الانغال والغابات .. كانت الشواطئ الخضراء ما تزال بعيدة جدا .

القاهرة - ١٩٨٠

* * *

آفاق المعرفة



□ إطار لخطبة شاملة
تحقيقاً لوحدة ثقافية عكسيّة مبدعة

أديب اللحي

□ من اللقاء إلى الحوار
الثقاف العكسي - الأوروبي - الإفريقي

□ الثقافة والتمثافت المضادة:

« حول مؤتمرتونس
لكافت الغزو الثقاف الصهيوني »

حافظ الجمالي

□ مدخل إلى عالم

فؤاد الشايب

عيسى فتوح

□ معراج نذير العظمت

عبدالرحمن كمامي

□ مشروع حوليت

الثقافت الفلسطينية

إطار لخطتة شاملة
تحقيقاً لوحدتة ثقافية عرَبِيَّة مبدعَت

أديب المجدى

لاول مرة في تاريخ الثقافة العربية الحديث تقوم هيئة من رجال الثقافة والفكر العرب ، باجماع الدول العربية ، تتولى مهمة وضع خطة شاملة للثقافة العربية ، خطة تعنى بالمستقبل قدر عنايتها بالماضي والحاضر ، تستجلى اهداف الثقافة العربية ، وسائل نشرها ونموها ، في داخل الوطن العربي وخارجه .

هذه الهيئة هي نتاج لقاءات ومؤتمرات وندوات عديدة تمت خلال السنوات الستينات والسبعينات بين المثقفين العرب ، من خلال الاتحادات العربية للادباء والكتاب ، من خلال جامعة الدول العربية ، ثم من خلال المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم .

مختلف هذه اللقاءات كانت تنطلق من مسلمة ، هي أن الثقافة العربية ، وفي طليعتها اللغة العربية ، هما أول ما يجمع العرب ويوحد بينهم ، وأن توفير الشروط لعودة الوحدة العربية يبدأ بتنمية الثقافة العربية ، ودعم التعاون الثقافي بين أقطار العروبة حتى تصل الى مرحلة الانصهار في دولة واحدة تنهل من ينبوع ثقافي واحد وموحد ، وتعاود تألقها السابق في العالم الحديث .



في سنة ١٩٦٤ قام ميثاق الوحدة الثقافية العربية . ومن يقرأ مقدمات هذا الميثاق ، يجد أن الثقافة العربية « تضمن حقوق الانسان العربي في التعلم والحرية والكرامة والرفاهية » ، وأن الثقافة العربية تجعله قادرا على خدمة مجتمعه ، وأن هذه الثقافة « متمسكة بقيمها الروحية والاصيلة ، متطلعة الى اكتساب العلوم الحديثة وتطبيقاتها ، ساعية الى ابراز الشخصية العربية في المجال العالمي ، وقدرتها على الوقوف في وجه قوى الشر العالمية المتمثلة في الاستعمار والصهيونية ، واسهامها في اقرار السلام العالمي وقيامها بدورها التاريخي في بناء الحضارة الانسانية وتقدمها . »

منذ ذلك التاريخ ، اخذ الوعي العربي بتنمية الثقافة العربية ، يزداد وضوحا واتجاها في اطار « عمل عربي مشترك » ذي اتجاهات رئيسية اربعة :

— نشر اللغة العربية والكتابة العربية داخل الوطن العربي وخارجه
(المادة العاشرة ، والمادة الخامسة عشرة من الميثاق) .

— احياء التراث العربي الفكري والفني والمحافظة عليه ، ونشره وتيسيره
للطالبين ، والتعريف بالثقافة العربية الإسلامية (المادة الخامسة عشرة) .

— التعريف بشؤون الفكر العربي المعاصر ، وبالقضايا العربية الحاضرة ،
(المادة الخامسة عشرة) .

— رعاية الفنون وتنسيق جهود العاملين فيها ، وتبادل خبراتهم ،
وتسخير جميع وسائل الاعلام المختلفة لنشرها (المادة العشرون) .

ذلك ان تنمية الثقافة العربية داخل الوطن العربي ، هي شرط
لازم لانتشارها وازدهارها خارج حدوده ؛ والثقافة العربية لا تنمو في
الداخل الا اذا استمرت متواصلة ومتفاعلة مع الثقافات الاخرى ، اذ
« تعمل الدول العربية على توثيق صلة طلابها بالثقافة الادبية والعلمية
والفنية الحديثة ومساعدتهم على اتقان الوسائل اللغوية التي تمكنهم
من استيعاب هذه الثقافة » .

وقد كنا ، نحن المثقفين العرب ، مدركين منذ البداية ان تنمية
الثقافة العربية ، هي وضع خطة شاملة لهذه الثقافة ، نسميها بلغة
اليونسكو « السياسة الثقافية » ، وسميناها في احد اجتماعات المنظمة
العربية للتربية والثقافة والعلوم « استراتيجية الثقافة العربية » . هذه
الخطة يضمها المثقفون العرب أنفسهم ، اذ هم اولى بثقافتهم من سواهم ،
وهم اقدر من غيرهم على معرفة ابعاد هذه الثقافة وأهدافها وتطلعاتها،
عبر الزمان والمكان .

وحين دعت منظمة اليونسكو بعض المثقفين العرب ، وكنت انا من
بينهم ، الى لقاء في مدينة الحمامات بتونس سنة ١٩٧٨ ، طلبت اليها
هذه المنظمة ان نضع لها مشروعا يؤتمر تدعو اليه وزراء الثقافة العرب ،
ويصار فيه الى تحديد ابعاد « السياسة الثقافية العربية » ، لتقدمها

اليونسكو فيما بعد إلى المؤتمر العالمي للسياسات الثقافية (مؤتمر وزراء الثقافة العالمي الذي سيعقد في مكسيكو خلال شهر تموز من هذه السنة بدعوة من اليونسكو) ، إذ أن هذا المؤتمر (وهو الثاني من نوعه تنظمه اليونسكو منذ انشائها حتى الآن) يجب أن يتوصل إلى إبراز المشكلات المشتركة التي تواجه الثقافة لدى شعوب العالم ، والسبل التي تساعد على تحقيق تنمية شاملة تنطلق من التنمية الثقافية الخاصة بكل شعب .

في لقاء الحمامات استخلصنا جملة أفكار أقرت اليونسكو صلاحها منطلقا لكل بحث في تنمية الثقافة العربية . من هذه الأفكار :

١- أن العلاقة بين التنمية الثقافية والتنمية الاقتصادية والاجتماعية علاقة عضوية متكاملة .

٢- تأكيد ضرورة اسهام الثقافة العربية في بناء نظام ثقافي عالمي جديد .

٣- تأكيد الدور الهام الذي تقوم به الثقافة كسلاح في التحرر الشامل والتغير الاجتماعي في الوطن العربي .

٤- تأكيد ضرورة الاهتمام بالثقافة والعلم في هذه المرحلة التاريخية التي تمر بها الامة العربية ، حيث لم يعد بالإمكان أن تعيش أمة امة وأن يكون لها دور في المجتمع الانساني دون أن تستلهم قيمها وأسس تطورها من الثقافة والعلم .

٥- أن الثقافة العربية كانت دائما في عصور ازدهارها منفتحة على الثقافات العالمية أخذا وعطاء ، وهي الآن في مراحل نهضتها أشد ما تكون حاجة إلى استمرار هذا الانفتاح لتفيد وتستفيد .

٦- أن التنسيق والتعاون على الصعيد الدولي مطلب اساسي من مطالب الثقافة العربية ، يمنحها فاعلية في خارج الوطن العربي ، ويتيح لها

فرصا واسعة لتقديم الوجه الحضاري الانساني الى العالم في صورة صحيحة واقعية وصادقة ، بغية التفاعل الايجابي والفعال مع الثقافات العالمية المختلفة .

– ان التعاون بين منظمة اليونسكو والدول العربية يستطيع ان يحقق الانفتاح الثقافي المنشود والتعاون الدولي من اجل التقارب بين الشعوب، وصولا الى تنمية شاملة وسلام عالمي .

واخذت اليونسكو بما اقترخناه عليها من مشروع جدول أعمال المؤتمر الذي كانت تفكر بدعوة وزراء الثقافة العرب اليه في سنة ١٩٨٠ . وفي تقديرنا ان موضوعات هذا المشروع ما زالت جديرة باهتمام كافة المعنيين بمستقبل الثقافة العربية ، اقدمها فيما يلي بصيغة مكثفة :

الموضوع الاول : السياسات الثقافية والهوية الثقافية :

وتفرع عنه الموضوعات التالية :

١ – مقومات الهوية الثقافية العربية :

- الثابت والمتغير في الثقافة العربية .
- الثقافة وتغير القيم في الوطن العربي .
- الاهمية الخاصة لدور اللغة العربية في اثبات الهوية الثقافية .
- الثقافة العربية بين الوحدة والتنوع .
- آثار الاستعمار وطرق معالجة استلاب الشخصية .
- الحفاظ على الهوية الثقافية في الاراضي العربية التي تحتلها اسرائيل .

ب - الثقافة والتطوير الاجتماعي الشامل :

- الثقافة أداة تحرر وطني وانعتاق من التبعية .
- الثقافة أداة تقدم اجتماعي .

ج - البعد الانساني للثقافة العربية :

- الثقافة العربية في تعاملها مع ثقافات العالم
- القيم الثقافية العربية وحقوق الانسان .

الموضوع الثاني : السياسة الثقافية والتنمية الشاملة :

تفرع عنه جملة موضوعات أهمها :

ا - البعد الثقافي للتنمية :

- الاعلام والتنمية الثقافية .
- التربية والتنمية الثقافية .
- العلوم والتكنولوجيا والتنمية الثقافية .
- البيئة والتنمية الثقافية .

ب - المشاركة في الحياة الثقافية :

- تشجيع الخلق والابداع .
- ديمقراطية الحياة الثقافية وحق الجماهير في الاستفادة من النشاط الثقافي .

ج - وسائل النشاط الثقافي :

- التخطيط الثقافي .
- التمويل .
- مراكز البحوث والدراسات .

- التشريعات وحماية الابداع .
- الهياكل والمؤسسات الثقافية .
- تكوين البنى الثقافية .
- الانتاج الثقافي .
- نشر الثقافة وتعميمها .

الموضوع الثالث : التعاون الثقافي ، تنبثق عنه الموضوعات الكبرى التالية:

- آفاق ومجالات التنسيق الثقافي بين الدول العربية.
- التعاون الثقافي العربي الافريقي .
- التعاون الثقافي العربي الآسيوي .
- التعاون الثقافي العربي مع دول العالم الثالث .
- التعاون الثقافي العربي مع سائر دول العالم .
- اسهام الثقافة العربية في اقامة نظام ثقافي عالمي جديد .



بيد ان لقاء الحمامات لم يكن اللقاء الوحيد الذي يتيح فيه للمثقفين العرب ان يركزوا على الموضوعات الاساسية الخاصة بالثقافة العربية . فالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم اولت هذه الموضوعات اهتماما جادا ، متواصلا ، منهجيا ان صح التعبير ، استهدف امرين كبيرين معا : اثارة وعي المثقفين العرب بالمشكلات الفعلية التي تواجه ثقافة امتهم ، وبلورة اطار كبير تتوضح فيه أهداف الثقافة العربية ، وصلتها الوثيقة بأية تنمية يمكن ان تتم في الوطن العربي ، ووسائل نمو هذه الثقافة محليا وعالميا . ذلكم هو مفهوم الخطة الشاملة للثقافة العربية .

وكان المؤتمر الاول لوزراء الثقافة العرب الذي تم في عمان (كانون الاول ١٩٧٦) من أهم ما قامت به المنظمة العربية في هذا المجال . اذ

أعدت له ورقة عمل ممتازة ، وجرت فيه مناقشات بلغت مستوى عاليا من التعمق والتحليل والجدية ، وتمخض المؤتمر عن حدثين كبيرين هما : بيان عمان ، والمقررات الاولى لوزراء الثقافة العرب .

أما بيان عمان فيمكن القول انه وثيقة ثقافية قومية تضمنت اهتمامات المثقفين العرب الاولى ، وتطلعاتهم ، ورؤيتهم لثقافتهم في إطارها العربي والعالمي . ومن الخير ان نثبت هنا النقاط الأساسية فيه :

ان المؤتمر الاول للوزراء العرب المسؤولين عن الشؤون الثقافية .. إيمانا منه بأن ثقافة الأمة هي قوام شخصيتها ، والمعبر الاصيل عن تطلعاتها وامانيها ، والدعامة الحقيقية لوحدها الشاملة ، وان الحفاظ على تراثها وانتقاله بين اجيالها المتعاقبة وحثه ، هو ضمان تماسك الأمة ونهوضها بدورها الابداعي في مجال الحضارة الانسانية ،

وادراكا منه لاهمية وضع سياسة ثقافية عربية موحدة ، واضحة الاهداف والمعالم والوسائل تلتزم بها الدول العربية ،

وتاكيدا منه لضرورة دعم مجالات التعاون الثقافي العربي ، وتحقيق تنسيق متكامل شامل تعزيزا للوحدة الثقافية العربية .

واقناعا منه بالدور الحضاري الرائد لثقافة الأمة العربية ، وقدرتها على متابعة رسالتها لخير البشرية واغناء الفكر الانساني ، وتعميق التواصل بينها وبين الثقافات الاخرى ،

وتقديرًا منه لمسؤولية الأمة العربية في تقديم الثقافة العربية والتراث الاسلامي ونشر اللغة العربية بين المسلمين وخاصة في افريقيا وآسيا ، يعلن :

١ - تصميم الامة العربية على القضاء على جميع آثار الاستلاب الثقافي والغزو الفكري الظاهر والمستتر ، اللذين تعرضت لهما في الماضي عن طريق الغزوات الاستعمارية ، ودفع الصور الجديدة من الاستعمار ، وخاصة الاستعمار الاستيطاني الصهيوني ، ويتمثل هذا الاستلاب الثقافي، فيما يتمثل ، في محاولة فرض مظاهر الاغتراب اللغوي والفكري والثقافي - محاولة طمس معالم الشخصية الثقافية العربية - محاولة اغراق المجتمع العربي بمواد مناهضة للقيم الثقافية الصحيحة - العمل على تزيف التاريخ العربي والاسلامي - العمل على تفتير البناء الاجتماعي والسكاني - العبث بالملكات الثقافية وانتهاك المقدسات الدينية .

٢ - اهمية التدعيم والتطوير للدور الحضاري العالمي للامة العربية لخير البشرية ، واستعادة الرقعة الثقافية التي افقدها اياها الاستعمار خلال القرون الاخيرة .

٣ - ضرورة وضع سياسة ثقافية عربية موحدة ، تكون سبيلا للتنمية الثقافية وركيزة لخطة عامة للتنمية الشاملة .

٤ - ضرورة تحقيق التكامل والتنسيق بين عمل اجهزة الثقافة واجهزة التعليم واجهزة الاعلام في الاقطار العربية لضمان مزيد من فاعلية العمل الثقافي وتوسيع نطاق الخدمات الثقافية للمواطنين ، اسهاما في تكوين المواطن العربي تكوينا سليما معاصرا نابعا من اصول عروبه وقيمه الدينية .

٥ - تأكيد اعتبار الثقافة حقا لجميع المواطنين ، مرادفا لحقهم في التعليم ولحقوقهم السياسية والاجتماعية .

٦ - وجوب العمل على تعميم استعمال اللغة العربية لغة للتعليم في جميع مراحلها وبجميع أنواعه ، وفي البحث العلمي ، ووسائل الاعلام والثقافة ، باعتبار ان اللغة القومية هي أهم دعامة للوحدة ، وهي الوعاء الصحيح للثقافة الاصلية للامة ، وان أصالة التفكير العلمي لا تترسخ في الامة الا من خلال لفتها .

٧ - شجب ما تقوم به سلطات الاحتلال الصهيوني في فلسطين من عدوان على الثقافة العربية هناك في جميع مظاهرها ، وتأكيد الحرص على التمكين للثقافة العربية في المناطق العربية المحتلة من القيام بدورها ، وتادية رسالتها .

٨ - حرص الامة العربية على تعاون حكوماتها وأجهزتها المتعددة لتحقيق ما تضمنه هذا البيان وما تتضمنه توصيات هذا المؤتمر عن طريق برامج ومشروعات محددة تنهض بها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، وفق خطة طويلة المدى ، بالإضافة الى جهود الحكومات العربية في اطار من التنسيق المتكامل .

اما المقررات الاولى للمؤتمر فقد تركزت على جملة توصيات تخص اهداف السياسة الثقافية واساليب التخطيط الثقافي ، وم* كالات تمويل العمل الثقافي والتعاون الثقافي في مجاليه العربي والدولي ، وتنسيق التشريعات الثقافية العربية . وابرز القرار الاول ان من اهداف السياسة الثقافية في الوطن العربي :

- ترسيخ المفهوم الصحيح للثقافة العربية ، من حيث هي ثقافة قومية وانسانية معا ، تستند الى اصول الامة العربية وتراثها وتستوعب في الوقت نفسه تيارات العصر ، وتدرك آفاقه ، وتشارك مشاركة ايجابية متفتحة ، اخذا وعطاء ، في تقدم الحضارة العالمية .

— تكوين الشخصية المتكاملة للانسان العربي ، وتهيئته للوعي بتراته والانتماء لامته وقيمها الاصلية ، واعداده لمعيشة عصره واستيعاب معطيات الفكر الحديث والثقافات العالمية ، وصقل فكره ووجدانه ليكون قوة فعالة في التقدم الحضاري لوطنه .

— تحقيق ديمقراطية الثقافة بالوسائل التي تكفل شيوعها وانتشارها بين المواطنين .



يمكن القول أن المؤتمر العربي الاول للثقافة قد فتح الباب امام طرح موضوع الحاجة الملحة الى وضع خطة شاملة للثقافة العربية . ذلك انه اذا كان من اهداف الثقافة العربية ان ترسخ مفاهيمها القومية وان تؤكد دور اللغة العربية في توحيد اقطار العروبة ، فانه لا بد من ان توجه الجهود في طريق منهجية ، ومن منظور شامل ومتكامل .

بذلك تكونت لجنة في اطار المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، تضم عددا من رجال الثقافة والفكر في الوطن العربي ، مهمتها وضع هذه الخطة الشاملة ، انطلاقا من الواقع الثقافي العربي بكل ما فيه من مفارقات واشكالات ، وتفاوت في مستويات الوعي الثقافي .

وقد تحتاج اللجنة الى حوالي ثلاث سنوات لانجاز مهمتها . وكان اول اجتماع لها في الكويت في الفترة من ١٣ - ١٥ نيسان ١٩٨٢ ، برئاسة الاستاذ عبد العزيز حسين وزير الدولة الكويتي رئيس المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب .

في هذا الاجتماع الاول ، الذي كان لي شرف المشاركة فيه ، تمكنت اللجنة من استجلاء امور هامة لعملها ، وفي طليعتها : تحديد المنطلقات النظرية للتخطيط الشامل (الاهداف - الاسس - وسائل التخطيط وطرائقه) ، وبالتالي تحديد ميادين التخطيط الثقافي .

في مجال الاهداف والاسس اكدت اللجنة ان التخطيط الشامل يهدف الى ان تسهم الثقافة العربية :

١ - في تطوير البنى الاجتماعية والاقتصادية والفكرية في الوطن العربي بوصفها ركن البناء الحضاري .

٢ - في تنمية وابرار الهوية الحضارية العربية والاسلامية والمحافظة عليها ، بوصف الثقافة مستودع الاصاله .

٣ - في التحرر القومي الشامل ، بوصف الثقافة عنصر دفاع ورفض للتبعية والاستلاب والتشويه .

٤ - في العطاء الحضاري الانساني ، بوصف الثقافة مصدر ابداع وعطاء وتعاون حضاري عالمي .

٥ - في اغناء شخصية المواطن العربي وتأكيد وعيه بحريته وكرامته وفي قدرته على مواكبة التطور الانساني المعاصر والمشاركة فيه .

ان هذه الاهداف الكبرى تستند بدورها على اسس متلازمة ومتكاملة ينبغي ان يقوم عليها هذا التخطيط . وفي تقديرنا ان هذه الاسس وان تكن معروفة او مسلما بها ، الا ان ثمة لزوما لترديدها والتأكيد عليها اذ هي ماتزال تفتقر الى المزيد من الانجاز الفعلي ، وهو امر تحصل مسؤوليته الاولى انظمة الحكم العربية ، بوصفها قائمة على امور المجتمع العربي .

من هذه الاسس :

□ حق الانسان العربي في الثقافة اي في اكتسابها الكامل وفي حرية التعبير عنها والتمتع بها . فالانسان هو غاية كل تخطيط تنموي والحرية شرط من شروط الانسانية .

□ مسؤولية الدولة والمؤسسات الشعبية في التخطيط الثقافي الشامل وفي توفير جميع الوسائل للفتح الثقافي الحر .

□ ان عملية التخطيط التنموي عملية شمولية . والثقافة بعد اساسي من ابعاد التنمية الشاملة وعلى علاقة جدلية وعضوية مع نواحي التنمية الاخرى ولا يتم تطوير البنى الاجتماعية والاقتصادية الا بالاستناد الى تخطيط ثقافي جذري يحدد الاهداف المستقبلية للامة .

□ ديمقراطية الثقافة اي المشاركة الجماهيرية الواسعة في مجالي انتاج الثقافة والافادة منها باعتبار ان الثقافة للجميع وانها الزاد الروحي والفكري .

□ قومية الثقافة بمعنى ان الثقافة العربية واحدة موحدة . وان لغتها هي العربية . وان التنوع هو احد ابعاد الفنى والخصب فيها .

□ ان التراث الحضاري الاسلامي ركن اساسي في تكوين الثقافة العربية ونبع اصيل فيها عقيدة وقيما وتشريعا وهو الذي يميزها عن غيرها من الحضارات الانسانية . فالعروبة والاسلام متلازمان متكاملان :

□ عصرنة الثقافة بمعنى تحديد الثابت والمتغير في الثقافة العربية الحالية . واستيعاب تيارات العصر ومواكبة تحولاته عربيا وعالميا في التحديث والانفتاح مع الحفاظ على الاصاله والهوية الحضارية العربية والقيم الروحية والفكرية للامة .

□ عالمية الثقافة بمعنى ان تتفاعل مع الثقافات الاخرى وتشارك المشاركة الايجابية المتفحطة اخذا وعطاء في تقدم الحضارة الانسانية وذلك من تقاليد الفكر العربي .

□ انسانية الثقافة بمعنى ان للثقافة العربية خصائص ومثلا وقيما وافاقا انسانية متفردة قادرة على الاسهام في اقامة نظام ثقافي دولي جديد .

وسائل التخطيط الثقافي الشامل وطرائقه :

□ الطاقات والخبرات البشرية اي العناصر المبدعة والمنظمة للعمل الثقافي وتاهيلها لتحقيق اهداف التخطيط الشامل .

□ الوسط الملائم للابداع الثقافي وذلك يعني حرية الابداع وخرية التعبير عنه وتأمين العيش الكريم لصانعي الثقافة ومنظمتهم وتمكينهم من الاتصال بالجماهير واقامة وسائل الاتصال معهم والعمل على التوعية الجماهيرية الواسعة .

□ توفير التمويل للمشاريع الثقافية وسواء للمبدع او للتنظيم او للوسائل . وترشيد الانفاق .

□ توفير مرافق النشر الثقافي ولوازمه ودعم الصناعات الثقافية وذلك عن طريق ايجادها ورعايتها وازالة العقبات امامها .

□ التشريع : بمعنى وضع التشريعات اللازمة لضمان حقوق المبدعين وتوفير الحرية والكرامة الانسانية لهم. ووصلهم بالجمهور وتوسيع نطاق النشر الثقافي وازالة العقبات امام التدفق الثقافي المحلي والعربي واعادة النظر على اساس ذلك كله في التشريعات القائمة والمعوقة .

□ البحث الثقافي بمعنى ان يستند التخطيط والتشريع الى بحوث علمية تهدف الى تنظير الظواهر الثقافية وتقويم جدواها التنموية ومراقبة تطوراتها بالبيانات الاحصائية واليسير الثقافي المتصل والمراجعة الدورية ورصد تفاعلها مع العصر واتفاقها مع الاهداف العليا القومية والانسانية ، وان يرفق ذلك بأقامة مراكز التوثيق الثقافي .

□ التخطيط المرحلي بان تقوم السياسات الثقافية للبلاد المختلفة على اساس ادراك واع للاهداف العليا ، منظم في المراحل الزمنية ، مراعاة للمعطيات الاقليمية ، في اطار الوحدة الثقافية .

□ التكامل الثقافي القطري بتحقيق الانسجام في المخططات الثقافية بين قطاعات الانتاج والتنظيم الثقافي بعضها مع بعض واقامة الصلة الوثيقة بين السياسات الثقافية والنشاطات الاخرى من تنمية وتربوية واعلامية وغيرها .

□ السعي الى تحقيق الامن الثقافي في صورته المادية والمعنوية وذلك عن طريق :

(أ) امتلاك وتطوير الصناعة الثقافية على اختلاف فروعها من خلال عمل عربي مشترك ومتعاون تحقيقا لاستقلالية ووحدة الانتاج الثقافي العربي وضمان التحكم القومي في البنى الاساسية لانتاج ادوات الثقافة ماديا واجتماعيا واتاحتها بالوفرة العادلة للسوق العربية الواسعة والقادرة .

(ب) المحافظة على الخصوصية الحضارية ومقاومة التبعية الثقافية ومحاولات التشويه والاستلاب الثقافي بكل صوره .

□ تحقيق التكافل القومي الثقافي بوضع الامكانات العربية من مادية وفكرية في خدمة الحركة الثقافية الشاملة وعناصرها ووسائلها في الوطن العربي وتبادل الدعم المادي والفكري بشكل منتظم بين مختلف الاقطار العربية تنمية لشخصية الانسان العربي وتحقيقا لوحدة الثقافة وقومية المعرفة .

□ تنشيط التآخي والتفاعل الثقافي الحيوي العميق مع البلاد الإسلامية وبخاصة الأفريقية تأكيدا وتدعima للصلة الوثيقة والأصيلة بين الثقافة العربية والحضارة الإسلامية الجامعة بالإضافة إلى تطوير الصلات الثقافية مع البلدان الأفريقية والآسيوية والأمريكية اللاتينية تأكيدا للتمايز الثقافي والاستقلال الفكري في دول العالم الثالث .

□ الحرص على التعاون الثقافي الدولي المتكافئ باقامة الصلات الثقافية مع الدول الأخرى ومع المؤسسات الثقافية الأجنبية والدولية .

ويكتمل المشروع بتحديد ميادين التخطيط الثقافي . وقد حددت اللجنة هذه الميادين الكبرى (دون الدخول في التفاصيل الدقيقة) بعشرة ميادين ، تقدمها فيما يلي :

أولا - التراث (الصورة المادية للهوية الحضارية . مستودع القيم . وثائق الإصالة) .

١ - الآثار (تنقيب ، صيانة ، حفظ ، حماية ، تسجيل ، استرداد ، دراسة ، توعية ، تشريع) .

٢ - المتاحف (الأثرية ، الاجتماعية ، التراثية ، التاريخية ، الفنية ...) .

٣ - المخطوطات (الجمع ، الحفظ ، الفهرسة ، التصوير ، الدراسة والتحقيق ، النشر بالمبادلة ، نشرات التعريف) .

٤ - الوثائق (الجمع ، الحفظ ، الفهرسة) .

٥ - التراث الشعبي (جمع ، حفظ ، تسجيل ، دراسة ...) أمثال مقولات ، حكايات ، أغاني .

٦ - حماية التراث المهدد (في المناطق المحتلة وفي مناطق المشاريع الحديثة والمناطق المتخلفة) . رصد عمليات التزييف والسلب والانتهاك للتراث .

٧ - استرداد التراث المسلوب .

٨ - رعاية المشاريع التراثية الكبرى : اعادة كتابة التاريخ ، موسوعة الفنون العربية الاسلامية ، موسوعة الحضارة العربية الاسلامية ، تاريخ العلوم العربية الاسلامية (...) .

٩ - مخطط المدن الاسلامية .

ثانيا : الفنون (ربطها بالحياة العامة - وباستلهاام التراث بوصفها التعبير الابداعي عن الموقف الجمالي للامة) .

١ - الفنون التشكيلية (النحت ، الرسم ، الزخرفة) .

٢ - المسرح .

٣ - السينما .

٤ - الفنون الشعبية (اغان ، موسيقى ، زجل ، تطريز ، رسم ، رقص ، تزيين ، مجسمات ...) .

٥ - الموسيقى .

٦ - الفنون التطبيقية : التصوير الآلي ، الاخراج ، الخزف ، التزيين (ديكور) ، الحفر ، الزجاجيات .

٧ - الخط العربي .

٨ - النرز المعمارية .

٩ - الفنون الحرفية .

١٠ - تخطيط وتزيين المدن .

ثالثا - اللغة :

- ١ - المصطلحات (العلمية ، الفنية ، الاثرية ، الحقوقية ، العسكرية ، التقنية ...) ومعجمها .
- ٢ - التعريب (في الادارة ، في التعليم ، في العلوم ،) والترجمة (الادبية ، العلمية) .
- ٣ - المعاجم اللغوية .
- ٤ - المعاجم اللغوية .
- ٥ - تفصيح اللغة المحكية (تقريب اللهجات) .
- ٦ - سلامة الكتابة المنشورة .

رابعا - الادب :

- ١ - الاعمال الادبية .
- المرح ، الشعر ، القصة ، الرواية ، المقالة ، النقد ، الدراسة الادبية .
- ٢ - ادب الاطفال .
- ٣ - الكتابة لوسائل الاعلام (السينما ، الاذاعة ، التلفزيون) .
- ٤ - النشر الادبي ومؤسساته (دور النشر ، مجلات ، مؤسسات حكومية) .

خامسا - الفكر الاسلامي :

- ١ - مدى استلهام المجتمع لقيمه ونظمه وتشريعاته من مبادئ الاسلام وروحه .
- ٢ - مدى اسهام الفكر الاسلامي المعاصر في مواجهة قضايا العصر ومشكلاته وتحدياته .

٣ - مدى استشراف الفكر الاسلامي للمستقبل الافضل وارتياد آفاقه.

سادسا - التثقيف العلمي :

- ١ - الوسائل العلمية (ادوات ، مخابر ، مراجع ، ... الخ)
والتكنولوجيا الحديثة .
- ٢ - التمويل العلمي .
- ٣ - الخبرات العلمية (اعدادها ، نسبتها ، جهات تخرجها) .
- ٤ - مراكز البحوث .
- ٥ - النشر العلمي .

سابعا - الانتاج الفكري :

- ١ - السياسي .
- ٢ - القومي .
- ٣ - التاريخي .
- ٤ - الفقهي والقانوني .
- ٥ - الفلسفي .
- ٦ - الاجتماعي .
- ٧ - الاقتصادي .

ثامنا - وسائل الاعلام والاتصال :

- ١ - الصحافة . (الصحف ، الدوريات) .
- ٢ - الاذاعة .
- ٣ - الكتاب العربي .
- ٤ - وكالات الانباء (المقروءة والمسموعة) .
- ٥ - الفيديو والكاسيت .

٦ - الإعمار الصناعية .

تاسعا - التعاون الثقافي :

١ - تعاون الاجهزة الثقافية المحلية بعضها مع بعض (تربية وتعليم
اعلام ، ثقافة) .

٢ - التعاون العربي (المنظمة العربية ، المعاهدات الثنائية ، المؤتمرات
الدولية للتنسيق) .

الغاء عقبات التدفق الثقافي من تشريع وعملة صعبة وجمارك
ورقابة ...

٣ - التعاون الاسلامي (من خلال مختلف المؤسسات ، المعاهدات
الثنائية ، المعونات الثقافية للدول المحتاجة) .

٤ - التعاون الدولي (اليونسكو ، الاتفاقات الثنائية) .

٥ - دعم اللغة العربية في الخارج (معاهد الدراسات العربية والاسلامية
في العالم) .

(العمل ضمن الجاليات) .

٦ - المراكز الثقافية العربية والاسلامية في العالم .

٧ - الاعلام الثقافي العربي الخارجي .

٨ - الترجمة الى اللغات الاجنبية (من الانتاج الادبي والفني ...) .

٩ - نشاطات المنظمة العربية للتربية خارجيا : مع اليونسكو وغيره .

لجانها ومشاريعها المشتركة مع المنظمات الاخرى العالمية .

ملحق بالمجالات :

عاشرا - وسائل العمل الثقافي :

١ - الجامعات العلمية والجمعيات العلمية الاختصاصية (الرسمية
والاهلية) .

- ٢ - الجمعيات والمؤسسات الثقافية (الادبية ، الفنية ، النسائية ...)
الرسمية والاهلية .
- ٣ - المؤتمرات والندوات (ادبية ، علمية ، صحفية ، اعلامية ، فنية) .
- ٤ - الاتحادات (الصحفية ، الاعلامية ، التمثيل ، الموسيقى ، الآداب ،
الجامعات ، المسرح ...) .
- ٥ - المراكز الثقافية (الثابتة والمتنقلة) .
- ٦ - الجوائز الثقافية (المسابقات ، جوائز التشجيع ، جوائز التكريم)
- ٧ - المهرجانات والاعياد والايام التذكارية والاسابيع الثقافية .
- ٨ - الجامعات والمعاهد العليا .
- ٩ - التمويل (الحكومي ، الاهلي ، المساعدات الدولية) .
- ١٠ - الدوريات الثقافية .
- ١١ - التخطيط والمشاريع المرحلية .
- ١٢ - الخبرات البشرية (تكثير اعدادها ، دعمها المتصل) هجرة الكفاءات .
- ١٣ - الفرق الثقافية (المسرحية ، الموسيقية) .
- ١٤ - التشريع (توحيد ، استكمال ...) بما في ذلك حقوق الملكية الثقافية
وحماية الانتاج الثقافي ودعمه وتسهيل حركته وتدفعه ...)
- ١٥ - المعارض الثقافية (فنون ، آثار ، كتب ...) .
- ١٦ - مؤسسات التأليف والترجمة والنشر .
- ١٧ - مؤسسات التوزيع والتبادل .
- ١٨ - معاجم المطبوعات والمنشورات والمترجمات .
- ١٩ - مشاريع الموسوعات العربية (العامة والتخصصة ، الرسمية
والاهلية) .
- ٢٠ - المكتبات العامة .
- ٢١ - النوادي الثقافية .
- ٢٢ - الكتاب الاجنبي والدورية الاجنبية .

- ٢٣- توفير الاجهزة للعمل الثقافي . (تدريبيها المتصل) (عملها ليس الانتاج ولا التقليد) .
- ٢٤- توفير المكان للنشاطات الثقافية (مسارح ، صالات عرض ، صالات قراءة) .
- ٢٥- الاستفادة من المسجد واحياء دوره الثقافي .
- ٢٦- الرحلات (الثقافية ، الكشفية ، الرياضية) والحركة السياحية .

تلكم هي الصورة المكثفة لبدء العمل في وضع الخطة الشاملة للثقافة العربية . مرة اخرى اقول ان المهمة ليست سهلة ، وان تكن ضرورية ، وهي تتطلب اسهامات عديدة ، سيقوم بها في مستقبل قريب عدد كبير من رجال الثقافة والفكر العربي ، اذ يتولى كل فريق منهم اعداد بحث او اكثر في مختلف الميادين التي يراد لها ان تكون موضوع ايضاح ، تمهيدا لعملية التخطيط الثقافي الذي يجب ان يشمل الوطن العربي كله . وسنعود الى هذا الموضوع في وقت آخر .

من اللقاء إلى الحوار

أديب اللامي

في شهر آذار الماضي ، شاركت في أول حوار حقيقي يقوم بين الثقافات العربية والاوروبية والافريقية . تم اللقاء في مدينة آفينون الفرنسية ، واستمر اسبوعا كاملا ، شارك فيه حوالي / ١٨٠ / من كبار مثقفي ومفكري أوروبا والعالم العربي والقارة الافريقية ، كانت مشاركتهم في الحوار بصفتهم الثقافية الشخصية ، ذلك أن الاتجاه الذي أجمع عليه المشاركون هو ابعاد هذا اللقاء وما سيتلوه من لقاءات مقبلة عن أية مداخلة حكومية أو رسمية حرصا على تحقيق أكبر قدر من الجدوى لما ينشده هؤلاء المثقفون الذين يعبرون عن الهويات الثقافية لحضارات بلادهم ، كي تعاود التواصل فيما بينها

بروح التقدير المتبادل ، بروح الأخذ والغطاء ، أملا في أن يؤول الحوار الى اللقاء ، ويؤول اللقاء الى ظهور نظام دولي جديد ، لا مكان فيه للتمايز والاستعلاء ، يقوم على احترام متبادل لثقافات شعوب العالم كلها ، يعمل على ترسيخ التعاون الجاد بين الدول في كافة المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، ليضمن للانسانية سلاما حقيقيا ، قوامه العدل والمساواة والعمل البناء المشترك .



ان اختلال التوازن القائم في عالم اليوم ، ليس اختلالا اقتصاديا وحسب ، بل هو في الوقت ذاته اختلال في التوازن الثقافي . ومنذ أن بدأت محاولات الحوار بين الشمال والجنوب ، بين أوروبا والبلاد العربية ، فقد كان طابعها الاول اقتصاديا ، واستمر كذلك طوال السنوات العشر التي جرى فيها هذا الحوار ، وما يزال ، دون أن يؤدي الى أية نتيجة . كان ، على الاصح ، حديثا ذاتيا أكثر مما كان حوارا ، ذلك أن أي حوار يفترض وجود اثنين لكل منهما وجهة نظر خاصة ، وأن على كليهما أن يستمع الى الآخر ، وأن يحاول فهمه .

هذا الحوار الاقتصادي بين الشمال والجنوب أشاع نوعا من الاعتقاد أن البحث عن تغيير شامل أمر متعذر ، مالم يقم على أسس من التفكير المتكامل ينطلق من احترام الهويات الثقافية ، يأخذ في

الحساب عوامل التجانس على مختلف المستويات والروابط النوعية التي تربط بين قارات وشعوب مختلفة •

لماذا اختيرت المجموعات الثقافية العربية والاوربية والافريقية لتكون أول مجموعات ينعقد بينها مثل هذا اللقاء ؟

ان ثمة تاريخا ، بل ماضيا طويلا مشتركا بين هذه الثقافات • هناك شبكة من العلاقات المتعددة الاشكال نشأت خلال العصور ونمت بين هذه المناطق الثلاث المتجاورة ، ولم تكن هذه العلاقات ايجابية دوما ، بل رافقتها مجابهات تجاوزت الميادين الاقتصادية ، وأبرزت تباينات كبيرة بينها ، واذا كان على هذه الشعوب أن تبرز تناقضاتها فمن المحقق أنها لن تتمكن من تأسيس أي لون من ألوان التعاون الجاد بينها • من هنا ظهرت مقولة أن اللقاء الذي يمكن أن تبدأ به هذه المجموعات هو لقاء ثقافي ، لأن لكل منها هويتها الثقافية التي تجلت في قيم ومثل وابداعات فكرية وفنية وفلسفية ، تتفاعل فيما بينها ، وتتعاون على اشاعة التفاهم المتبادل تمهيدا لبناء عالم يتوفر فيه مزيد من الاستجابة لأمني البشر وكرامتهم وتحسين أحوالهم ، وحاجتهم الى توكيد ذاتياتهم دون أن تسحق احداها الأخرى •



كان لقاء آفينيون اذن استجابة لشعور بضرورة تركيز التفكير على المشكلات الناشئة عن اعادة توازن التبادل بين الثقافات بصورة متدرجة ، ومشكلات العوامل الثقافية للتنمية ، وضرورة منحها اهتماما جديرا بها وبمكاتها .

وتركز تفكير المشاركين في اللقاء على أربعة موضوعات رئيسية ، أقدم لها عرضا موجزا فيما يلي :

الموضوع الاول : الثقافات وانماط التنمية الاقتصادية :

ساد الاعتقاد خلال زمن طويل بإمكان تطبيق نمط وحيد في التنمية في الشمال والجنوب على حد سواء ، ومعروف أن هذا النمط قد نشأ في الشمال ، في عالم حضاري ذي خصائص ، وهو يرتكز على مفهومي الكسب والازدهار الاقتصادي ، كما يرتكز على التقدم العلمي والتكنولوجي الهادف الى زيادة وتجويد الانتاج الصناعي . ان هذا النمط من التنمية قد اتخذ موقف اللامبالاة من كل نظام ثقافي شامل . وقد أتاح للشمال ، بسبب اطراد تزايد الحاجات والانتاج ، أن يحقق في النصف الثاني من هذا القرن استثمارات صناعية هائلة ومعدلات تنمية كبيرة ، تخللتها هزات اجتماعية نرى اليوم تجلياتها بوضوح كبير لدى الاجيال الناشئة في بلاد الغرب .

ولأن هذا المفهوم من التنمية يقوم على تحقيق التطور الاقتصادي

العالمي من خلال بعد واحد ، فقد أخذ الشمال يصنف المناطق المختلفة من العالم تبعا لقدرة كل منها على تحقيق هذا المفهوم . وتتج عن ذلك شعور لدى الشمال بتفوقه واستعلائه ، وتختلف لدى الجنوب عن مواكبة مسيرة الشمال ، وازداد التفاوت بين الفريقين ، وكان طبيعيا جدا أن يعترف الشمال بأن ما صح له في مجال تنميته الاقتصادية ليس بالضرورة صحيحا للجنوب ، وتأكد لكافة العالمين بالواقع الانساني ، أن نقل النمط الاقتصادي بصورة حرفية من الشمال الى الجنوب أمر غير معقول بل وعقيم .

وقد تجلت الآن نتائج هذا النمط من التنمية في تسلطه واستغلاله، في تقصيره عن فهم التطور الانساني ، في نوع من الافلاس الاقتصادي الذي يشهد به كبار الاقتصاديين الغربيين . ذلك أنه بعد أن مر في مرحلة نشوة النمو والسيطرة ، أخذ اليوم يواجه هزات داخلية عنيفة ، تركز بصورة أزمة عالمية من الكساد والتضخم المالي والبطالة المتزايدة ، وأدى ذلك بالبداهة الى أن الجنوب أخذت تتنابه الشكوك العميقة في صلاح نمط الشمال ، بل ان الشمال نفسه هو الآن في حال تساؤل كبير عن مصير النمط الذي أبدعه لنفسه .

ولئن صح أن النمط الاقتصادي يركز على أسس ثقافية ، ويهدف بالتالي الى صياغة حضارة ، فقد أصبح ضروريا أن ندرس هذا الوضع، وأن نحلل العوامل السلبية التي جعلت النمط الاقتصادي الشمالي يثير

مثل هذه الهزات ، ويؤدي الى هذه الصراعات بين الثقافات المختلفة ، كما أصبح ضروريا أن نتلمس من خلال هذا الواقع ، السبيل الى تحقيق نماذج مختلفة من التنمية الاقتصادية ، تضع في حسابها الاختلافات الحضارية ، والتنوع الثقافي .

الموضوع الثاني : الإدراك الحسي للعالم وتصوره :

ان علاقة الانسان بالكون وبالعصر الذي يعيش فيه هي علاقة بالغة التعقيد . واذ حدثت الثورة العلمية في القرن التاسع عشر وامتدت متنامية في القرن العشرين ، فقد ظن بعض الناس أن باستطاعة العقل والعلم أن يفسرا كل ما في العالم ، وأن يقدموا الاجوبة المقنعة عن كل ما في هذا الكون ، وأن الاعتقاد الديني آخذ في الانحسار ، بل في التلاشي . بيد أن الواقع لم يؤيد هذا الموقف ، ذلك أن الحضارة العربية وحضارات أفريقيا هي حضارات نشأت وئمت على قيم ومثل دينية وروحية ، بل ان حضارة أوروبا نفسها منعمة بالقيم الدينية ، وأن نزعة الايمان الديني لم يقو على مقاومتها نمو العلم .

قالواقع الديني أمر لا يستطيع العلم قهره ، وهو رابطة بين البشر ليس من اليسير فصلها عن حياتهم اليومية ، كما أنه موجود وجودا كاملا في ثقافة جميع الشعوب .

ومن المناسب أن يعنى اللقاء الثقافي بين أوروبا والعرب وأفريقيا بدراسة هذا الموضوع ، وأن يستبين أبعاد الواقع الديني

في حياة الجماعات المعاصرة والمقبلة ، وأن يتصدى الى تصورات هذه انجماعات في ميادين الخلق والابداع الفني والتعبير الثقافي •

الموضوع الثالث : مستقبل اللقاء بين الثقافات :

تبين من مختلف المناقشات التي جرت في ندوات سابقة ضمت مثقفين من أوروبا والبلاد العربية وأفريقيا ، أن التصورات والافكار التي تمثلها كل حضارة بالنسبة الى نفسها والى الحضارات الاخرى ، تتحكم الى حد بعيد بامكانات الحوار بين الثقافات ، وتسهم في تثبيت أو تضخيم وجوه التباين بين المجالات الثقافية : الشمال - الجنوب ، والجنوب - الجنوب ، والشمال - الشمال •

وقد لوحظ أن النماذج النمطية المتوارثة ، وهي نماذج تتسم بالثبات على وجه العموم ، تعمل على تقليص محاولات التجديد والابداع ، وأنها تنزع بحكم التعريف الى الاستمرار وفق الصيغة التي تكونت عليها ، وربما كانت هذه النماذج عائقا داخل الثقافة الواحدة ذاتها ، اضافة الى احتمال ان تكون عائقا لاتصال ثقافة بأخرى •

يضاف الى ذلك ان التواصل الثقافي أصبح يعتمد على وسائل الاعلام الجماهيرية التي لا يجهل أحد سلطانها وأبعاد تأثيرها •

ومعلوم أن النمو الكبير الذي حققته وسائل الاتصال بفضل التقدم التكنولوجي ينزع الى زيادة الاختلال في التوازن في مجال التبادل الثقافي بين الشمال والجنوب ، اذ أن الشمال هو المصدر للإنتاج الثقافي ، والجنوب هو المستهلك له . ولا يجوز أن يستمر مثل هذا الاختلال الذي يتنافى ومفهوم الاتصال .

الى ذلك تضاف ظاهرة تنوع اللغات في هذه الثقافات . ولئن كانت لكل ثقافة لغتها ، فإن من الطبيعي أن تعنى بالحفاظ عليها وعلى تطويرها ، بيد أنه لا بدّ من معالجة موضوع وسائل نقل الثقافة من لغة الى أخرى .

الموضوع الرابع : اعادة التوازن بين تطلعات المستقبل والطاقات الكامنة .

لم يعد خافيا على أحد أن تملك المعارف التي تستلزمها التنمية المعتمدة على الذات والتي يمكن نقلها من حضارة الى أخرى ، لم يعد وقتا على قسم معين من العالم . ثمة عدد من العلوم تطورت في العالم العربي وحققت انجازات لا تقل جدية وتاجا عما حققته مثيلاتها في بلاد الشمال . وهناك أشكال رائعة من المهارات والمعلومات التقليدية المتوافرة في أفريقيا تبدو ملائمة لأوضاع هذه القارة ، وهي جديرة بأن تكون موضوع تأمل وافادة من قبل أهل الشمال أصحاب الحضارة التكنولوجية .

من الضروري اذن أن نعمل على اكتشاف أنماط جديدة

من التبادل ، وأن نقضي على ظاهرة « احتكار » الشمال لمعارفه العلمية والتكنولوجية ، وانغلاقه عليها كما لو أنها هي الترياق ، وأن نتوصل الى جعل الشمال يفتح أبوابه أمام خبرات ومهارات وابداعات الجنوب ليفيد هو منها ، وأن يتيح نقل معارفه التكنولوجية الى الجنوب ، مع العمل على تكييفها وفق واقع وظروف الجنوب ، وبمعنى آخر ان ما هو مطلوب الآن هو أن نتقل من مفهوم النقل الاتقائي الى مفهوم التبادل والتواصل والمشاركة ، يؤدي في المستقبل الى نوع من التضامن الفعال بين شركاء متساوين في القدرة على الابتكار والابداع والانجاز .

مطلوب اذن من المثقفين في أوروبا والبلاد العربية وأفريقيا أن يتدارسوا تحديد الأساليب الجديدة التي يحسن تطبيقها في القطاعات الرئيسية للتنمية ، ويكون ذلك :

— بتحديد نسق جديد من التقدم ، ونماذج جديدة للبحث ، تخص كل منطقة من هذه المناطق الحضارية ، مثلما تخص العلاقات فيما بينها .

— بوضع برامج للبحوث المشتركة ، بأكلاف مشتركة ، تضم عددا من الباحثين من الشمال والجنوب ، يعملون معا على انجاز هذه البرامج بروح التعاون المتكافئ .

— باقامة شبكات للتعاون العلمي على أساس التعاون بين

المناطق ، تختص بالبحوث العلمية وتطبيقاتها العملية وما تستتبعه من تكوين أطر المدربين والخبراء .

— باعتماد خطة لتوفير المنح الدراسية اللازمة على مدى سنوات طويلة ، ترمي الى تأهيل واعداد المتخصصين لقطاعات مستقبلية ، ويشارك فيها الباحثون من الشمال والجنوب معا لتحقيق برامج علمية وتكنولوجية مشتركة قابلة للتطبيق في الجنوب والشمال على حد سواء . وسترحب المنظمات الدولية بمثل هذه المبادرات ، وتقدم لها كل دعم ممكن .

— بمعرفة التصورات التي تحملها عن المستقبل كل من أوروبا والبلاد العربية وأفريقيا كيف تتصور كل منها مستقبلها ومستقبل الانسانية ؟ ما هي الأخطار التي تخشاها كل منها ؟ ما هي استعداداتها للتعاون مع الثقافات الأخرى ؟

ان حلّ الاشكالات الخاصة بالتنمية الاقتصادية سيكون عاملا مسيراً للقاء الثقافي ؛ هذا ما كان يقال ، الأصح هو العكس . ان حل التناقضات والاشكالات الخاصة بالتنمية الاقتصادية ، وتيسير عقد حوار بناء بين البلاد المتقدمة وبلاد العالم الثالث ، والسعي الى ايجاد صيغة جديدة لنظام عالمي تذوب فيه التفاوتات والفوارق ، ان هذا كله يبدأ باللقاء الثقافي ، يبدأ بحوار جدي على صعيد التفاهم الثقافي ، وتنوير الرأي العام في كل مجموعة حضارية ،

ورفع وعي الناس بحيث يدركون أن التنمية الاقتصادية ليست غاية بذاتها ، وأن الحياة ليست عملية استهلاكية ومسابقة في الترف والرخاء المادي ، فليس بالخبز وحده يحيا الانسان .

لا بدّ لوسائل الاعلام الجماهيرية من أن تخدم الجهود التي تبذلها جماعات المثقفين في أوروبا والعالم العربي وأفريقيا من أجل تقريب الشعوب من بعضها ، واقامة علاقات جديدة بينها تتسم بالاحترام الحقيقي المتبادل ، بالتقدير الثقافي الفعلي ؛ ذلك أن لكل ثقافة من القيم والابداعات ما يؤهلها لأن تتبوأ مكانها في المجموعة العالمية .

الى هذا النزوع رمى اللقاء الثقافي بين أوروبا والبلاد العربية وأفريقيا . والى هذا النزوع يرمي المؤتمر العالمي للسياسات الثقافية الذي تنظمه اليونسكو للمرة الثانية منذ اثني عشر عاما . هل سننوصل الى نتائج مشخصة ومشجعة ؟ ان المستقبل هو القادر على الاجابة . وما على ذوي النوايا الطيبة الا أن يستمروا في هذا السبيل .

الثقافة والثقافة المضادة: « حول مؤتمر تونس لمكافحة الغزو الثقافي الصهيوني »

حافظ الجمالي

منذ عدة أشهر مضت ، وربما كان ذلك في أواخر ايلول عام ١٩٨١ ، دعي نفر من المثقفين العرب لحضور مؤتمر لنشر الثقافة العربية الاسلامية، خارج الوطن العربي ، عقد في تونس بدعوة من المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة ، او ما اطلق عليه اسم الاليسكو او الانيسكو العربي .

وكنت احضر المؤتمر ، وجلساته والكلمات والمناقشات التي تدور حول هذه الكلمات . وكان من الواضح ان هناك حزاما امنيا ، افريقيا ، يجب كسبه للثقافة العربية والاسلامية ، حتى لا تستقر فيه ثقافة اخرى مناهضة ، تكيد للعرب ، وتتخذ من مقاييرتها وحدها سبيلا لمعاداة العرب

والمسلمين . ولأعترف أن هذه هي المرة الأولى التي أشهد فيها مؤتمرا يتخذ من المستقبل بعدا له ، ويحاول أن يصوغه ، طبقا للمصالح العربية ، من غير أن يكون لهذه المصالح الا هدف واحد ، هو الوقوف معا ضد « الأفوياء المستعمرين » الذين لن يألوا جهدا في الكيد للعرب والأفريقيين معا . وبالجملة فان الهدف مثالي ، أو قل انه نوع من الحلف الثقافي المشترك ، الذي يؤلف بين القلوب ، وينشئ قاعدة مشتركة للأمن المتبادل .

ومع ذلك فقد خطر ببالي ، كما يكون قد خطر في بال الكثيرين . بعض الأفكار العامة : ترى هل حالت وحدة الدين واللغة والثقافة والعادات والتقاليد والقيم العامة دون أن يكيد العرب بعضهم لبعض أشد الكيد ، ودون أن يكون بينهم من العدا ما لا يوازيه أي عداة آخر حتى مع الأعداء ، الأعداء اللدودين حقا ؟ وكل هذا مع ما هو معروف من وحدة العرق العربي ، أو الدم العربي ، أو ، على أقل تقدير ، ما نسميه بالشعور بالقرابة بين مختلف سكان الاقطار العربية . فكيف إذا لم يوجد هذا الشعور ، ولا رفته وحدة العقيدة والعادات والتقاليد ، والمصالح المشتركة ، والقيم الواحدة ؟ ولو ذهبنا الى أبعد من ذلك وقلنا ان الجهود نجحت ، وعزب هذا الحزام الأفريقي ، ترى ايبكون ذلك ضمانا جديا ضد اختلاف المصالح ، وتسرب العداة بفعل الاستعمار نفسه ، وهو الأقوى ، والأغنى ، والأقدر على التلاعب بمصائر الامم ؟

وخاطر آخر كان مائلا دوما ، هو أننا نريد نشر الثقافة العربية الإسلامية ، خارج الوطن العربي . فهل قمنا بما يجب لنشر هذه داخل الوطن العربي ، وما هو متوسط الثقافة التراثية التي يملكها العرب انفسهم ؟ وهل هم كثيرون أولئك الذين يعرفون أسماء رائعة ، خالدة ، كابي العلاء المعري ، والمتنبي ، وأبي الفرج الأصفهاني ، وابن خلدون ؟ وحتى في اطار الدين نفسه ، وهو الصق الأشياء بالانسان العادي ، ايمكن

القول : ان متوسط الثقافة الدينية بين العرب والمسلمين جملة ، شيء يرتفع به الرأس حقا ؟ اوليس هنالك هبوط عام لا في الثقافة الدينية وحدها ، بل في كل صور الحياة الثقافية ؟ اولان نجد ان الكثيرين من كتابنا المشهورين ، يلحنون اذا تكلموا ، ويخطئون في القواعد اذا كتبوا ، ويرتكبون من الهفوات اللغوية ما يزيد عن الحصر ؟

اما الخاطر الثالث فانه ذاك الذي يتصل بمستوى الثقافة العربية ، لا في متوسطها العام ، بل في قممها ، تري ايمكن ان تقارن بين من يدرس في جامعاتنا العربية ، ومستواه العلمي والثقافي ، وبين من يدرس في الجامعات الغربية ؟ ولماذا يؤثر الافريقي الدراسة في بلادنا ، اذا كان يعرف - وهو يعرف بالتأكيد - ان جامعاتنا دون جامعات الغرب ، جديده ، ومستوى ، وافتقا ؟ افيكون ضعف ثقافتنا اغراء للبلدء من البلاد المتخلفة ، فيفدوا اليها ، ويفضلوها على غيرها ؟ وهل نطمح ان يكون لمثل هذا النوع من المثقفين القليلي الحظ من المواهب ، اثر ما في حياة شعوبهم ، فيحبوها لها دون غيرها ؟ اولا يفكر الانسان ان الاذكياء وحدهم ، ذوي الثقافة العالية ، هم الاقدر فعلا على التأثير في ذويهم ، وضمهم الى الركب العربي ؟ ولماذا بود هؤلاء الدراسة في بلادنا ، اذا يسرت لهم الدراسة في جامعات اخرى عظيمة السمعة ؟ وحتى الشباب العرب انفسهم ، هل منهم واحد يخير بين الدراسة في قطره ، والدراسة في الخارج ، ويؤثر الاولى على الثانية ؟ ولئن فعل ، فماذا نقول فيه ؟

* * *

لم يكن الذي قلته حتى الان مجرد استطراد ، بل هو - فيما اخال - ذو صلة مباشرة بمؤتمر تونس الذي انعقد بين ٢٩ آذار و ٣ نيسان ١٩٨٢ . ان هذا المؤتمر الذي رعاه مؤتمر الشعب العربي ، الذي يستحق اكبر الشكر على ما يبذل من جهد ، ويقوم به من نشاط ، قد انعقد تحت عنوان : مكافحة الغزو الثقافي الصهيوني . وككل مؤتمر ، كان فيه قيل وقال . فقد قدم الباحثون ما يكاد ان يكون خمسين بحثا ، ناقش كلا

منها مناقش واحد ، او اثنان ، انضاف اليهم آخرون ، خلال المناقشات الحرة العامة ، وكانت المواضيع تتراوح بين البحث عن خصائص الشخصية العربية ، وبين استعراض صور مقاومة الشعب المصري لاتفاقات كامب ديفيد ، مروراً بمقومات الفكر الصهيوني ، ثم بصور التضييق على الثقافة القومية والتاريخية للأمة العربية في فلسطين، وخلص من ذلك الى ما دعي ببيان تونس الذي اعتبر وكأنه يلخص كل الابحاث التي استعرضت ، والمناقشات التي علق بها على هذه الابحاث ، على حين ان الصلة ضئيلة حقاً، بين هذا البيان، وبين الافكار التي دار حولها البحث في جو المؤتمر .

وفي هذه المرة ايضا ، ثارت في نفسي بعض الخواطر حول موضوع المؤتمر ، هذا المؤتمر الذي اعتبر انه يتقاضى أجره كاملاً ، بغض النظر عن النتائج التي ينتهي اليها ، اذ ان اجتماع المفكرين العرب والمثقفين ، وتبادل الآراء بينهم ، هو في ذاته هدف سام ، حتى ليتمكن التفكير بهذه المناسبة بمؤتمرات من غير موضوع ، اذا احتاج الامر الى بعض المبالغة .

من هذه الخواطر اولا : اني تساءلت بيني وبين نفسي عن هذا الغزو الثقافي ، ماهو ، وما مداه ؟ وهل هو موجود حقاً او غير موجود ؟ ذلك اني - ولست بالقارئ الكسول - فلما قرأت كتباً ثقافية للصهاينة ، كالروايات الطويلة ، او القصص الكثيرة ، او الشعر ، او الفلسفة . ولم اعرف الا عرضاً ان ابنة موشي دايان كاتبة روايات . واقول ابنته لانني نسيت اسمها . فماذا عسى ان يخيفنا من غزو ثقافي صهيوني ؟ ترى هل فكر القيمين على المؤتمر ان هذا الغزو آت - لا ريب فيه - بعد تطبيع العلاقات بين مصر واسرائيل ؟

ولأقل هنا اني ترجمت ثلاثة كتب ، لمفكرين صهاينة : اثنان منها يتحدثان عن المخابرات الاسرائيلية (احدهما بعنوان اسرائيل ذات اليد الطويلة . والثاني بعنوان : المخابرات الاسرائيلية بين عامي ١٩١٧ و ١٩٧٧) والثالث كتاب على صورة اسئلة وجهت الى الزعيم الصهيوني المعروف

غولدلمان ، وأجوبته عنها ، وهو بعنوان ، المفارقة اليهودية . إلا أن هذه الترجمات لم تكن للنشر بين الناس ، بل لتوضع بين أيدي المسؤولين السوريين بالدرجة الاولى ، ولا احسب انها ستداع على الناس ، بأي وجه . وعندما افكر باننا كنا نجهل كل شيء عن اسرائيل قبل ان تقوم المنظمات الفلسطينية ، باصدار نشراتها المختلفة حول ما في اسرائيل من منظمات ، وشخصيات ، واحزاب ، ومؤسسات . . . الخ ، وبأن كل كتاب او مصور يشير الى اسرائيل ، كان يمنع ، ولا ينشر الا بعد حذف ما يتعلق باسرائيل هذه ، فلا ريب اني اتساءل : اينمكن ان نعاني من الغزو الثقافي الصهيوني ، وقد احطنا انفسنا بكل صور هذه المناعة ، او بكل هذه المضادات الاسرائيلية ؟

ومن الممكن ، على كل حال ، ان تغزونا الثقافة الصهيونية ، من خلال ما ينشر منها ، او باقلام كتابها ، باللغات الحية المعروفة ، كالفرنسية ، والانجليزية . ومن حسن حظ الصهاينة ، وسوء حظنا نحن ، ان بينهم بل ليس بينهم الا من يتكلم احدي اللغتين : الفرنسية ، او الانجليزية ، او الاثنتين معا ، هذا فضلا عن انهم مواطنون في اكثر الدول قوة وحيوية وبينهم دوما من يتحدث بلغات العالم المتقدم كله ، ويستطيع ان يكتب بها بسهولة ، فضلا عما لاصحابنا هؤلاء من هيمنة على دور النشر ، والصحافة ، ووسائل الاعلام . ولكن هل في وسعنا الا نفزي عندئذ بهذه الثقافة ، اذا هي جاءتنا مطبوعة في دور النشر العالمية ؟ واذا غزتنا ، متسربة اليها بصورة متكررة ، او ملتوية ، فما هي قيمة غزوها ، بالنسبة الى مانقرؤه للمؤلفين الفرنسيين او الانجليز او الامريكيين ؟ لاشك ان هنالك اعلاما كبارا من اصل يهودي ، مثل فرويد ، وماركس ، واینشتاين ولئن كان الثاني من هؤلاء غير صهيوني ، فان اهتماماته ، على كل حال ، ليست قليلة ، بالمصير اليهودي . اما اینشتاين ، فلدي الف مبرر للاعتقاد بأنه صهيوني ، لقد كان صديقا كبيرا لوايزمان ، زعيم الصهيونية العالمية حتى قبل عام ١٩١٤ ، وكذلك قل في فرويد . ، ذلك انه عاش اضطهاد النازية لابناء ملته ، ومضى به الاهتمام ، بالمصير اليهودي ، الى الدرجة التي حلل فيها - من بعيد - نفسية موسى (في كتابه موسى وعقيدة

التوحيد الالهي) ، ولا بد انه كان صهيونيا من نوع ما ، وليكن من نوع نبيل ، في احسن الفرضيات . بل ان هنالك ادباء مشاهير ، يهودا ، مثل كافكا الذي لا يظن الاديب العربي انه اديب حقا ما لم يقرأه ، وهو الذي لاتزال تتساءل مجلاتنا ، عما اذا كان صهيونيا ام لا ، مع ان الحديث عن انتمائه الصهيوني ثابت ، لامجال للريب فيه (١) . واخيرا ماذا نقول عن هوتسرل زعيم الفينومينولوجيا ، اليهودي الذي هجر الى امريكا في العهد النازي ، وفصل من وظيفته في الجامعة ، بكتاب من عميد الكلية هيدجر ، الفيلسوف الفينومولوجي ايضا ؟

ان هؤلاء رجال اعلام ، يقرؤهم كل مثقف في العالم ، بل لابد له من قراءة بعضهم على الاقل ، فهل نعتبر ان هذا غزو ثقافي صهيوني ؟ لئن كان الامر كذلك ، فان الوباء عالمي ، ولا مجال للنجاة منه . غير اني احسب اني لن اتاثر بالفكر الصهيوني ، مهما قرأت منه ، بالمرجة التي يقال معها ! اني مغزو فكريا بالصهاينة ، بل كيف يمكن ان يصبح الامر كذلك ، او كيف يمكن ان تحملني قراءة بعض الكتب الصهيونية او اليهودية المؤلف ، على ان انسى دمي ولحمي وامتي وعروبتني ؟ والثن وجد بيننا من يتاثر بما يقرأ الى مثل هذه الدرجة ، فان الوطن ليس بحاجة اليه ، وليذهب الى الشيطان كما يقولون .

وعلى كل حال فان قراءة الثقافة الاجنبية ، والاطلاع عليها تجعلنا نعرف اعلاما اجانب ، بعدد كبير جدا ، افلا يثبت في ذهننا غير الصهيوني منها ؟ ولماذا لانخاف اذن من المفكرين والكتاب الفرنسيين او الانجليز او الامريكيين او الالمان ؟

وهب آخر الامر ان الثقافة الصهيونية تنفرد في قوتها على الغزو ... ترى لماذا يسهل غزونا ، ان كنا محصنين ثقافيا ضد هذا الغزو ؟ ان

(١) انظر ترجمة كافكا ، في Dictionnaire des auteurs من منشورات ال S. E. D. E. في باريس ، في الجزء الثاني ، اذ جاء فيها انه صهيوني عنيف .

القضية الثقافية تخضع لمثل قانون الاواني المستطرقة ، حيث لا يمكن إيقاف تسرب الماء من انبوب كثير الماء ، الى انبوب اخر ، قليله ، الا بعد وصول الماء في كليهما الى مستوى واحد ، ومادامنا ضعفاء ثقافيا ، فلا بد ان نأخذ من غير ان نعطي ، وقديما كان اجدادنا قد اخذوا في مرحلة اولي ، واعطوا الكثير في مرحلة ثانية . وعندما ترجمت آثار اليونانيين ، واطلع عليها الناس ، وتأثروا بها ، لم يقل احد ! انهم غزوا ثقافيا ، فلماذا يقال لنا مثل ذلك ؟ اولا ينشأ هذا من ان العرب اخذوا ما اخذوه من موقع القوة ، وناخذ نحن ما نأخذ من موقع الضعف ، بل اننا سناخذ لمدة طويلة ، دون ان نعطي . ذلك ان العرب ورثوا تراث امم مئنة تقريبا ، كالليونان ، او امم صارت اليهم السيادة عليها كالفرس ، او امم ضعيفة القوة بالنسبة اليهم ، كالهند انذاك . اما العرب المعاصرون فانهم تجاه تراث متنام لامم حية ، متسارعة النمو ، فلا يكادون يأخذون منه شيئا ، حتى يكون قد زاد اكثر بكثير مما اخذوا منه ، بحيث ان الفارق الحضاري يزداد كبرا مع الايام ، ولا ينقص ، فكيف السبيل الى ارتقاء عربي يتمثل الحضارة بسرعة ، اولا ، ثم يشارك في صنعها بعد ذلك؟ وهل الظروف التي نحن فيها ، اي الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، تهيئنا بعض الشيء لمثل هذا الوضع السعيد ؟

وخاطر آخر : ما هو حقا ذلك الغزو الثقافي الصهيوني ؟ اهو علم ؟ ان العلم عالمي الاصل ، ولا يشارك فيه الصهاينة الا بنسبة جزئية لاتعد شيئا في حساب الانتاج العلمي . فهل نقف ضد العلم الصهيوني المصدر ؟ وماذا لو تعلمناه ؟ انخطيء في ذلك ام نصيب ؟ ام هو ثقافة عامة كالفلسفة والادب اي هذا النوع من المعرفة التي قد تكيف مواقف الانسان ، وتطورها باتجاه حب الصهاينة او الاستعداد لتقبلهم ؟ لا ريب ان تعبير الثقافة الصهيونية يتضمن هذا المعنى بالدرجة الاولى . ولكن هل يرد في الاذهان ان بين العرب من يقبل على قراءات ادبية او فلسفية من اصل صهيوني ، ستجعله اقل فاقلا رفضا لوجود الصهيونية ، واكثر فاكثرا تقبلا لها ؟

اني اشير الى هذا المعنى الاخير ، لاذكر حديث مدرسة عراقية ، في المؤتمر ، في تعليق لها على بحث الدكتور هاني الراهب حول الفكر

الصهيوني واصوله لدى آباءه الروحانيين . فقد جاء في كلامها تحليل لمجموعة زوايا صهيونية حديثة ، تقابل كلها بين العربي ، الكسول ، القدر ، الكاره للنظام ، الجاهل ، الذي لا يتعاون مع السلطة ، حتى لا تقاذ ممتلكاته من الخطر المحيق بها ، وبين اليهودي ، الجاد ، النظيف ، المحب للنظام ، المتعلم ، الطيب ، المتعاون مع السلطة الشرعية التي اختارها هو بنفسه . فهل يمكن ان نقرا مثل هذا الادب ، ويتضاءل في الوقت نفسه رفضنا للصهيونية ؟

وتابعت الدكتورة حياة الجاسم حديثها ، فاقترحت ان تعلم اللغسة العبرية في كل الجامعات العربية ، وان تنشأ مؤسسة لترجمة عيون الآثار الادبية الصهيونية . وعندما انتهت من حديثها ، وخلا بفضنا الى بعض سألها : انك تدعين لزبد من الغزو الثقافي في مؤتمر لمكافحة هذا الغزو . فكيف تنسجم دعوتك مع موضوع المؤتمر ؟ فقالت : لماذا لا يابى الصهاينة الترجمة لنا ، والتعريف باعمالنا ، ولماذا لا يخشوننا كما نخشاهم ؟ ولم اجب عن هذه الملاحظة ، اذ يجب الا يجهل احد ، ان من كان وراهه اكبر امبريالية عالمية ، فانه لا يخشى احدا خشية عسكرية . ولكن الا يمكن ان تكون الغلبة الثقافية للأدنى في التفوق العسكري ، على الاعظم درجة فيه . فلم لا يخشى الصهاينة غزونا الذي يساعدوننا عليه بترجماتهم ؟ لا ريب ان السبب هو اننا مقصرون ، حتى في المستوى الثقافي . ولكن هل معنى ذلك ان البنى الهشة هشة في كل شيء ؟ او لا يمكن ان يكون هنالك قلب قوي في جسد مريض ؟ وعلى كل حال ، فان هذه الملاحظة بمنجملها ، تشدنا الى معاناة اختلاف وجهات النظر من النقيض الى النقيض .

وملاحظة اخرى تاتي هنا في مكانها : ترى هل يمكن القول ان نجاح الصهاينة في مشاريعهم ، يدين بوجوده واستمراره الى ثقافتهم العلمية والادبية والفلسفية ، تماما كما الغرب مدين بتفوقه الى جملة ثقافته ؟ ولئن صح ذلك ، افيكون من الخير ان نقبل هذا الغزو الثقافي ، ام ان نقف ضده ؟ ان حاضرننا او واقمنا العربي في كل بلادنا هس جدا ، حامل ،

خائر ، لا يشد أزر الصديق ، ولا يدفع غائلة العدو . أفلا يعبر هذا الواقع عن مستوى ثقافي هش ، هو الاصل فيما نعايه من هذا الواقع ؟ وما دامت الثقافة الصهيونية (ذات الاصل والمصادر الغربية ، وتكاد ان تكون بلا اضافات صهيونية ، اي انها هي الاخرى مستوردة) تثبت الوجود الصهيوني ، وتقاوم خصومه ، أفلا يكون من اسباب نجاحنا في مشاريعنا ان نقبل غزو هذه الثقافة ، تماما كما تقبل غزو الثقافة الغربية ؟ ولماذا نرحب بهذه ، وتتنكر لتلك ؟ اليست الاولى بنت الثانية ؟ واذا صحت ملاحظتنا ، أفلا تكون الدعوة اصح ، عندما تكون دعوة الى مزيد من الفوز ، لا الى الوقوف ضده ؟ وليس من نافلة القول ان اهم صور الثقافة الصهيونية ، اي العلم وتقنياته ، ليست شيئا آخر غير الثقافة الغربية نفسها ، منتقصة بعض الشيء من بعض النواحي ؟

لاشك ان الذي يقصد من مقاومة الثقافة الصهيونية ليس التنكر للعلم ولا للتقنية ، اللذين تمتلكهما ، بل هو التنكر للثقافة الاخرى ، اي الادبية والفلسفية ، والخوف من ان تقدم لنا اسرائيل صورا من ثقافتها تفرينا بها وتحملنا على تقبل وجهات النظر التي تيسر قبولها بيننا ، اذ قد يوجد بين الجهلة وانصاف المتعلمين من يخدع بسهولة ، ويقبل من عدوه ما لم يكن يقبله ، لو قدر لثقافته ان تنتشر . وحقا لئن كان بين مواطنينا من تنطلي عليه هذه الخدعة ، او يقبل هذا الاغراء ، فعلى مواطنينا والدنيا كلها السلام . لكني اتساءل : اليس نشر الثقافة الصهيونية ايسر على اسرائيل في قطاع غزة والضفة الغربية ، منه عندنا ؟ ولماذا لم يرد هذا كله الا الى غربة اكبر ، وعداد اكثر من قبل شعبنا هناك ، ضد هذا العدو ، على الرغم مما يفعله لتعزيز ثقافته ، ومن حريته التامة في نشرها ، والتضييق على غيرها ؟

* * *

ولكن هذه الملاحظات ليست كل ما يقال حول المؤتمر . بل ان جو المؤتمر هو الجدير باهم الملاحظات . ولدي في ذلك ملاحظات من نوعين :

١ - أولهما ، ان اعضاء المؤتمر على اختلاف اقطارهم كانوا مجمعين على بعض الاشياء ، كل الاجماع ، مختلفين حول بعضها الآخر ، كل الاختلاف .

اما ما هم مجمعون عليه ، فهو الضيق الكبير بالاوضاع العربية السائدة ، والاعتقاد بما شبه اليقين انها مسؤولة عن التردى الكبير الذي تشكو منه الحياة العربية ، وان هنالك خطين يتوازيان باستمرار ، خطر الاستقرار المتزايد للعدو ، وخط القلق المتنامي في الامة العربية ، فكان الذي يزيد لدينا هو الضعف ، وكان الذي ينمو لديه هو القوة . فهل يمكن القول : ان الانظمة العربية ، بجملتها ، في احسن العافية . على الرغم من تزايد القلق في الشعب ، واستفحال خطر العدو في الوقت نفسه ؟ بل كيف نكون في مثل هذا التردى ، وأنظمتنا في افضل صور السلامة ، او في وضع معقول منها ؟ على الاقل ؟ وكيف يتزايد التردى في الاوضاع العربية ، ويشتد بأس العدو ، ثم لا تستخلص الانظمة النتائج المنطقية التي لا يمكن الا استخلاصها متى كان الانسان تجاه امر من هذا النوع ؟ وهب القضية كلها امتحانا مايجتازه طالب ، ويرسب فيه ، كل مرة ، ولكن بعلامات اقل فأقل . ترى الا ينبغي ، اما للطالب ، واما لافراد اسرته ، ان يلاحظوا ان انسانهم هذا هو اما بليد ، ضعيف المواهب ، قليل الجد ، واما انه ذكي ، ولكنه لا ينشط للدراسة ولا ياخذها مأخذ الجد ؟

لقد كانت هذه الملاحظة موضوع اتفاق بين المؤتمرين ، بوجه عام ، وكذلك كان الاتفاق على ضرورة استعادة المواطن لحرية - لا للديمقراطية كنظام للحكم ، يمكن ان يلبس كل الاشكال ، الاقل ديمقراطية ، ويطلق عليها مع ذلك ، اسم الديمقراطية - بل لحرية التعبير ، وحرية القول ، والنقد ، والمناقشة ، وطرح القضايا العامة ، من اي نوع كانت ، على بساط البحث ، والتداول في خطتها وصوابها باكبر الحرية ، لا باضيقتها ، وفي هذا المجال يمكن القول : ان كل الباحثين ، لاسموا بصورة او باخرى ،

موضوع الحرية ، وكل المستمعين (وهم كثر جدا ، اذ ان الشبيبة التونسية ، وجمهورا ضخما من المثقفين ملأوا دوما كل الابهاء ، وكل مكان يمكن ان يتسع لقدمين واقفتين) كانوا يصفقون بحرارة لكلمة الحرية ، بلذاتها ، بغض النظر عن الجملة التي تحتويها ، والاسلوب الذي تقال فيه ، والسياق الذي ترد في اطاره ، كان الكلمة وحدها اصبحت ذات قوة سحرية تجتذب القلوب تلقائيا ، وتنتزع اشد التصفيق عفويا .

وعندما يلاحظ احد الناس ان للحرية شروطا اقتصادية ، واجتماعية ، ودرجة من الرقي الاجتماعي ، والوعي السياسي ، على سبيل الاعتذار عن قيام نظم مضادة لهذه الحرية في البلاد العربية ، فان الدهشة تصبح كبيرة ، من سوء الظن الى هذه الدرجة بالشعب ، واتهامه بقصور الوعي ، وضعف النضج ، كما لو انه طفل صغير يحتاج دوما الى النصح ، والهداية ، والمراقبة ، والوصاية . وينطرح التساؤل مباشرة : كيف حدث انه لم يوجد في الشعب الا هذه المجموعة من القائمين بامرهم ، وان هذه المجموعة وحدها هي التي تملك الوعي ، دون الناس اجمعين ؟

غير ان الاتفاق في الكلمة هنا (وعلى المطامح العامة ، بصفة خاصة) لاينفي الاختلاف من ناحية اخرى ، والاسيما في النظرة الى جملة من القضايا الفكرية او العلمية . وعلى سبيل المثال ، فان بحث خصائص الشخصية العربية ، تناوله باحثان ، وقال احدهما ان اهم سمة في هذه الشخصية ، هي الميل الى التوحيد ، او الوجدانية . ذلك ان الميل الى القول بآله واحد ينطوي ضمنا على القول بعبادات واحدة ، وتقاليد واحدة ، وقيادة واحدة ، وقوانين واحدة ، واطلاق واحدة . . . الخ . وقال الثاني - بالاستناد الى كلمات الجاحظ في البيان والتبيين ، عندما يقابل بين براعة العرب في الخطابة ، وقصور الشعوب الاخرى عن المستوى العربي فيها - انها شخصية بيانية ، اي انها تحب الكلمة ، وتسحر بجمالها ، وتعشق الشعر ، وتطرب للمعنى الجميل ، وتعجب بحسن

الاستعارة ، ولطف التشبيه ... الخ . مما يذكرنا بكلام بعض الغربيين عن غرام العرب بالكلمة ، وعزوفهم عن العمل ، وقصورهم في التفكير المنطقي ، واغراقهم في التأملات الصوفية ، دون التأملات العلمية ولاشك أنه يمكن أن نجد بعض الحقيقة في أقوال هؤلاء الغربيين ، ولكن هذا لا يعني بالضرورة ان هذه الملاحظات لا تنطبق على الغربيين أيضا ، أو على كل شعوب العالم ، فيما تسند اليهم . أما ماتنفيه عنهم ، فلا بد أنه ليس بالخصائص العرقية الا بمقدار ما يوجد أناس يؤمنون بالمدى العرقي . غير أن الإيمان بهذا المذهب - عدا رجعيته - لا يعني انه قام البرهان عليه . ولست أدري هل من شعب في العالم هوجم من كل أمة ، وتعرض لكل غزو ، وأصابته كل النوائب ، وبقي مع ذلك ، قادرا على طول الباع في التفكير التألمي ، أو المنطقي ، أو العلمي ؟ أو لا يحتاج هذا الى شيء من الشعور بالأمن ، الشخصي والقومي ، وبعض الاطمئنان للمستقبل ؟ وهل وجد شعبنا في أية لحظة خاليا من القلق ، في الحالين ؟

أما الوحدانية فهي مسلمة دينية ، تشد الناس الى مثل أعلى . ولئن كان الواقع يستجيب لهذا المثل مباشرة ، إذن لما احتاج أحد الى الدين . يمكن ان تسحب سمات المثل الأعلى على الواقع المعيش ؟ ان الخطأ المنطقي هنا كبير جدا . ذلك ان الواجب ينقلب بقدرة قادر الى واقع . وليس هذا من السلامة في شيء . ترى ايجب أن يكون الناس فضلاء بالضرورة اذا كان دينهم يدعو الى الفضيلة ؟ ومن « الماثور » في الملة ، انه اذا كان هنالك ملكان للمسلمين ، فيجب قتل احدهما . فهل عنى هذا يوما من الايام ، انه لم يكن للمسلمين الا ملك واحد ؟

وإذا كنا نفيض بعض الشيء في بحث ما قيل حول خصائص الشخصية العربية ، فلاننا نريد أولا ان نتبين الى أية درجة تختلف آراء المفكرين العرب حول سمات شخصيتهم العربية ، كأن احدا منا لا يعرف ماتنطوي عليه نفسه . ثم اننا نريد ان نتبين أن واضعي هذا البحث في اطار أبحاث المؤتمر ، قد قصدوا ، فيما أحسب ، الى بيان جملة السمات النفسية

القائمة في هذه الشخصية والتي تيسر للاستعمار غزوه ، أو تفسره .
ومع ذلك فما من أحد طرح هذه الوجهة من النظر ، ولا أقام لها وزنا .

والآن هل يسعنا القول : ان « البيانية » أو « الوجدانية » كسمة
جامعة للشخصية العربية ، خطأ محض ؟ أو لا يوجد هنا وهناك ما يشير
الى أن لمثل هذا الفكر بعض جوانب الحق ؟ اما انا فاقظن ان ما قيل ليس
كله خطأ ، وكذلك ليس كله صوابا . والمشكلة الكبرى هي اننا نريد
انشاء « الشخصية العربية » انشاء على اساس سمة واحدة . فهل هنالك
شخصية في الدنيا ، لها سمة واحدة جامعة ، خلال تاريخ طوله عدة الاف
من السنين ، وعلى الاقل الف وأربع مئة سنة ؟ أو يمكن أن تكون النفس
العربية التي صنعت المجد العسكري العربي ، والاخرى ، التي انشأت
الحضارة العربية ، والثالثة التي لا تعرف الا الهزيمة في كل ميدان ،
من طبيعة واحدة ، ونسيج متجانس ؟ وهل قادت النفس العربية من الحجر ،
فلا يتغير لها شكل ، ولا لون ، رغم تغير الظروف المحيطة بها ؟

ان أكبر خطأ يرتكب في دراسة الشخصية العربية ، هو الخطأ
المنهجي . فمن أين جئنا مثلا بصيغة « الوجدانية » أو بصيغة « البيانية » ؟
وهل كان ذلك نتيجة انطباع شخصي ، أو حدس فردي ، أو نتيجة دراسة
منهجية بينت لنا أن سمة ما ، هذه أو تلك ، هي كل ما يشترك فيه
افراد الامة العربية من السمات والخصائص . اني اذكر هنا دراسة قام
بها كل من كاتز وبرالي ، لمعرفة المخططات العرقية ،
أي ما التصق بكل شعب من السمات ، نتيجة السمعة ، وتكرار الآراء ،
واقوال الصحف ، وملاحظات الخبراء . وبدأت التجربة بأن صنفت
بعض الرهوط العرقية تبعا لافضليتها ، من قبل ٦٠ طالبا ، مما أدى
الى وضع نضيف يماثل ما أقرته دراسة سابقة لباحث آخر هو
Bogartus . أما في القسم الثاني من التجربة ، فقد جاء فريق من
الطلاب وانشأ قائمة بالخصائص النفسية التي يعتبرونها نموذجية
أو مميزة لكل عرق أو قومية . وتم الحصول على ٨٤ سمة ، بهذا

الشكل وجاء بعد ذلك ١٠٠ طالب آخرين وانتخبوا بين هذه السمات كلها السمات الخمس التي لاح لهم انها اكثر السمات بروزا في كل من الرهوط العرقية العشرة ، موضوع البحث . وكان الباحثان يرغبان ان يعرفا ، بالاعتماد على درجة الاتفاق بين الحكام ، ما اذا كان يوجد او لا يوجد محنط معين ، سابق للتجربة ، ملازم لكل عرق . وكان المقياس الذي اتفق عليه هو اقل عدد من السمات التي كانت تجب اضافتها للحصول على ٥٠٪ من الانتقاءات الخمس التي قام بها المئة طالب ، من اجل كل رهط . وعلى ذلك فان النتيجة كان يمكن أن تتراوح بين ٢ و ٥ ، لو ان السمات الخمس المنتقاء ، كانت واحدة عند جميع الافراد ، و ٤٢ لو ان السمات الثمانية والاربعين من القائمة ، كانت تذكر كلها كخصائص للرهط الذي نبحث في امره . وكانت النتائج تقدم صورة عامة لنفسية كل شعب، على ما يراها الامريكيون. وجاء في النتائج ان:

٧٨٪ من طلاب جامعة برنستون قالوا بان الالمان « ذوو تفكير علمي »

٦٥٪ وصفوهم بانهم « يحبون العمل »

واستخدم ٥٣٪ كلمة الفنان في وصف الايطاليين

٨٤٪ ذكروا بان السود يؤمنون بالخرافات

٧٥٪ قالوا انهم كسالى

٥٣٪ وصفوا الانجليز بانهم لاعبون ممتازون

٧٩٪ قالوا بان اليهود خبيثاء

٥٤٪ قالوا بان الاتراك قساة

وبالجملة فان البحث هنا يكشف عن رأي جمهور معين في نفسية قوم او آخر ، ويكشف عن الفكرة الثابتة القائمة في نفس هذا الجمهور، حول كل عرق . لكن هذا لا يعني ان سمات المحنط المستقر في الازهان ، هي تماما سمات العرق الموصوف . ولا بد من دراسة اخرى ، تبين مثلا ، ان اصحاب العلاقة يصفون انفسهم ، كما يصفهم الآخرون . فهل من باحث عربي قام بأوليات هذه الدراسة لسمات الشخصية

العربية ؟ وهل من حرج اذا قلنا ان ما يتسم به باحثونا ، بالدرجة الاولى ، هو ضعف الفكر العلمي ؟

وقل مثل هذا في موضوع الغزو الثقافي ، قديما وحديثا . فهناك - راي يقول اننا اعطينا الغرب كل شيء ، ونحن الاصل في كل حضارته . وبتعبير آخر ، نحن الذين غزونا ثقافيا . وهناك - راي آخر يقول العكس . اي اننا غزينا ثقافيا من البداية . دوما ، اي بالاسرائيليات في تفسير القصص القرآني ، وبالفلسفات الافلاطونية والمزدكية ، فيما يتعلق بفهم الدين ، وبالفلسفة اليونانية فيما يتعلق بالتفكير المعتزلي ، وحديثا نحن نغزى بالف صورة ، لان جامعاتنا لا تدرس الا كتب « الآخرين » الاجانب ، حتى فيما يتصل بنظريات التاريخ العربي ، والادب العربي .

ولكن الى ماذا انتهى المؤتمر : لقد سبق لنا القول : ان بيانه الختامي قليل الصلة ببحوثه الفعلية . وربما كان هذا شأن كل المؤتمرات ، العربية على الاقل . فنحن نريد ان نقول شيئا ما ، نعتبره هاما . فندعو الى مؤتمر ، ونقول على لسانه ما كنا نريد ان نقوله قبله .

ولكن الى ماذا انتهى المؤتمر : لقد سبق لنا القول : ان بيانه الختامي - ان الفكر العربي استطاع قديما حل الكثير من المشكلات الحضارية التي صادفها شعبنا ، وسيظل كذلك حتما . (تأكيد ايمان) .

- ان ظروف امتنا الخطيرة متناقضة مع ما يملكه شعبنا من قدرات التغلب عليها الا باعمال سلاح الفكر المعطل اليوم واذن فلا بد من تثويره ، والقيام بثورة ثقافية .

- ان ظروف امتنا الخطيرة متناقضة مع ما يملكه شعبنا من قدرات على التقدم .

- لا بد من حلول جذرية شاملة ، لا تفصل فيها معارك الحرية والديمقراطية والاشتراكية والوحدة العربية ، بعضها عن بعض ، ولا

فصل المعركة مع العدو الاجنبي عن المعركة من اجل الحرية والتقدم والعدالة الاجتماعية ... اي لابد من تثوير الواقع العربي (تأكيد القول بأن الواقع العربي محافظ وشير ثوري) .

— ان معاهدات كامب ديفيد ، خلقت وضعا بالغ الخطورة بالنسبة للامة العربية ، لانه يهيء لغزو ثقافي للعقل والفكر والثقافة العربية كمقدمة لاحتلال الارادة العربية . وكانت امتنا قد عرفت صورا لهذا الغزو في الماضي ، اثرت في حياتها تأثيرا عميقا . ولو انها جميعا لا تهدف الا الى تفتيت الشخصية العربية ، والقضاء على كل امل مشترك بين افراد الامة العربية في اقامة وحدة قومية ، بدلا من الكيانات الطائفية والعشائرية .

— ان الانسان العربي هو وحده القادر على احباط مؤامرات الاستعمار والامبريالية والرجعية . ولهذا فقد تلازمت دائما مع الاقليمية والتبعية ظاهرة القمع والاستبداد واهدار الحقوق الاساسية للانسان العربي ، فمورست ضده اشنع اساليب القهر والظلم ، لذلك كانت الديمقراطية وستظل عنصرا رئيسا في بناء المنهج القومي المضاد للاقليمية والتبعية والتخلف وؤسيلة لتحرر الانسان وانعاقه .

تلك هي النتائج التي انتهى اليها مؤتمر تونس . ولا شك ان المؤتمرين لم يقولوا هذا صراحة ، لكنهم بالتاكيد يوافقون عليه . ومن المؤسف انه جرت محاولات لتعريف الديمقراطية بحرية التعبير ، والحريات الاخرى الملازمة لها . ويبدو ان الهيئة المشرفة على تحضير المؤتمر لم تر هذه الاضافات ضرورية . . . ولو انها في رأينا هي الهمم والاعظم . او ليست الديمقراطية قد اتسعت حدودها فأصبحت تضم الشيء وتقيضه معا ؟ ثم ألم يكن يريد المؤتمر ان يقول أشياء كثيرة اخرى غير هذه العموميات الطيبة التي تبدو كالبديهيات بالنسبة لاي شعب يستيقظ على الحياة ؟ لا شك ان المؤتمر كان يريد ان يقول الكثير الكثير ، الذي ليس من اهمه

أن حياة الأمة غير طبيعية ؛ وأن انتاجيتها ليست في مستوى امكاناتها ، وأن قصورها الحالي ليس ابنا شرعيا لكفاءاتها الطبيعية . ولئن كانت المجاملة ضرورية دوما ، فانها ليست بالضرورة عدوة الصراحة ، ولا سيما في الظروف الحرجة جدا التي تعيشها الأمة ، على ما لاحظ كل المؤتمرين . اذ لا معنى للمجاملة عندما يكون الاختيار قائما : فاما الموت ، واما الحياة .

وفي طريق العودة الى دمشق ، تساءلت في نفسي مدة طويلة ، ولا ازال! ترى أهى قضية الغزو الثقافي الصهيوني ، أم هي قضية الشعر الحديث، التي تعتبر لدينا القضية رقم ١ في حياتنا ؟ أم هي أخيرا واولا ايضا قضية التخلف ، بمختلف وجوهه ، هي هذه القضية ؟ ولأحظت بأسف ان الشعر الحديث وقضاياه يشغل العقول ، وتكتب فيه الكتب ، أكثر بالف مرة من قضية التخلف التي ينشأ عنها كل البلاء . ترى اليس بالانحراف العقلي ان نبحث قليلا في القضايا الهامة ، وكثيرا في القضايا الثانوية ؟ أو ليس هنالك مجال لمؤتمر يبحث في قضية التخلف ، أو في قضية هبوط الوجود العربي المتزايد ، ازاء نمو الوجود الصهيوني ؟

* * *

مدخل إلى عالم فؤاد الشايب

عيسى فتوح

هو كاتب ريفي النشأة ، ليبرالي النزعة ، صقلته دمشق ، فكان من أبرز شبانها المثقفين ، ومفكرها الأحرار .

ولد في « معلولا » - إحدى قرى جبال القلمون - في ٢١ تشرين الثاني عام ١٩١١ ، ولم يكد يحس بنبض الحياة ، وبأخذ حظه من مبادئ التعليم ، حتى انتقل إلى دمشق ، ليتابع تحصيله في مدرسة « الجامعة العلمية » التي أسسها الاستاذ سليمان سعد ، وكانت أشبه بجامعة صغيرة ، تستقبل طلابها من مختلف الأقطار العربية ، وتعلم اللغات العربية والانكليزية والفرنسية ، في جو مفعم بالأخاء وعزة النفس ، وإشاعة روح الديموقراطية والحرية .

في هذا الجو المدرسي بدأت مواهبه تشع ، فنال عام ١٩٢٨ جائزة التفوق الاولى في اللغتين العربية والفرنسية ، ولم يشأ أن يظل محدود الافق ، فانتسب الى كلية الحقوق عام ١٩٢٩ وتخرج منها عام ١٩٣٢ .

كان الادب العربي احد مقومات ثقافته ، فحفظ الكثير من الشعر القديم وشعر المعاصرين ، وعكف على مطالعة ما كتبه أئمة البيان ، وأعلام البلاغة .

واذ اخذ زملاؤه طريقهم الى الغرب لمتابعة دراساتهم الجامعية ، فقد سافر هو أيضا الى باريس ، يعب من معاهدها الثقافية ، ويتزود من اللغة الفرنسية وآدابها ، فمكث مدة سنتين (١٩٣٢ - ١٩٣٤) رجع بعدهما وقد اعتنق الكثير من المبادئ الحرة ، والنظريات الاشتراكية :

وحين رجع الى دمشق كان الصراع على أشده بين التيارات الوطنية، ورجال الانتداب الفرنسي ، وكان لا بد له من أن يسير مع الشباب في نزعاتهم الوطنية ، وصراعهم القومي .

وإذا كان محصوله الثقافي أخذ يتبلور في التعبير عن آرائه ، فقد بدأ يكتب في الصحف والمجلات - كتب المقال الادبي ، والمقال السياسي ... كما كتب القصة القصيرة ، حتى اعتبر من أوائل الشباب الذين عالجوها بمضمونها القومي والاجتماعي .

وسرعان ما اجتذبت الصحافة الى رحابها ، فبدأ يترجم عن الصحف الفرنسية ، ويعلق على الاحداث السياسية ، ولا سيما ذات الاتصال الوثيق بالقضية الوطنية ...

وقد ظل يحرر في جريدتي « فتي العرب » و « الإستقلال » من سنة ١٩٣٥ حتى سنة ١٩٣٩ ، كما كتب في عدة جرائد ومجلات سورية ولبنانية ، كمجلة « المعرض » لميشيل زكور ، و « المكشوف » لفؤاد

حبيش ، و « الصباح » ثم « الدنيا » لعبد الفنى العطري ، و « الاديب »
 لالير أديب ، و « الآداب » للدكتور سهيل أديس ، و « النداء » لكازم
 الصلح - وهي من الجرائد الكبرى التي كانت تعبر عن الاهداف العربية
 بجرأة وصدق واخلاص .

وقد أرتاح للعمل في جريدة « فتي العرب » لصاحبها المرحوم معروف
 الأرنؤوط الاديب الروائي الذي كان يضيف على مقالاته السياسية ظلال
 الادب ، بأسلوب رومانسي .

وإذا كان فؤاد الشايب لم يتأثر بأسلوب مؤلف « سيد قريش » ،
 إلا أن حرصه على قوة السبك ، وجمال ديباجة المحررين حفزه على أن
 يعنى بأسلوبه ، فكانت مقالاته المترجمة والموضوعة لا تنأى عن صفاء
 الاسلوب ، ومثانة السبك ، وجمال الديباجة ، وهذه الفترة التي قضاها
 محرراً في الجرائد اليومية ، زودته بالكثير من الخصائص ، وخلقت في
 نفسه المناعة ليواجه الاحداث بروح رياضية ، الى قلب يخفق بالمحبة
 والترفع عن مجارة مناوئيه بالكيد والدس .

وحين أسس ميشيل عفلق ، وكامل عباد ، وسليم خياطة مجلة
 « الطليعة » لتكون لسان حال المثقفين الاشتراكيين ، وقف الشايب الى
 جانبهم ، وكتب في مجلتهم عددا من المقالات ، ثم وقع خلاف بين المؤسسين
 انفسهم ، فقد أراد بعضهم أن تكون مجلة حرة للثقافة العامة ، وأرادها
 بعضهم أن تكون صوت الشيوعيين في عاصمة الامويين ، فانفصل عفلق
 والشايب عنهم ، وظلت المجلة لسان حال الشيوعيين .

هذا ، وما كاد يطل عام ١٩٣٩ على احداث الحرب العالمية الثانية ،
 وتتازم الامور في سورية ، حيث لم يعد أي مجال للعمل الصحفي ، حتى
 سافر الى العراق للتدريس ، فمكث حوالي سنتين يدرس الادب العربي
 في ثانويات بغداد ، وقد تولى وهو هناك رئاسة تحرير جريدة « البلاد »
 لصاحبها المرحوم رفائيل بطي الذي ترك بغداد اثر اندلاع ثورة رشيد
 عالي الكيلاني عام ١٩٤١ .

. وحين عاد الى سورية عام ١٩٤٢ التحق بوظائف الدولة ، فعين رئيساً لقلم المطبوعات ، وظل يشغل هذا المنصب من عام ١٩٤٣ حتى عام ١٩٥٨ ، وخلال هذه الفترة الطويلة توثقت صلته برجال الصحافة وأعلام الفكر ، والعديد من الوزراء والرؤساء . . . وكثيراً ما واجهته الازمات في أحلك الظروف العصيبة التي مرت بالبلاد ، فتحملها بصبر وجلد ، وبسخريّة باسمه هازئة ، الى رجولة صمدت للأعاصير دون طائفة الرأس .

وقد تقلّب في مناصب كثيرة ، فمن رئيس دائرة في الدعاية والانباء (١٩٥١ - ١٩٥٣) الى مدير عام للدعاية والانباء (١٩٥٤ - ١٩٥٩) ، الى مدير عام للإذاعة (١٩٥٣ - ١٩٥٥) ، بالإضافة الى عمله الرئيسي الى مدير للمكتبات في وزارة الثقافة والارشاد القومي التي انتقل اليها كلياً في ١٠/٥/١٩٥٩ ، وهي مراكز حساسة جداً ، ومع ذلك فقد كان في جميع المراكز التي تشغلها الاديب العف اللسان ، النزيه الضمير ، الواثق بقداسة العمل ، يعطيه الكثير من جهده ومرونته وأدبه وإخلاصه .

وفي عهد الوحدة بين مصر وسورية ، ندب للقاهرة في ١/٦/١٩٥٩ ليتولى منصب مدير عام في ملاك رئاسة الجمهورية ، وظل في هذا المنصب المرموق حتى عهد الانفصال - ٢٨ أيلول ١٩٦١ .

وبعد الوحدة عاد الى دمشق ، فشغل وظيفة مدير الارشاد القومي في وزارة الثقافة عام ١٩٦٢ ، وكلف في الوقت نفسه برئاسة تحرير مجلة « المعرفة » التي أصدرتها الوزارة في الاول من اذار عام ١٩٦٢ ، ثم سمي أميناً عاماً لوزارة الاعلام ، عاد بعدها الى رئاسة تحرير المجلة ، كما سمي عضواً في المجلس الاعلى لرعاية الفنون والاداب والعلوم الاجتماعية ، ومقرراً لشعبة الاداب في ١٣/٨/١٩٦٣ .

وقد كان إنتاجه الادبي ، خلال فترات حياته في العمل الحكومي ، محدوداً وغير متكافئ مع ما ينبض في قلبه من أحاسيس ، وما يرتسم في ذهنه من آراء وأفكار ، وسبب ذلك طغيان عمله الرسمي المرهق على

نزعاته الادبية ، ولو انصرف الى عالم الفكر ، لكان انتاجه اغزر وأكثر قيمة ، ومع ذلك فقد استطاع أن يجاري التيارات الادبية في شتى المجالات الفكرية ، فساهم في تأسيس الجمعيات الادبية كـ « ندوة المأمون » عام ١٩٣٣ ، و « جمعية ادباء الاقليم السوري » ١٩٥٩ التي كان رئيسا لها ، واشترك في الكثير من المؤتمرات ، ولا سيما المؤتمرات الادبية ، كمؤتمر الادباء العرب الثاني الذي عقد في دمشق (بلودان) عام ١٩٥٦ ، والمؤتمر الثالث الذي عقد في القاهرة عام ١٩٥٧ ، والمؤتمر الخامس الذي عقد في بغداد عام ١٩٦٥ ، وقد ارتفع صوته في هذه المؤتمرات وغيرها بكلمات ومحاضرات ذات اهداف قومية سامية ، ترمز الى قوى « الذات العربية » المتحررة المنطلقة التي تريد أن تبني حاضرها على دعائم وطيدة ، لخلق مستقبل زاهر ، يكون أزهر من ماضيها المشرق .

في عاصمة الارجنتين :

تاقت نفس المرحوم فؤاد الشايب في السنوات الاخيرة الى الاغتراب ، وتغيير نمط الحياة الرتيبة في دمشق ، وأحب أن يجرب الاغتراب الحقيقي الذي كان يتشوق اليه لأنه - كما يقول في إحدى رسائله للأستاذ عبد اللطيف اليونس صاحب جريدة « الأنباء » في البرازيل - « مفترب مقيم ، مفروسة في كبده اوتاده ، مهدمة على رأسه خيمة مقامه . بعض البشر يفترب ويستطيع الاغتراب فيرحل ، ويقلع اوتاده ، وبعضهم يتشوق الى الاغتراب . أنت يا استاذ عبد اللطيف من البعض الاول ، وأنا من البعض الآخر ، ولعلك تحسدني ، ولعلي احسدك ، وكلانا كالذبابة مع اختلاف المواقع ، من صحن العسل المغطى بالشاش ، لعلني أختنق وأغرق في العسل - ان كان ثمة عسل - ولعلك تحوم فوق الصحن ، وتحسد الفارقين في الحلو والمر حتى الهلاك ! » .

ولذلك لم تكذ وزارة الخارجية السورية تعلن عن رغبتها في اختيار مرشحين لشغل وظائف رؤساء مكاتب الجامعة العربية في الخارج ، حتى

سارع في ١٩٦٢/٢/١ الى ترشيح نفسه ، وتقديم عرض بكفاءاته وخدماته .
 انهاء بقوله : « ازمع انني توفرت على خدمة بلادي وعروبتني في المجال
 الرسمي ، وفي العمل الفكري ، بكل امانة وصدق واتقان ، وارجو ان
 يتاح لي الاستمرار في هذه الخدمة ، عن طريق جامعة الدول العربية » .

وفي ١٩٦٢/٢/١٤ تمت موافقة وزير الثقافة على طلبه وقال :
 « يؤسفنا ان يتقدم الاستاذ فؤاد الشايب ، مدير الارشاد القومي ، بطلب
 تعيينه رئيسا لاحد مكاتب الجامعة العربية في الخارج ، في وقت تعتبره
 الوزارة فيه عنصرا اساسيا من عناصرها ، عرف عنه الخلق القويم
 والاخلاص في العمل .

ولكننا ازاء رغبته الملحة ، لما يمكن ان يقدمه لبلادنا من خدمات جلى في
 ميادين خبرها جيدا ، وتمرس فيها طويلا ، لم يسعنا الا النزول عند
 رغبته ، والموافقة على طلبه .

وانا لو اتقون ان بلادنا ستفيد منه كثيرا في نطاق عمله الجديد ، كما
 اننا نعتبر ان وجود شخص مثل الاستاذ فؤاد الشايب بين موظفي الجامعة
 العربية ، ضمانا قومية وخلقية في آن واحد » .

وفي ١٩٦٦/١٢/٤ تمت الموافقة على اعارة المرحوم فؤاد الشايب الى
 جامعة الدول العربية لمدة ثلاث سنوات ، ليعمل رئيسا لكتب الجامعة
 العربية في بونس آيرس ، وفي شباط ١٩٦٧ التحق بعمله الجديد ، بعد
 ان زار الامانة العامة في القاهرة ، فاستقبلته الجالية العربية بحفاوة
 بالغة ، لان شهرته كانت قد سبقته الى هناك ، وقد امضى في هذا العمل
 ثلاث سنوات ، تعرض خلالها للكثير من حملات المنظمات الصهيونية التي
 قامت بعدة مظاهرات امام مكتب الجامعة ، وتهجمت عليه شخصا ،
 وكانت احداها في ١٩٦٩/٩/٢ فاصيب على اثرها بنوبة قلبية حادة ،
 نجا منها باعجوبة .

واستمرت الحملات الصهيونية ضده ، الى ان القيت قبلة محرقة على المكتب في ٢٨ شباط ١٩٧٠ ، أدت الى تدمير جزء منه ، وقد اثر ذلك بشكل مباشر على صحته ، كما افاد الدكتور ادوارد حبيب في تقريره ، وكان يشرف على علاجه دائما ، الى ان ادركته الوفاة بالسكتة القلبية يوم ١١ تموز عام ١٩٧٠ ، فنقل جثمانه الى مستقط راسه في معلولا ، تلك القرية التي كان يزورها في آخر كل اسبوع « فيلتقي ترابي بترابها ، وهواي بهوائها ، واخوض كفي بطينة القرنفلة التي غرستها ، وأشم عبرها مع انفاس الفجر ... استريح على شهقة وزفرة من الاعماق تلفظ كلمتي : الحمد لله ! » .

لقد كانت خسارة العرب بوفاته جسيمة ، لانه كان مثال الصدق والتبل والاخلاص في العمل ، نذر نفسه لخدمة قضايا امته مقيما ومختربا ، وتفاني في سبيلها ، ولا ادل على ذلك من الكلمة التي رثاه بها الاستاذ عبد الخالق حسونة ، الامين العام لجامعة الدول العربية آنذاك ، وجاء فيها :

« ان الاعمال القيمة التي حققها المرحوم فؤاد الشايب ، خلال الفترة القصيرة التي انقضت منذ انضمامه الى اسرة جامعة الدول العربية ، كمدير لمكتب الجامعة العربية في الارجننتين ، هي كافية لان تظهر ابعاد المصاب الاليم الذي حاق بها . حيث انها في الوقت الذي كانت تتطلع فيه الى المزيد من الانصار والمؤيدين للحق العربي ، فاذا بالجامعة تفجع فجأة بوفاته ، وبالتالي تحرم من علم وادب وخبرة علم من اعلام الامة العربية .

وانني اذ اشارك اليوم شعب القطر العربي السوري الكريم مصابه بوفاة المرحوم الاستاذ فؤاد الشايب ، لا يسعني الا ان اقرر بان هذا المصاب قد شمل الامة العربية باقطارها كافة ، لان نتاج الاعمال التي قام بها وخلدها المرحوم ، لم تكن وقفا على بلد عربي واحد ، او قضية عربية واحدة ، بل كانت شاملة جميع القضايا القومية » .

آثاره

ليس بين ايدينا من آثار فؤاد الشايب المطبوعة سوى :

- ١ - « تاريخ جرح » ، وهو مجموعة قصصية متميزة صدرت عن دار المكشوف في بيروت عام ١٩٤٤ .
- ٢ - محاضرات قومية وثقافية منها « كيف نجابه اسرائيل » التي القاها في النادي العربي بدمشق في ١٥ ايار ١٩٥١ ، بمناسبة ذكرى دخول الجيوش العربية ارض فلسطين .
- ٣ - مجموعة محاضرات واحاديث قومية بعنوان « جمهوريتنا » طبعتها الدار القومية للطباعة والنشر في القاهرة عام ١٩٦٠ .
- ٤ - اطار كتاب عن تاريخ الحريات نشر بعض فصوله في مجلة « الحديث » التي كان يصدرها سامي الكيالي في حلب .
- ٥ - التحولات الجديدة في النطاق الراسمالي والاشتراكية ، وهي دراسات نشرت تباعا في مجلة « المعرفة » تحت عنوان « مع تيارات الفكر العالمي » في ستة واربعين عددا .
- ٦ - « يوم ميسلون » - ٢٤ تموز ١٩٢٠ - منشورات وزارة الثقافة عام ١٩٦٥ .
- ٧ - وهناك عدد كبير من المقالات والدراسات التي نشرت في مجلات ثقافية مختلفة ، اقوم الآن بجمعها وتحقيقها بتكليف من وزارة الثقافة ، لاصدارها ضمن مجموعة آثاره الكاملة ، وهذه المقالات والدراسات تؤرخ مراحل الفكر العربي ، ونضال الامة العربية في النصف الاول من القرن العشرين .

ان جميع ما كتبه فؤاد الشايب ونشره هو محصول فترة الشباب وبداية الكهولة ، وهذا النتاج الفكري يعطينا صورة واضحة عن ادبه

المتزن الذي كتبه في زحمة اعماله الرسمية المرهقة ، ولو انصرف الى العمل الادبي في جو من الهدوء والتأمل والبحث ، ولم تتقاذفه التيارات التي تفرضها قيود الوظيفة ، لاعطى الفكر العربي الكثير من النفحات والدراسات التي تتسم بالروح المنطلقة ، والفكر الخلاق المبدع .

الشايب وادب القصة :

لم يقتصر نتاج فؤاد الشايب على تحرير المقالات السياسية والوطنية والقومية ، وكتابة الابحاث الفكرية الرصينة في تاريخ الحريات واصول الاشتراكية ، بل طرق ابواب القصة في زمن مبكر ، ولذلك يعد احد روادها الذين ارسوا قواعدا منذ الثلاثينات ، فقد فازت قصته « ابن الارملة » بجائزة مجلة « الدهور » اللبنانية عام ١٩٣٤ ، وقال امين الريجاني يومئذ عن كاتبها قبل ان يعرفه : « انه كاتب يجيد الوصف ، ويحسن التصوير ، تقرؤه دون ملل ، كأنك تسمع وترى ، وهو في قصته طويل النفس ، مرتاح ومطمئن ، لانه عاين وخبر . . . وهو مخلص لفنه وللحقيقة » .

وقال محمود تيمور عنها : « انها قصة جيدة وجديرة بالاعتبار من حيث دقة التصوير ، وسلاسة التعبير ، وكاتبها قصصي موهوب ، سيكون له مستقبل مجيد في فن القصة » .

لقد اعطت هاتان الشهادتان القيمتان دفعا جديدا لفؤاد الشايب كي يمضي قدما في كتابة القصة ، تارة يستمدّها من الواقع الحي ، وتارة من المحيط الذي يعيش فيه ، ولذلك كانت القصة تعيش في نفسه ، وفي اعماق وعيه ، فاذا خرجت ظلت تحمل بصمة الحياة التي عاشتها جنينا في طوية النفس . . . كانت كالثمرة الناضجة التعبة على الفصن الذي يحملها ، لا تحتاج الا الى غمرة القلم لتهوي ، وهكذا فانه لا يكلف نفسه عناء وضع الخطط والاشكال .

خير القصص في رأيه ، ما كان لوحة وصورة ، وان افتقرت الى الموضوع ، من فكرة وعقدة وغاية . . . وخير الروايات ما صعد من الواقع المحلي الى الصعيد الانساني .

القصة عنده ومضة من الرؤى الشعرية ، تكتب بلغة النثر وأسلوبه ، فالخيال أبوها الاول ، والحياة أمها ، ويقدر ما يخصب الخيال هذه الحياة ، تستوفي القصة معانيها الجمالية ، ولا يشترط أن تكون القصة حادثا ، لانه يخشى عليها من تطفل التقارير والريبورتاجات الصحفية ، فاذا كانت القصة القصيرة تتميز بسرعة الحركة ورشاقتها ، فانه يخشى من السرد المستطرد أن يعطل الحركة ، ويشوه الرشاقة .

هذه هي خلاصة آراء فؤاد الشايب في القصة ، ومعظم قصصه التي جمعها في « تاريخ جرح » ، وهي احدى عشرة ، لم تتمتع هذه الرؤية التي كان يراها ، وقد صنّفه شاكر مصطفى بين كتاب القصة الواقعيين ، لان صورته واحداثه وثيقة الصلة بالواقع الحي ، وبرود الفعل الانسانية المحتملة ، ولكن يظل بين واقعيته وبين التعبير عن الجو المحلي مسافة بعيدة .

ومهما يكن من أمر ، فقد كان فؤاد الشايب من أبرز من عالجوا كتابة القصة القصيرة في الشرق العربي ، وفي قصصه لمحات تذكرنا ببعض الكتاب الغربيين الذين تأثر بهم ، فهو يجيد وصف المشاهد ، ورسوم اللوحات ، وأجود وصفه ما يدور حول الازمات النفسية ، والتحليل العاطفي ، لكنه يفكر حين يكتب ، ويشير المشاكل الفكرية ، لانه يريد تثقيف قارئه .

معراج نذير العظيمة

عبدالرحمن حمادي

يقول الدكتور الشاعر نذير العظيمة في حديث خاص بهذه الرسالة :
 « لطالما شدني التراث ، ولم استغرب أبدا ان اكون مأخوذا بكل جوانب
 تراثنا العظيم ، فانا ابن هذا التراث ، وكنت دائما أحلم بان اجلس
 في خيمة بين بطن صحراء عربية ، بدويا أعب وأعب من أساطيرنا وشعرنا
 وامثالنا و . . ، حتى كنت في الولايات المتحدة احاضر على طلابي في
 قصة الاسراء والمعراج الدينية ، فاذا بهم مأسورين مثلي لهذا الجزء من
 تراثنا ، يطلبون منه المزيد .

خمس سنوات بتمامها وانا اعود بين الفنية والاخرى ، فإلبي نداء
 طلبتي الافرنج ، فأحدثهم عن المعراج ، وخلال هذه السنوات الخمس
 كنت عاكفا على دراسات وابحاث تتناول المعراج . . فكان هذا الكتاب .

والكتاب الذي يصفه الدكتور العظمة هو « المعراج والرمز الصوفي » (١) الصادر هنا في بيروت كعمل متميز وجهد كبير يضيف للمكتبة العربية دراسة مسهبة قيمة عن تراثنا العربي .

مصادر المعراج :

في الفصل الاول المعنون بـ « مصادر المعراج بين التنوع والوحدة . يوضح العظمة ان نمو قصص المعراج وافقه أمور ، اولها انه كان نموا متدرجا ، ومترابطا عضويا بتطورات العلوم الاسلامية ومنجزاتها ، فاستفاد من علوم الحديث والتفسير والسيرة والتصوف ونزعات القصص الدينية ، وثانيها « ان قصص المعراج انتفعت بروح الانفتاح الاسلامي الذي تحلى به فكر المسلمين وحضارتهم بدءا من حركة الفتوح التي انتقلت من الارض الى الثقافة ... وقد ساعدت نزعة الهضم والتمثل التي وافقت روح الانفتاح قصص المعراج في استيعاب عناصر ومصادر غير اسلامية من وثنية وعبرية وعبرانية دخلت اليها عن طريق التصوف والفولكلور الشعبي ، كما دخلت عن طريق التراث الحي الذي تناقلته الاجيال كابرأ عن كابر » .

« وثالثها ان هذا التنوع الذي دخل على قصة المعراج لم يفقدها الوحدة من حيث التفكير الذي يصدر بالدرجة الاولى عن حاجات الجماعة المسلمة ، ويهدف الى تليتها ، فكان التخيل والتصوير يساعدان في ايضاح معاني المعراج الخالدة ، وافكاره السامية » .

وقد اعتمد الدكتور العظمة على عدة مخطوطات قديمة للمعراج ، منها المخطوطة الاندلسية التي ترجمت في اشبيليا الى اللغة الاسبانية عام (١٢٦٤ م) ، ولكنها ضاعت وبقي لنا منها ترجماتها الى اللغة اللاتينية والفرنسية القديمة ، ومخطوطة اخرى قام بتحقيقها فوجد انها منسوبة لابن عباس ، ومخطوطات اخرى هي بمجملها صور متنوعة لرواية انس بن مالك وابن عباس التي ظلت تنمو مصاحبة ومعبرة عن الحاجات الروحية والاخلاقية للجماعات المسلمة على مختلف أجناسها وانتماءاتها الحضارية .

في الرمز والرؤيا :

وهو عنوان الفصل الثاني من الكتاب ، حيث يوضح الدكتور العظمة ان المعراج يتجلى وثيقة فكرية أدبية تصور لنا آراء المسلمين وتصوراتهم فيما وراء الطبيعة ، كما تزودنا بأنماط من وجهات النظر والتفكير في صلة الانسان بالله والانسان ، والانسان بالكون ، وتلقي أضواء كاشفة على المعتقدات والانظمة الروحية والاجتماعية وخاصة في التصوف .

« وتكاد عقيدة وحدة الشهود تشكل حجر الزاوية في بناء نظامهم الروحي والفكري ، فهم لذلك يصرون على تفسير سورة النجم بهذه الصورة ، أي أنهم يفسرونها تفسيراً رمزياً يتمركز حول رؤية نور الباري ومشاهداته والوصول اليه . . »

ومن هذا المبدأ ينتقل الى رؤيا « البسطامي » الصوفي الرؤيوي الذي فتح الطريق أمام غيره من المتصوفة لاستغلال الطاقة الرمزية المعبرة لهذه القصة العظيمة .

وكذا المعراج محيي الدين بن عربي ورمزيته ، والرؤيا عند « فريد الدين العطار » ومن ثم يقارن بين تصوراتهم واستعمالاتهم الرمزية ، وليقرر ان قصص المعراج تكاد تكون نوعاً ادبياً قائماً بذاته .

ابواب اخرى :

هي : التراث والتقويم الصوفي - النور والحجاب بين التصوف والفولكلور - الكوميديا الالهية ومخطوطة المعراج الاندلسية - هذا معراج النبي (ص) - « وهي ابواب نستقري اهميتها من ذكرنا لعناوينها، يزيدنا اهمية الدراسة التي اثبتتها المؤلف باللغة الانكليزية وتتضمن ملاحظات حول قصة المعراج ومؤثراتها في الادب الصوفي وترجمة لرواية ابن عباس الفولكلورية الى الانكليزية .

بيروت - عبد الرحمن حمادي

مشروع حوليات الثقافة الفلسطينية

اولا : الهدف

يهدف المشروع الى توثيق أبرز أوجه النشاط الثقافي الفلسطيني ، في كل الساحات العربية والاجنبية ، نظرا لتوزع الكتاب والدارسين والمبدعين الفلسطينيين على مختلف الساحات العربية والغربية ، مما يجعل من الصعب على الكتاب والدارسين المقيمين في عاصمة ما تتبع ومعرفة ما انتجه وأبدعه زملاؤهم في العواصم الاخرى يهدف المشروع الى توثيق هذه الحركة الثقافية الفلسطينية ، وتقديمها في كتاب سنوي (نهاية كل عام) مع المقدمات التحليلية والبيانات الاحصائية والدراسات النقدية التي توضح معالم كل جانب من جوانب الثقافة الفلسطينية ، بحيث تكون هذه الحولية مرجعا ثقافيا سنويا لدراسة ملامح الثقافة الفلسطينية ، واساسا علميا يبسط امام الدارسين المسار السنوي لهذه الثقافة ، وطريقة نتائجها المتنوعة .

ثانيا : الآفاق والمستويات

يعتمد هذا المشروع توثيق النشاط الثقافي الفلسطيني في كل الاقطار العربية والاجنبية ، في المستويات والآفاق التالية :

- ١ - نشاط المؤسسات والهيئات التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية
- ٢ - نشاط المنظمات والاتحادات ذات العلاقة بالثقافة .
- ٣ - نشاط الافراد واللجان والمكاتب .

ثالثا : المجالات

تهدف الحولية الى رصد وتوثيق المجالات الثقافية في الدوائر التالية:

- ١ - القوانين والقرارات الفلسطينية الخاصة بالانشطة لثقافية .
- ٢ - المؤتمرات والندوات والمهرجانات والمعارض الثقافية .
- ٣ - المطبوعات والمنشورات الثقافية من كتب ودوريات وصحف ومجلات .
- ٤ - الفنون الجماهيرية كالمسرح والسينما ، والوسائل الاعلامية كالاذاعة والبرامج التلفزيونية ، وكذلك الفنون التشكيلية .
- ٥ - التربية والاعداد الثقافي في المدارس والمعاهد والكليات التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية ، او التي تشرف عليها هيئات فلسطينية .

رابعا : المصادر

نظرا لتشعب موضوع الحولية ، وتوزع الرموز والنشاطات الثقافية الفلسطينية ، على العديد من العواصم ، فان المصادر التي ستمتد اساسا للمعلومات ، ستغطي كافة القطاعات ذات العلاقة ، وهي بشكل مبدئي ما يلي :

١ - **المصادر الرسمية :** وتشمل كل ما يصدر عن هيئات منظمة التحرير الفلسطينية ذات العلاقة بالثقافة ، كدائرة الثقافة والاعلام ، ودائرة التربية والتعليم العالي . . . وغيرها . ويمكن الحصول عليها بالاتصال الدوري المباشر بهذه الدوائر ، لرصد نشاطاتها ونتائجها الثقافية .

٢ - **المصادر النقايبية :** وتشمل كل ما يصدر عن الهيئات النقايبية والاتحادات المهنية الفلسطينية ، وله علاقة بالثقافة ، وخاصة الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين وكافة فروعها في الاقطار العربية ، واتحاد الكتاب في الاردن .

٣ - **المصادر البحثية :** وتشمل المراكز والمؤسسات الخاصة بالبحث والدراسات مثل : مركز الابحاث الفلسطينية ، مركز التخطيط ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية . . . والعديد من المراكز المماثلة في الوطن العربي مثل : مركز الدراسات الفلسطينية ، بجامعة بغداد ، ومؤسسة الارض للدراسات بدمشق .

٤ - **المصادر الاكاديمية :** وتشمل المعاهد العليا والجامعات الفلسطينية مثل : جامعة النجاح ، وجامعة بيرزيت ، وجامعة بيت لحم ، بالضفة الغربية ، والجامعة الاسلامية بقطاع غزة ، والجامعات التي يتوفر فيها نشاطات فلسطينية ثقافية واضحة مثل : الجامعة الاردنية بعمان ، وجامعة الرهوك باربد ، وجامعة بيروت العربية ببيروت ، وجامعة دمشق وجامعة حلب وجامعة الكويت ، وما يصدر من بيانات ووثائق عن هيئات عربية كالمنظمة العربية للثقافة والتربية والعلوم .

٥ - **المصادر الاعلامية :** وتشمل :

١ - الصحف والمجلات والدوريات الفلسطينية في بيروت ودمشق والارض المحتلة .

ب - الصحف اليومية للاقطار العربية التي يوجد فيها تجمعات فلسطينية واضحة مثل : سوريا ، لبنان والاردن والكويت والسعودية وقطر والامارات العربية .

ح - أهم المجلات الاسبوعية والشعرية والدورية التي تعنى بشؤون الثقافة في تلك الاقطار .

خامسا : الخطة الزمنية :

أ - الاعداد لهذه الحولية من الآن وحتى بداية عام ١٩٨٢ .

ب - يبدأ العمل في مطلع ١٩٨٢ ، بجمع المادة وتصنيفها ودراستها وتحليلها اولا فاول خلال عام ١٩٨٢ ، بحيث تكون جاهزة للطبع في نهاية العام .

ح - اصدار الحولية في مطلع عام ١٩٨٣ لتحمل اسم (حولية الثقافة الفلسطينية في عام ١٩٨٢) وهكذا كل عام .



AL-MARIFA

A CULTURAL MONTHLY REVIEW

في الأمداد القادمة:

- دراسات في الرواية المعاصرة - محور
- جابرييل غارثيا ماركيز - ملف
- أزمة المجتمع العربي المعاصر - محور
- دراسات في الحداثة الشعرية - محور